الألف كتاب الثاني

هنري بيرين

تاريخ أوربا في العصور الوسطى

(الحياة الإقتصادية والإجتماعية)

ترجمة وتحقيق: د. عطية القوصي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ أوربا في العصور الوسطى

(الحياة الاقتصادية والاجتماعية)

تأليف

هنري بيرين

ترجمة وتحقيق

د. عطية القوصي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

تاريخ أوربا في العصور الوسطى

(الحياة الاقتصادية والاجتماعية)

الفهـــرس

تقـــديم

لقد حاولت فى صفحات هذا الكتاب التالية أن أرسم الحالة العامة والحركة العامة للتطور الاجتماعى والاقتصادى لغرب أوربا منذ نهاية عهد الامبراطورية الرومانية حتى منتصف القرن الخامس عشر (الميلادى) ٠ وقد جاء تصويرى لتلك الحقبة الطويلة ككل واحد ، كانت أجزاؤه على إتصال دائم مع بعضها البعض ٠ وبمعنى آخر ، فقد اخترت وجهـة نظر أممية ، وأردت ، قبل أى شىء ، أن أرسى السمة الجوهـرية للمظاهر المرسومة ، بغض النظر عن الحالة الخاصة التى كانت عليها، ليس فى اقطار مختلفة فحسب ولكن فى ذات القطـر نفســه ٠ لذلك فقد اضطررت ، بالطبع ، لأن أعطى بروزا خاصا لتلك الأقطار التى نما اقتصادها سريعا واكتمل فى العصور الوسطى ، مثل ايطاليا والأراضى المنخفضة ، التى يلاحظ تأثيرها المباشر وغير المباشر على بقية أوربا ٠

ويجب أن ننوه من أنه لاتزال هنالك ثغرات كثيرة فى معلوماتنا عن هذا الموضــوع ، مما اضطرنى ، فى حالات كثيرة ، أن ألجأ الى التعميم أو التخمين ، حتى أوضح الأحداث أو أتتبع ترابطها ٠ ولكننى كنت حريصا للغاية على ألا ألجأ الى تطبيق النظريات ، خشية أن أقحمها على الحقائق ٠ ولقد كان هدفى أن يكون عملى هذا بداية لمن يجىء بعدى ويبحث فى هذا الأمر ، ولذلك لا أستطيع أن أتملق نفسى وأمتدحها بأننى قد نجحت وبلغت الغاية ٠ وأخيرا ، فلقد حاولت خلال كل عملى أن أكون واضحا ، بقدر الامكان ، حتى عند تعرضى للمشاكل التى دار حولها جدل كثير ٠

أما عن المراجع المهمة التى سوف تساعد الباحث على دراسة ما كتبته أو نقد آرائى ، فانه سوف يجدها فى القوائم الملحقة بكل فصل على حدة ٠

ولقد أوردت فى هذه القوائم الأعمال المفيدة بالفعل فى مجال هذه الدراسة ، اما بسبب ثراء مادتها أو أهمية محتواها ، وذلك يفسر سبب اختيارى لعدد كبير من المقالات الواردة فى الدوريات ·

ويجب أن أعتذر ، مقدما ، عن السهو الذى وقعت فيه والذى سوف يسهل اكتشافه ، ويرجع بعضه الى جهلى ، ويرجع بعضه الآخر ، حقيقة ، الى الأخطاء التى وردت فى بعض الدوريات المختارة ·

هنرى بيرين

مقدمة

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

- ١ -

لكى نفهم حركة اليقظة الاقتصادية التى جرت فى غرب أوربا من القرن الحادى عشر فصاعدا ، من الضرورى قبل أى شيء أن نلقى نظـرة على الفترة السابقة لهذا القرن ·

ووجهة النظر التي علينا أن نتقبلها فى هذا الخصوص ، هى الوجهة التي تقول بأن الممالك الجرمانية ، التى أسست في القرن الخامس على أرض أوربا ، قد حافظت على طابع الحضارة القديمة الرائعة والعريقة ، ذلك الطابع الذى هو فى الأصل طابع حوض البحر الأبيض المتوسط (١)· وحول تلك الأرض المحيطة بهذا البحر ولدت كل حضارات العالم القديم ، وبواسطتها اتصلت احداها بالأخرى ، وانتشرت بعيدا ووسعت أفكارها وتجارتهـــا ، حتى أصبحت أخيرا بمعنى حقيقى محـــور الامبراطورية الرومانية ، التى تحول تجاهها نشاط كل مقاطعاتها من بريطانيـــا الى الرافدين · لكن هذا البحر العظيم واصل فى أن يلعب دوره التقليدى بعد الغزوات الجرمانية · فبسبب استقرار البرابـرة فى ايطاليـــا ، أفريقية ، أسبانيا وغالة ، ظل هذا البحر طريق الاتصال مع الامبراطورية

---

(١) هذه الحقيقة بدت معروفة اليوم حتى للمؤرخـين الذين يعتبرون أن غزوات القرن الخامس قد أطاحت بالحضارة الغربية وغيرت شكلها · انظر : ف · لوت فى كتابه : تاريخ العصور الوسطى ، ر A. Dopsch فى كتابه :

Wirtschaftliche und soziale Grundlagen der Suropaischen Kultur wicklung aux der Zeit von Caesar bis auf Karl den Grossen 2nd ed (Vienna, 1923-4, 2 vols).

ومن مزاياه اظهاره أنه لم يكن هنالك تقطيع فى التاريخ الاقتصادى ما بين الفترة السابقة وبعد تكوين الممالك الجرمانية فى الامبراطورية ·

البيزنطية وظلت هذه الاتصالات تمكنه من أن يحتضن حياة اقتصادية ، كانت ببساطة استمرارا لتلك التي كانت فى العالم القديم • ويكفى هنا أن نتذكر نشاط الملاحين السوريين من القرن الخامس الى الثامن بين موانى الغرب وموانى مصر وآسيا الصيغرى • ولقد سجل الملك الجرمانى ذلك ، على نقود ذهبية رومانية ، كانت وسيلة ورمزا على الوحدة الاقتصادية لحوض البحر المتوسط • وأخيرا صار اتجاه التجارة العام نحو الشرق تجاه جوانب هذا البحر مما أدى بالأشخاص الذين يهتمون بأمره اطلاقهم عليه مثلما أطلق الرومان عليه بالبحر النسطورى •

ولقد بوغت هذا البحر بالدخول المفاجىء للاسلام على مسرحه ، خلال القرن السابع الميلادى ، وبفتوحاته على الجوانب الشرقية له والجوانب الجنوبية والغربية لهذه البحيرة الأوربية الكبرى • ووضعت هذه الفتوح ذلك البحر فى وضع جديد تماما وأثرت نتائجها على مجرى كل التاريخ اللاحق (١) • ومن الآن فصاعدا ، صار المتوسط عائقا بعد أن كان رابطا بين الشرق والغرب طوال عشرة القرون الماضية • واذا كانت الامبراطورية البيزنطية ، بسبب أسطولها الحربى ، قد نجحت فى دفع اللطمة الاسلامية عن بحر ايجه ، والأدرياتيك ، وعن سواحل ايطاليا الجنوبية ، وعن البحر التيرانى ثأرا من المسلمين ، وكل ما استطاع أن يستخلصه منهم ، الا أنها بالنسبة لافريقية وأسبانيا ، فانها اكتفت بتطويقها من الجنوب والغرب ، وفى نفس الوقت وضعت يدها على جزر البليار ، وكورسيكا ، وسردينيا ، وصقلية ، وجعلتهم قواعد لأسطولها فى هذا البحر الأمر الذى أعاد لها سيادتها عليه • ومع مطلع القرن الثامن الميلادى ، عادت التجارة الأوربية الى هذا المربع البحرى الكبير • وبقيت الحركة الاقتصادية باتجاه بغداد حركة شرقية • ولقد قال ابن خلدون عن ذلك ، متأثرا : « لم يعد فى

---

(١) H. Pirenne, Mahomet et Charlemagne, et Un contraste économique : Mérovingiens et Carolingiens, dans Revue belge de philologie et d'histoire, t. I (1922) et II (1923) ;

Les villes du Moyen Age, pp. 7 et suiv. (Bruxelles, 1927).

ولقد أثار هذا الموضوع وجهات نظر معارضة من المستحيل ايرادها هنا ، ومن الممكن لمن يريد معرفتها أن يطلع على عروض هـ• لورنت H. Laurent ، فى مقاله :

Les travaux de M. Henri Pirenne sur la fin du monde antique et les débuts du Moyen Age.

Byzantion, t. VII (1932), pp. 495.

استطاعة لوح خشب واحد (للمسلمين) أن يطفو على مياه هذا البحر » (١)• ولقد قامت على ضفتيه ، التى كانت تستقبل سلفا موجة بعد الأخرى من طوائف وجماعات لها نفس العادات ، ونفس الاحتياجات ، ونفس الأفكار ، حضارتان أو من الأفضل القول عالمان مخاصمان للصليب وللصليبيين • ولقد انهـار توازن العـالم القديم الاقتصـادى ، الذى حدث عند الغزو الجرمانى ، تحت أقدام الغـزو الاسـلامى • وبرغم أن الكارولنجيين قد أوقفوا المد الاسلامى شمال جبال البرانس ، الا أنهم لم يستطيعوا ادراك عجزهم ، ولم يجربوا استرجاع البحر من يد المسلمين • وحين يصبح شارلمان امبراطورا على الغـال الرومان وعلى الغـال الورفنجيين ويكون امبراطورية هائلة باتقان ، من الممكن القول عنها بأنها امبراطورية أوربية، يقوم بأهم أعماله العظيمة التى رأى أنها ضرورية وملحة ، وهو ايجاد نظام اقتصادى جديد ، هو فى الواقع قمة نظم العصر الوسيط •

المسلمون والمسيحيون فى الغرب :

يجب ألا يثير التاريخ اللاحق ، الذى يوضح الاستفادة الكبيرة التى قدمها المسيحيون الى حضـارة المسلمين الزاهرة ، يجب ألا يثير الغرور فى أنفسهم بما وصل اليهم بصدد ذلك من روايات تناقلها بعضهم عن بعض• حقيقة أن البيزنطيين تقدموا وتقدمت مواقعهم على السواحل الايطالية ، وقامت كل من نابلى ، وأمالفى ، وبارى ، والبندقية على وجه الخصوص ، بنشاط تجارى ، قل أم كثر ، مع عرب صقليـة ، وأفريقية ، ومصر ، وآسيا الصغرى • لكن كل توجه هذا الاتجار ، بوجه آخر ، كان من ناحية أوربا الغربية • فى الوقت الذى كانت فيه العداوة قائمـة آنذاك بين المسلمين والمسيحيين وأن كلا منهما وقف وجها لوجه للآخر فى حـالة حرب • ولقد أغار قراصنة المسلمين ، دون توقف ، على ساحل خليج الأسد ، وعلى نهر جنوه ، وسواحل تسكانيا وقطالونيا • وقاموا بالاغارة على بيزة سـنوات ٩٣٥ و ١٠٠٤ ، ودمروا برشـلونة سـنة ٩٨٥ • ولا نستطيع ، أن نلحظ قليل أثر للعلاقة بين هذه الأقاليم وموانى أسبانيا وافريقية الاسلامية قبل بداية القرن الحادى عشر • ولقد كان عدم الأمان كبيرا للغاية على متن هذا البحر ، ووصلت اغارات القراصنة فيه الى

---

(١) Georges Marçais, Histoire et historiens de l'Algerie, p. 212 ((Paris 1931).

....

وقال : « منذ الفتح العربى لبلاد البربر صارت هذه البلاد اسلامية تابعـة للدولة المركزية ، باستثناء بعض الفترات ، وقد ظلت الجسور تقريبا مقطوعة بينها وبين أوربا المسيحية •• وصارت أشبه بمقاطعة من عالم الشرق » • ويجب أن أعرف هنا بأن لنص ابن خلدون علاقة طيبة بما أورده م• مارسيه •

مونبلييه • ولم تعد الأرض الراسخة نفسها في مأمن من أعمال العدو • ومن المعروف أن المسلمين كانوا قد أقاموا لهم في جبال الألب في القرن العاشر الميلادي موقعا عسكريا – في جبال الألب عند « جاردفريني » Garde-Freinet يأسرون منه أو يقتلون الحجاج والمسافرين العابرين من فرنسا الى ايطاليا • وفي نفس الفترة أشاع المسلمون الرعب فيما وراء البرانس بالاغارات التي قاموا بها هناك • وفي سنة ٨٤٦ تقدم عدد من الشرقيين (المسلمين) نحو روما وحاصروا قلعة القديس آنج – Saint Ange • وخلال هذه الظروف لم تستطع الأماكن المجاورة للمسلمين أن تستميل المسيحيين الغربيين الذين كانت النكبات التي وقعت عليهم ليس لها ما يعوضهم عنها • وكانوا في منتهى الضعف الذي لم يسمح لهم بالتفكير في رد الاهانة التي وقعت عليهم وتقوقعوا مرعوبين على أنفسهم وتركوا البحر لخصومهم ليقدموا عبره على المزيد من مخاطرهم • ومن الممكن القول حقيقة ان الغرب قد ازدحم من القرن التاسع عشر الى القرن الحادي عشر بعدد كبير من السفراء الذين قدموا من أماكن بعيدة جاءوا الى القسطنطينية • كذلك توجهت أعداد كبيرة من الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس عبر ايلليريا والبحر التيراني حيث ينزلون في جنوب ايطاليا أو عند سفن باري اليونانية الراسية على الشاطىء الآخر للأدرياتيك حتى يصلوا ، بعد عناء ، الى غايتهم • ولم يكن هنالك ما يخفف عنهم رحلتهم ، كما كان يحدث في السابق ، ونستطيع القول ان الملاحة الغربية في البحر المتوسط ، انعدمت تماما بعد الامتداد الاسلامي على جوانبه •

اختفاء التجارة في الغرب الأوربي :

ولم تبق الحركة التجارية آنذاك ، بسبب افتقادها للشريان الذي يغذيها • ومن السهل أن نعرض أن هذا الشريان ظل غير فاعل لوقت طويل ، الى أن قام من جديد بتموين حركة تجارة موانى ايطاليا وأفريقية وأسبانيا وغاليا ، وبلادهم الداخلية • وليس لدينا شك حين نقرأ الوثائق التي جاءت ، لسوء الحظ ، قليلة ونادرة للغاية وترجع لذلك الوقت ، أن نتبين أنه حتى الفتح العربي لم يكن لدى طائفة التجار المحترفين في كل نواحيهم الواسطة التجارية لارتياد واستيراد ما هو ضروري لبلادهم وما هو معدوم عندهم ، بسبب ذلك ظلت المدن الرومانية التي كانت مراكز للنشاط التجاري ونقاط تجميع السفن الواقعة على جانبي البحر قد اتجهت نحو الشمال قريبا من وادي الراين ، وقد

قامت السفن بادخال البردى ، والتوابل ، ونبيذ الشرق ، والزيت الذى يجرى تفريغه على جوانب البحر المتوسط (*) (١) .

وكان اغلاق هذا البحر بسبب التوسع الاسلامى سببا فى توقف نشاطه بأسرع مايكون خلال القرن السابع الميلادى . ولقد أدى توقف التجارة فى القرن الثامن الى اختفاء التجار (*) . ولقد ساءت أحوال الحياة المدنية فى نفس الوقت عما كانت عليه من قبل . ولقد عاشت المدن الرومانية ، دون شك ، والتى كانت مراكز للادارات الأسقفية ، حيث حافظ الأساقفة على اقامتهم فيها وتجمعوا حول اثنتين من المجموعات الكهنوتية ، عاشت فى كساد ، وفقدت الأسقفيات كل عائد اقتصادى كان يعود عليها من ادارتها للمجالس البلدية . واتضح فى هذه المدن حالة الفقر العام . واختفت العملة الذهبية من الأسواق وحلت العملات الفضية التى سكها الكارولنجيون واستبدلوها مكانها . ولقد حط النظام المالى الجديد الذى سنوه من قدر الدينار الذهب الرومانى ، وكان ذلك دليلا واضحا على قطع العلائق الاقتصادية القديمة وعلى الخصوص مع اقتصاد البحر المتوسط .

التدهور الاقتصادى زمن الكارولنجيين :

من الخطأ الشائع اعتبار عهد حكم شارلمان ، كما هو شائع ومعروف ، فترة ارتقاء اقتصادى . فلقد كان ذلك آنذاك مجرد سراب خادع . وفى الحقيقة ، لو قارنا فترة حكم الورفنجيين ، بفترة حكم الكارولنجيين السابقة لها ، فاننا ننظر اليها من وجهة النظر التجارية كفترة انحطاط وتدهور (٢) (*) . ولقد امتحن شارل نفسه فى هذا الموقف ، ولم يستطع أن يمنع النتائج المحتومة لتوقف التجارة البحرية واغلاق هذا البحر المتوسط ، حقيقة أن هذه النتائج لم تؤثر على مناطق الشمال نفس التأثير على تلك التى عند حوض البحر المتوسط . ولقد ظلت الموانىء المتعددة على بحر الشمال يرتادها الملاحون خلال النصف الأول من القرن

---

(١) P. Scheffer-Boighorst. Die Syrer im Abendlaude, dans Mitteillungen des Instituts für Oesterreichiche Geschits forschung, t. VI (1885), pp. 521 et suiv. ; L. Bréhier, Les colonies des Orientaux en Occident au commencement du Moyen Age, dans Bsyzantinische Zeitschrift, t. XII (1903), pp. 11 et suiv. ; J. Ebersolt, Orient et Occident, pp. 26 et suiv. (Paris, 1929); H. Pirenne, Le Commerce du Papyrus dans la Gaule mérovingienne, dans comptes rendus des séances de l'Acad. des Iuscription et Belles-Lettres, 1928, pp. 178 et suiv.

(٢) L. Halphen, Etudes critiques sur l'Histoire de Charlemagn, pp. 239 et suiv. (Paris, 1921); H. Pierenne, Op. Cit., p. 2.

التاسع الميلادي عند ابحارهم قرب شواطيء بحر الشمال (١) • لكن يجب التحفظ على الرأى القائل باعتبار هذه الأحداث أنها شاهد على عصر اليقظة • انها لم تكن سوى مجرد امتداد لنشاط يجدد الامبراطورية الرومانية ويحتم بقاءها زمن الموروفنجيين (٢) • ومن الممكن بل من المحتمل، أن قيام البلاط الملكى فى اكس لاشابل بتجميع أعداده الخاصة الكبيرة قد ساهم ليس فقط فى الحفاظ على بقاء الامبراطورية ، بل أيضا فى توسيع دائرة التبعية لها فى الأقاليم المجاورة ، وقيامها بتحرك تجارى جديد • والأمر الذى علينا أن نعرفه ، هو أن النورمان آنذاك لم يتأخروا فى وضع نهاية لهذا الوضع الأخير من هذا الماضى • فقد قامت قبائل الكنتوف Quentovic والدورستد Durrstede بالاغارة والسلب والنهب والتخريب على أطراف الامبراطورية قبل نهاية القرن العاشر الميلادى ، وهو تدمير لم يحدث مثله من قبل أبدا فى هذه الأنحاء • ولقد ظن البعض آنذاك أن وادى الدانوب قد قام مقام البحر المتوسط فى كونه الطريق العظيم للاتصال بين الشرق والغرب • وأن هذا النشاط كان على يد الآفار أولا ثم على يد الماجيار • وكل ما نستطيع أن نورده بصدد هذا النشاط على هذا الجانب هى دائرة بعض المراكب المحملة بالملح المستورد من ملاحات سالزبورج ، أما بخصوص الادعاء الكاذب بقيام السلاف الوثنيين بالتجارة آنذاك على شواطيء الالب والسال ، فانه قصد بذلك عمليات التهريب الخطرة للسلاح الذى كان البرابرة يشترونه ويعيدون بيعه من عبيد وأسرى حرب ممن كانوا يشكلون جماعات كارولنجية خطرة مجاورة للامبراطورية • ويكفى القول بما أورده المتخصصون فى تتبع هذا الموضوع أن الخطر الذى ساد تخومهم الحربية لم يبق على أى حركة تجارة طبيعية منتظمة •

- ٢ -

حالة الزراعة فى مجتمع القرن التاسع :

من الجلى أن نعرف أن أوربا الغربية ، ابتداء من نهاية القرن الثامن الميلادى ، كانت قد انتكست فى زراعتها ولم تعد كبلاد زراعية محضة

---

(١) O. Fengler, QuentoWic, seine maritime Bedeutung unter Morowingern und Karfolingern, dans Hansische Geschichtsblätter, 1907, pp. 91 et suiv. ; H. Pirenne, Draps de Frise ou draps de Flandre „ dans Vierteljahrschrift für Social - und Wirtschaftsqeschichte, VII (1909), pp. 308 et suiv. H. Poelman, Geschidenis van den bandel van Noodnederland gedurende bet MerroWingische en Karolingische tijdperk (Amesterdam 1908).

(٢) F. Cumont, Comment la Belgique fut romaniste, 2e td (Bruxelles, 1919).

ولقد كانت أرضها هي المصدر الوحيد للقوت والأصل الأوحد للغنى والثروة • ولقد عاشت جميع طبقات سكان الامبراطورية ، الذين لم يكن لهم أي ايراد غير ما تدره الأرض عليهم ، عيشة الأقنان المتواضعة ، بطريق مباشر أو غير مباشر على ما تنتجه الأرض من زرع سواء كان من نتاج عملهم أو نتاج المكوس المفروضة عليها • ولم تعد ملكية الأرض آنذاك استخداما اقتصاديا ، وقد كانت كل الحياة الاجتماعية في الامبراطورية قائمة على امتلاك الأرض • وكان من المستحيل على الدولة أن تحافظ على نظامها العسكري والاداري الا بالاعتماد عليها • وكانت الدولة لاتستطيع أن تجند الا الحائزين على الاقطاعات والموظفين الذين كانوا من كبار الملاك ، في هذه الظروف أصبح من المستحيل حماية سيادة رأس الدولة • واذا ما وجدت رسميا الا أنها اختفت عمليا • والنظام الاقطاعي يمثل ببساطة انحلال السلطة العامة على أيدي ولاتها ، الذين ، بسبب اعتقاد كل منهم أنه باستحواذه على حصة من الأرض ، أصبح مستقلا واعتبر السلطان الذي أحرزه كجزء من ارثه • وفي الحقيقة فان ظهور النظام الاقطاعي في غرب أوربا ، خلال القرن التاسع ، لم يكن سوى انعكاس في المجال السياسي لعودة المجتمع لحكم حضاري محض •

ومن وجهة النظر الاقتصادية فان الشيء الملفت للنظر والمميز لنظام هذه الحضارة هو الحالة العظيمة التي كانت عليها • وقد جاء أصل هذا التقدم الاقتصادي للدولة منذ القدم ، ومن السهل تتبع خطواته الأولى لو عدنا الى الماضي ، فلقد كان هنالك ملاك كبار للأرض في غالة قبل حكم قيصر ، كذلك كان نفس الشيء في ألمانيا قبل الغزوات • ولقد سمحت الامبراطورية الرومانية للولايات الغالية الكبرى بالقيام ولقد وفقت هذه الولايات نفسها سريعا مع النظام العام الذي ساد كل ولايات الغزاة الفاتحين • ولقد ظلت المدينة الغالية في العهد الملكي ، بتكوينها من عدة مستعمرات بها الكثير من الملاك ، تمثل نفس نمط السخرة الذي وصفه المزارعون الايطاليون على عهد كاتو • ويرجع ذلك الى فترة الغزوات الجرمانية ، مع تغيير طفيف ، فان فرنسا الموروفينجية صانت هذا النظام وقدمته الكنيسة الى ما وراء الراين ، خطوة بخطوة حين تحولت هذه البلاد الى المسيحية (١) •

وهكذا ، فلم يكن نظام الدولة الكبرى ، على أي وجه من الوجوه ، واقعا جديدا • ولكن الجديد هو الطريقة التي عملت بها من لحظة اختفاء

---

(١) لكل ذلك فضلت أن أحيل القارىء الى التقرير الهائل الذي كتبه M. Bloch تحت عنوان :

Les caractéres originaux de l'histoire rurale française, p. 67 et seq.

المتجارة والمدن · وطالما كانت التجارة قادرة على تصدير منتجاتها والمدن عامرة بأسواقها ، قادت الدولة الكبرى واستفادت من عائدات البيع الخارجية ، وشاركت فى النشاط الاقتصادى العام كمصدر للمواد الغذائية ومستهلك للسلع المصنوعة · وبمعنى آخر ، استمرت الدولة فى مقايضة تبادلية مع العالم الخارجى · ولكنها توقفت الآن عن عمل ذلك ، لأنه لم يعد هنالك تجار ولا مدنيون · ولمن تستطيع البيع ، طالما لم يكن هنالك أى مشترين ، ومن أين لها أن تصرف منتجاتها التى لم يعد هنالك طلب عليها ، ولم تكن هنالك حاجة لها ؟ ، والآن وقد عاش كل شخص على أرضه ، لم يعد أى شخص قلقا حول شراء طعام من الخارج ، وبسبب رغبة الحاجة المحضة ، اضطر الملاك أن يستهلكوا انتاجهم الخاص · ولذلك ، فان كل ولاية كرست نفسها لنوع من الاقتصاد الذى وصف « بالاقتصاد المغلق للدولة » ، وهو اقتصاد ، كان ببساطة ، اقتصادا بلا أسواق · ولم ينبثق هذا النظام طوعا ولكن الضرورة دعت اليه ، وليس لأن الدولة لم ترد أن تبيع ولكن لأن المشترين لم يعودوا يأتون الى داخل مجالها · ولقد قام اللورد بترتيبات لم تقتصر على أن يعيش على انتاج ناحيته وحاجات مزارعيه ، ولكنه أراد أن ينتج فى بلده ، ما لم يستطع استيراده من الخارج ، من الأدوات والآلات والملابس التى يحتاجها لزراعة أرضه وللبس خادميه · ولذلك ظهرت الورش الصناعية الصغيرة التى ميزت نظام الدولة فى أوائل العصور الوسطى ، التى حلت بسبب غياب التجارة والصناعة · وبات من الواضح أن الدولة عرضت رجالها لمخاطر الجو التى لم يكن هنالك مفر منها · واذا حدث أن ساء المحصول فان العبء يقع على القلة المطحونة ويصبح من الضرورى استخدام كل المهارات فى الحصول على الغلال اللازمة · ويرسل الأقنان الى خارج الولاية للحصول عليها من المناطق المجاورة الأحسن حظا ، أو الى أى مناطق تكون خاضعة لحكمها · ومن أجل شراء هذه الغلال بالمال يقوم السيد بصهر فضياته لسك عملة يشترى بها ، أو يستدين من رئيس أقرب دير له · وهكذا ، وتحت هذه الظروف الجوية ، وجدت تجارة متقلصة بين الحين والحين الآخر ، واستمرت حركة تجارية متقطعة على طرق القوافل والممرات المائية · وبالمثل ، فقد بحث الناس ، خلال سنوات الانتعاش ، أن يبيعوا الفائض من كرومهم أو محاصيلهم بنفس الطريقة ، وأخيرا ، فان الملح ، كبهار ضرورى للحياة ، قد وجد فقط فى بعض المناطق ، حيث اضطروا للذهاب اليها والحصول عليه · ولكن ليس هنالك فى كل هذا ما يمكن أن يعتبر نشاطا اقتصاديا ، بالمعنى المحدد والمفهوم · ومن الممكن القول بأن التاجر أصبح رهينة للظروف · ولم يعد البيع والشراء الحرفة

الطبيعيــــة لأي شخص ، بل صارتا وسائل لجلب ما يحتاجه النـــاس حين تضطرهم الحاجة الى ذلك • وتوقفت التجارة تماما على أن تصبح أحد فروع النشاط الاجتماعي الذى تطمع كل دولة في أن تتزود بواسطته من كل احتياجاتها • وهذا يفسر لنا سبب انا نجد بعض الكنائس في المقاطعات بدون كروم ، مثلما في الأراضي المنخفضة ، لا تبذل أدنى مجهود للحصول على ما في وادى الســين أو فى أودية الراين والموســيل من كروم تســد بواسطتها ما تحتاج اليه مخازن نبيذهم فى كل عام (١) •

ولقد بدت لأول وهلة معارضة الأسواق العالمية لشلل هذا العصر الاقتصـادى ، لذلك فانهـا من بداية القــرن التاســع بدأت فى الزيادة التدريجية ، وبدات أسواق جديدة أخرى تقام • لكن عددها يثبت تفاهتها• والسوق الوحيد الذى ظهرت أهميته هو سوق سان دينيس ، بالقرب من باريس ، الذى كان يجلب مرة فى العام ، من خـــلال حجاجه ، البائعين والمشترين من مناطق بعيدة • خلاف ذلك ، لم يكن هنالك سوى أسواق أسبوعية عديدة صغيرة ، حيث يعرض فيهـــا المزارعون القادمون مــن الضواحى للبيع قليلا من البيض ، والدجاج ، وأرطـــالا من الصوف ، أو بعض الملبوسات المنزلية • وقد بدا من طبيعة ما هو معروض للبيع عدم قيمته ، وما يقدر عنه بقليل من البنسات فى القيمة (٢) • وباختصار ، فان أوامر شارلمان لأقنان أرض ولاياته (بألا يشغلوا أنفسهم بالأسواق) تظهر أنهم كانوا مشدودين لرغبتهم فى الاستمتاع بالأسواق عن اهتمامهم بالتجارة ذاتها (٣) •

لذلك ، فنحن نبحث دون جدوى ، عن تجار محترفين • فلم يكن هنالك منهم سوى بعض اليهود ، الذين هم وحدهم ، قاموا بالاتجار منذ بداية العهد الكارولنجى ، حتى ان كلمة يهودى وكلمة تاجر صارتا تحملان آنذاك معنى واحدا مترادفا • ولقد استقر عدد منهم فى الجنوب ، ولكن غالبيتهم جاءت من أقطار البحر المتوسط الاسلامية ، ووصلوا الى غرب وشمال أوربا عبر أسبانيا • وكانوا هم الرازانية (الريدانية) ، وهم مسافرون دائمون ظلوا على اتصـــال وثيق بالأقطار الشرقية (١) • ولقد

---

(١) H. Van Werveke. Comment les étalissements religieux belge se procuraient — ils du in Revue belge de philovin au haut Moyen Age ? et d'hist, t. II (1023), p. 643.

(٢) Edictam Pistense 20. Boretius, Capitularia, t. II, (1923), p. 319. Capitulaire de Villis, 54, Ibid., t. I. p. 88.

(٣) عن اليهود انظر كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ت حوالى ٨٥٠ م) ، ترجمة باربير دى منيار ، المجلة الاسيوية ، ١٨٦٥ •

تخصص هؤلاء في الاتجار في البضائع المرتفعة القيمة مثل التوابل والأقمشة الغالية الثمن التي كانوا يصدرونها ، بجهد زائد ، من سوريا ومصر وبيزنطة الى الامبراطورية الكارولنجية • ومن خلالهم ، استطاعت الكنيسة الحصول على البخور اللازم لاحتفال الصلوات الدينية ، كذلك على المنسوجات الغنية التي مازالت تشكل جزءا من كنوز الكاتدرائيات حتى يومنا هذا • ولقد جلبوا الفلفل ، وهو بهار كان نادرا وعزيزا ، حتى انه كان يستعمل في بعض الأحيان بديلا عن النقود ، وجلبوا كذلك الخزف المطلي بالميناء أو العاج أو المنتجات الشرقية ، التي كانت تمثل كماليات الأرستقراطية • وهكذا فان التجار اليهود شكلوا طبقة محدودة للغاية من العملاء • ولذلك حققوا أرباحا وافرة ، ولكن رغم هذه الخصوصية لهم ، فاننا لا نستطيع أن نعتبر دورهم الاقتصادي أكثر من كونه دورا مساعدا • ولم يفقد المجتمع شيئا جوهريا باختفائهم •

وهكذا ، من وجهة النظر الأساسية ، فان غرب أوربا ، من القرن التاسع فصاعدا ، بدا في ضوء كونه مجتمعا فلاحيا في جوهره ، البيع والشراء فيه وانتقال حركة البضائع عبره قد هوت الى أدنى حد ممكن • ولقد اختفت طائفة التجار فيه • وارتبطت آنذاك مصائر الناس بعلاقتهم بالأرض ، التي تمتلكها أقلية علمانية وملاك كنسيون ، يعمل تحت وطأتهم عدد كبير من الأجراء موزعين في اطار الولايات الكبرى • وتمتلك الأرض في ذلك الوقت ، كان في نفس الوقت أن تمتلك الحرية والقوة ، لذلك كان مالك الأرض آنذاك لوردا أيضا • وأن تحرم من ذلك معناه أن تنزل الى العبودية ، لذلك فان كلمة (قن) كانت تطبق على المزارع الذي يعمل في أرض الحكومة أو يعيش في العبودية • هذا وليس من الأهمية بمكان أن هنالك عددا من الأفراد عاشوا هنا أو هناك احتفظوا بملكية أراضيهم وبحريتهم الشخصية • وكقاعدة عامة فان العبودية كانت الوضع الطبيعي لمجموعات المزارعين ، ومن الممكن القول انها كانت لكل المزارعين • ولقد كانت هنالك ، بالطبع ، درجات في هذه العبودية ، فانه الى جانب أولئك الذين روثوا العبودية من نظام الرق القديم ، فاننا نجد هنالك أحفاد صغار الملاك الذين دخلوا برغبتهم تحت حماية الكبار • ولم يكن جوهر الحقيقة في وضعهم الشرعي ولكنه كان في ظروفهم الاجتماعية ، فلقد أصبح ، من الناحية الاجتماعية ، كل من يعيش على أرض اقطاع تابعين ، مسخرين وفي نفس الوقت تحت الحماية •

في مثل هذا المجتمع الصارم الذي يتسيد فيه رجال الدين ، تصير الأولويات والأهمية الشديدة لكل ما يتصل بالكنيسة ، التي تملكت الاقتصاد في الحال والسطوة الأخلاقية • ولقد كانت ولاياتها التي لا تعد متفوقة

فى المكانة والدرجة عن تلك التى كانت لولايات النبلاء ، برغم تفوقها عنها فى التعليم • والكنيسة وحدها ، كانت لها مصادر مالية اضافة الى تبرعات الحجاج وصدقاتهم سمحت لهم ، فى أوقات الفاقة ، أن تقرض العاطلين المحتاجين • علاوة على ذلك ، ففى مجتمع كان قد انتكس فى جهل مطبق لا يتبقى الا هاتان الأداتان الضروريتان من أدوات الثقـــافة ، وهما القراءة والكتابة ، ومن رجال الكنيســة الذين اتخـــذ الملوك والأمراء وزراءهم ومستشاريهم وكتابهم ، كان ، باختصار ، من المستحيل على غيرهم مـن سائر المتعلمين أن يجدوا وظائف لهـم • ومن القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر كانت كل الأعمال الحكومية ، فى الحقيقة ، فى يد الكنيسة ، فقد كانت لها فى ذلك اليد العليا ، مثلما كانت لها فى الفنون • ولقد كان تنظيم ولاياتها مثاليا ، وقد حاولت ولايات النبلاء ، دون جدوى ، أن تتساوى معها فيه ، ذلك لأنه كان فى الكنيســـة فقط رجـــال ادارة ممتازون ، يستطيعون ترتيب الأمـور الماليـــة ويحتفظون بســـجلات الحسابات ، ويقدرون الايرادات والمعونات وبالتالى يوازنون بينها • وبذلك لم تكن الكنيسة فقط سلطة العصر الأخلاقية ، ولكنها كانت أيضا القوة المالية الكبرى •

زيادة على ذلك ، فان تصور الكنيسة للعالم ، كان متوائما مع الظروف الاقتصادية لذلك العصر ، الذى كانت فيه الأرض الأساس الأوحد للنظام الاجتماعى • فلقد أعطى الله الأرض للناس ليعيشوا فى الحياة تحت ظل عبوديتها • وهدف العامل ليس هو فى أن ينمى ثروته ويغتنى ولكن ليبقى فى الوضع الذى ولد عليه ، حتى تنتهى هذه الحيـــاة الفانية ويعود الى الحياة الأبدية • وحياة التصوف هى الحياة المثلى التى على كل المجتمع أن يوجـــه نظره اليها • ولكى تطلب الغنى عليك أن تقع فى شرور البخل والشح • والفقر أصل الهى فرضته العناية الالهية على العباد ، ولكن وجب على الأغنياء أن يرفعوا من معاناة الفقراء منه بالصدقة والاحسان ، وقد ضربت لهم الأديرة المثل فى ذلك : « دع الفائض من محصولهم ، ثم خزنه ووزعه بالمجان على الناس ، تماما كما تفعل الكنائس نفسها حين تعطى سلفيات من عندها للمحتاجين وقت الحاجة » •

الاقراض وقت الحاجة بالفائدة (بالربا) عمل مكروه • ولقد كان ذلك مكروها منذ بداية الاكليروس ، ومنذ القرن التاسع نجحت الكنيسة فى تحريمه لسواد الناس وفى استبقائه من اختصاص المحاكم الاكليريكية • اضافة الى ذلك ، فان التجارة عموما كانت أقل ضررا بالسمعة من الاتجار فى المال ، لأن الاتجار فى المال خطير على الروح ، التى انصرفت عن التفكير

فى نهايتها الحتمية · « فروح التاجر فى المال تنصرف تماما عن التفكير فى خالقها » (١) ·

ومن السهل أن نرى كيف أن هذه المبادىء تناسقت مع الحقيقة وكيف أن المثل الاكليريكية ، قد وفقت نفسها مع الحقيقة · ولقد زودت هذه المبادىء الدولة وأعطتها التبرير لتصرفاتها بالأشياء التى بواسطتها كانت الكنيسة أو المستفيدين منها · ما هو الشيء الأكثر طبيعية من استهجان الربا ، والتجارة ، والربح لذات الربح ، فى تلك القرون التى كانت فيها كل ولاية تعتمد على مواردها الذاتية ، وكانت ، من الطبيعى ، تكون لنفسها عالما صغيرا لها ؟ وهل هنالك فائدة أكثر ، من القول بأن المجاعة وحدها هى التى تجبر الناس على الاقتراض من جيرانهم ومن ثم تفتح الباب لكل تعسف فى المضاربة التجارية ، والربا والاحتكار ، الى الاغراء الذى لايقاوم لاستغلال الحاجة ، اذا لم تحرم الآدب الدينية هذه التعسفات الزائدة ؟ بالطبع ، فان هنالك تفاوتا كبيرا بين النظرية والتطبيق ، والأديرة نفسها كانت من النادر أن تتجاوز أوامر وتعاليم الكنيسة · ولكن ، من أجل كل ذلك ، كان تأثيرها الروحى عميقا على العالم ، جعل الناس لقرون يعتادون الممارسات الجديدة التى يتطلبها الأحياء الاقتصادى للمستقبل وليتعلموا أن يتقبلوها كتشريع ، دون تحفظ عقلى ، ومكاسب تجارية ، وتوظيف للأموال ، والاقتراض بالفائدة ·

(١) Goldschmidt, Universalgeschichte des Handelsrechts, t. I, p. 130 (Stuttgart 1891).

الفصل الأول

إحياء التجارة

١ ـ فى البحر المتوسط (١)

لقد أغلق الغزو الاسلامى لحوض البحر المتوسط فى القرن السابع الميلادى هذا البحر أمام مسيحيى الغرب ، ولكنه لم يغلقه أمام كل المسيحيين • حقيقة أن البحر التيرانى ، أصبح بحيرة اسلامية ، ولكن ذلك لم يكن مصير المياه التى يسبح فيها الجنوب الايطالى ، أو مياه الأدرياتيك أو بحر ايجة • ولقد رأينا كيف أن الأساطيل البيزنطية فى هذه العروض نجحت فى صد الغزو الاسلامى ، وبعد الاختبار الذى وجهه عند حصار القسطنطينية سنة ٧١٩ م ، فان تزايد الهجوم الاسلامى لم يزدد بعد ذلك فى البسفور • لكن الصراع بين العقيدتين استمر ، مع تناوب النجاح والاخفاق • ولقد ضمم العرب ، سادة افريقية ، على حصار صقلية ، التى استولوا عليها تماما بعد سقوط سراقسطة فى أيديهم سنة ٨٧٨ م ، وقد كان ذلك الحد لغزوهم • ولقد واصلت مدن جنوب ايطاليا : نابلى وجنوه وأمالفى وسالرنو فى الغرب ، وبارى فى الشرق ، ولاءها للامبراطور البيزنطى ، كذلك فعلت البندقية ، التى كانت على رأس الأدرياتيك ، ولم تكن تبدى أى خوف من هجمات المسلمين •

ولم يكن الرباط الذى ربط هذه الموانى بالامبراطورية البيزنطية فى حقيقته رباطا قويا ، ولكنه كان رباطا ضعيفا • ولقد قام النورمان الذين أنشأوا دولتهم فى ايطاليا وصقلية (١٠٢٩ ـ ٩١) بقطع هذا الرباط نهائيا • أما البندقية ، لما كان الكارلنجيون لا يستطيعون احكام قبضتهم عليها فى القرن التاسع ، فقد رغبت فى أن تظل تحت سلطة باسيليوس ، لأنه فطن الى ذلك ، وسمح للمدينة أن تتحول بالتدريج الى جمهورية مستقلة • أما عن الباقى ، فاذا كانت علاقات الامبراطورية السياسيه مع

---

(١) Bibliography — W. Heyd and A. Schaube, The general bibliography, p. 227.

H. Kretschmayer, Geschichte von Venedig, Gotha, 1905-34, 3 vols — R. Heynen, zur Entstehung des Kapitalismus in Venedig, Stuttgart - Berlin, 1905 — L. Brentano, Die byzantinische Volkswirtschoft, in Jahrbuch für Gesetegebung, Ver Waltung, etc. t. XLI, 1917. Pirenne. Medieval Cities : Their Origin and the Revival of Trade, translated by : Frank D. Halsey, Princeton, 1925 — French édition, Les Villes du Moyen Age, Brussels, 1927.

ملحقاتها الايطالية البعيدة غير نشطة ، فانها تقوم بتعديلها بواسطة القيام بتجارة نشطة معهم للغاية • وفى هذه الحالة ، يسيرون فى ركابهـا ، وكما يقال ، يديرون ظهرهم للغرب ويتجهون بأنظارهم نحو الشرق • وأما عن تموين وامداد القسطنطينية التى كان يزيد عدد سكانها عن المليون نسمة آنذاك ، فانها كانت تستقبل وتستوعب صادراتها ، وفى المقابل تقوم مصانعها وأسواقها بمدهم بما يحتاجون من منسوجات حريرية وتوابل لم يكن لهم غنى عنها •

أما عن الحياة المدنية ، بكل ما تتطلبه من ترف ، فان هذا الترف لم يختف فى الامبراطورية البيزنطية كمـا حدث فى امبراطـورية الكارولنجيين • والعبور من الأخيرة الى الأولى ، كان كالعبور الى عالم آخر • هنا ، تطور اقتصادى لم يتأثر بتقـدم الاسـلام ، والتجارة بحرية مهمة استمرت فى امداد المدن العامرة بالسكان بالصناع والتجار المحترفين • وليس هنالك مزيد من التباين الملفت للأنظار يمكن تصوره من ذلك الذى كان بين غرب أوربا ، حيث كانت الأرض هى كل شىء والتجارة لاشىء ، والبندقية المدينة التى لا أرض لها ، تعيش على التجارة فحسب •

ولقد توقفت القسطنطينية والموانىء المسيحية الشرقية عن أن تكون المنظور الوحيد لملاحة مدن ايطـاليا البيزنطية والبندقية • ولقـد كانت روح الاقدام والبحث عن المكسب أشد قوة وأكثر ضرورة من أن يسمح للمتدينين المتشددين أن يمنعوا التجار لوقت طويل من تجديد علاقاتهم التجارية السابقة مع افريقية وسوريا ، برغم أن هذه البلاد صارت الآن فى يد (الكفار) • ولقد عادت الاتصالات التجارية من القرن التاسـع ونمت بعد ذلك وازدادت ولقد كانت ديانة عملائهم تعنى القليل لهم مقابل ما كانوا يحصلونه منهم من نفع مادى • وان حب الكسب ، الذى دمغته الكنيسة ووسمته باسم الشح ، ظهر هنا فى أفظع مظاهره • ولقد صدر البنـادقة الى (حـريم) مصر وسـوريا صغار الرقيق ، الذين حملوهم أو ابتاعوهم من الساحل الدلماشى ، ورزح هؤلاء فى العبودية وأسهم ذلك فى ثراء هذه البلاد ، كما فعلت تجارة الرقيق فى القرن الثامن عشر على يد الشاحنات الانجليزية والفرنسية الكثيرة • يضاف الى ذلك تصدير الخشب والحديد ، اللذين لم يكونا متوافرين فى الأقطار الاسلامية ، برغم عـدم شك هؤلاء فى أن هذا الخشب سوف يستخدمه المسلمون فى بناء السفن الحربية والحديد فى السلاح المستخدم ضد المسيحيين ، وربما كان ضد سفن البنادقة الحربية • والتاجر هنا دائما لاينظر الا لكسبه المادى ، وعقد الصفقات التجارية المربحة • ودون جدوى ، جاء تحذير البابا وتهديده بتحريم بيع الأرقاء المسيحيين ، أو تهديد الامبراطور البيزنطى بمعاقبة كل

من يمد الكفار بأدوات تستخدم فى الحرب • ولقد استعاد البندقانيون ، التجـــار البيض ، فى القرن التاسع من الاســكندرية مخلفات القديس مارك ، وحفظوها تحت حمايتهم ، واعتبروا تقدم الثروة الذى أحرزوه هو ثمنا لهذا العمل العظيم الذى قاموا به •

ولقد استمر هذا التقدم بالطبع • وبكل الوســـائل ، فان مدينـة المستنقعات كرست نفسها بنشاط وهمة مدهشة فى تقدم هذه التجارة البحرية ، التى صارت أساس وجودها • ولقد مارس كل سكانهـــا تلك التجارة واعتمدوا عليها ، كما اعتمد رجال اليابســـة فى حياتهـــم على الأرض • وهكذا فان عبودية الأرض ، النتيجة الحتمية لحضارة الفلاحين الريفية آنذاك ، لم تكن معروفة فى هذه المدينة ، مدينة البحارة والصناع والتجـــار • ولقـــد أقامت مجازفات الثروة فقط بينهم فوارق اجتمـاعية مستقلة عن الأوضاع المعهودة • ومنذ عهود بعيدة ، خلقت أرباح التجارة طبقة من أغنياء التجار ، الذين أفرزت عملياتهم التجارية نمطا رأسماليا محققـــا • ولقـــد كان ظهور الجمارك فى القرن العاشر فى هذه المدينة نتيجة تأثير واقتباس من نظام الجمارك البيزنطى •

ولقد كان استخدام الكتابة أمرا مهما بالنسبة للأشغال التجارية ، وشاهدا على النمو الاقتصادى • فلقد شكل « كاتب الحسابات » جزءا من أدوات كل تاجـــر يبحـــر على ســـفينة ومن ذلك نستطيع أن نستنتج أن أصحاب السفن التجارية أنفسهم قد تعلموا سريعـــا أن يحتفظوا بدفاتر حسابات لهم وأن تكون لهم خطاباتهم مع مراسليهم (١) • وليس هنالك أى لوم يذكر فى هـــذه الكتابات بصـــدد الأعمال التجـارية الواسعة الحجم • ولقد قام بذلك أكثر العائلات أهمية وشهرة • وضرب الدوقات أنفسهم المثل فى ذلك ، وظلوا يقومون بذلك منذ منتصف القرن التاسع ، ولقد استنكر ذلك فى عصره الآب لويس التقى • وفى عام ١٠٠٧ م أفرز بطرس الثانى أورسيليو زكاة للفقراء من ربح حصل عليـــه من الاتجار مقداره ١٢٥٠ جنيها • وعند نهاية القرن الحادى عشر ، امتلأت المدينة بالبطارقة الأغنياء ، أصحاب نصيب فى السفن المتاجرة ، الذين امتـــدت حوانيتهم ومخازنهم التجارية جنبا الى جنب على خلجان الجزيرة العائمة •

---

(١) Heynen, Op. cit., p. 92.

اقدم الأمثلة على ذلك يرجع الى سنة ١١١٠ م ، لكن من الواضح أن ذلك كان أقدم من ذلك التاريخ •

ولقد كانت البندقيـة آنذاك قوة بحرية عظمى • ونجحت قبـل عام ١١٠٠ م واستطاعت أن تطهر الجزء الدلماشي من الأدرياتيك من قراصنة البحر الذين كانوا منتشرين هناك ، وأن تحكم قبضتها على كل ساحل البحر الشرقي ، ذلك الجزء الذى اعتبرته ضمن نطاقها وظل كذلك لعدة قرون • ولكي تحافظ على السيطرة على مداخلها الى البحر المتوســـط ، ساعدت سنة ١٠٠٢ م الأسطول البيزنطي فى طرد المسلمين مـن جزيرة بارى • وبعد ذلك بسبعين عاما ، حين قامت دولة النورمان فى جنوب ايطاليا على يد روبرت جيشارد ، وهددتها بمخاطر بحــرية عليهـــا وعلى الامبراطورية اليونانية ، قامت بالتحالف مع البيزنطيين لمحاربته والتغلب على النورمان الخطرين • وبعد موت روبرت (١٠٧٦) تبدد حلم هذا الأمير الطموح بالتوسع فى البحر المتوسط • وانقلبت الحرب لصالح البندقية وفى نفس الوقت تخلصت من المنافسة مع نابلى وجنوة وسالرنو ، وفوق ذلك مع أمالفى • هذه المدن التى كانت قد انحازت لدولة النورمان ، انهارت معها، وتركت أسواق القسطنطينية والشرق للبندقانيين •

وبسبب ذلك تمتع البنادقة بتفوق وانتعاش كبيرين لمدة طويلة فى هذه الأسواق • وفى سنة ٩٩٢ م حصل الدوق بيترو اثنانى أورســـيلو على مرسوم من الامبراطور باسيل والامبراطور قسطنطين باعفاء المراكب البندقانية من الرسوم التى كانوا يدفعونها فى ميناء أبيدوس • وظلت العلاقات نشطة بين البندقية وموانى البسفور ، بحيث قامت للبندقانيين مستعمرة فى البسفور ، كانت لهم فيها امتيازات قضائية صادق عليهـــا الأباطرة • وفى الأعوام التالية ، أقام البنادقة لهم مستعمرات أخرى فى أنطاكية وأطنة وطرسوس وافسوس وهرقليا وسالونيك وأثينا وكورفو • وفى كل مواضع الامبراطورية تملكت البندقية قواعد امداد ونفوذ ، قامت بتأمين سيادتها التجارية • ومنذ نهاية القرن الحادى عشر ، يمكن أن يقال انها قد أحرزت احتكارا عمليا للتصدير فى كل أقاليم أوربا وآسيا التى مازالت فى حوزة حكام القسطنطينية • ولم يحــاول الأباطرة أن يتصدوا لمكانتها ولم يكن من مصلحتهم أن يتنازعوا معها • وان الامتيــاز الذى منحه اياها الامبراطور اليكسيس كومنين فى مايو ١٠٨٢ يمكن أن يعتبر أقصى تخصيص للسيادة البندقانية فى الامبراطورية البيزنطية • ومنــذ ذلك التاريخ كان البنادقة معفين ، داخل الامبراطورية • من كل المكوس التجارية ، وبذلك تميزوا عن سائر عناصر الامبراطورية • وان الاتفاق الذى استمروا على القيام به بصدد ادخال البضائع الأجنبية الى الامبراطورية كان دليلا كافيا على أن كل تجارة الجانب الشرقى البحرية للبحر المتوسط

كانت فى أيديهم وبرغم ما عرفناه عن تقدم تجارتهم مع بلاد الاسلام منذ القرن العاشر الميلادى ، فإن كل شيء يشير أنها نمت بنفس الطريقة ، ان لم تكن بنفس القوة •

٢ – فى بحر الشمال وبحر البلطيق (١)

كان المنظر الذى عليه البحـران الداخليـان : بحر الشمال وبحر البلطيق ، اللذان يغسلان شواطىء أوربا الشمالية على البحر المتوسط ، الذى كانا ذيلا له ، من منتصف القرن التاسع الى نهاية القرن الحادى عشر مختلفا تماما عن الحال الذى هو عليه الآن ، ولا يتشابه معه فى أى سمة جوهرية • لأننا هنا ، وأيضا ، على الساحل ، ويمكن القول على الطـرف الأوربى ، نجـد نشاطا بحريا وتجـاريا ملفتا للأنظار مباينا لنشاط القارة الاقتصادى الزراعى •

ولقـد رأينا من قبل كيف أن نشاط ميناءى كينتوف ودورستيد قد توقف بعد غزو الفيكنج فى القرن التاسع • وبسبب نقص الأسطول ، لم تستطع الامبراطورية الكارولنجية أن تدافع عن نفسها ضـد غزوات برابرة الشمال ، كما دافعت الامبراطورية البيزنطية عن نفسها ضد هجوم المسلمين • ولقد استغل الاسكندنافيون النشطاء هذا الضعف جيدا لأكثر من نصف قرن ، فى شن غارات سنوية ، ليس فقط عن طريق مصبات الأنهار الشمالية ولكن أيضا عن طريق أخوار المحيط الأطلنطى • لكن رجال الشمال لم يقوموا بالسلب والنهب • ولقد استطاع سادة البحر أن يبرروا عدوانهم ، على أن قصـدهم لم يكن منه الغزو ، رغم أنهم كسبوا مناطق استقرار صغيرة لهم على القـارة وفى الجزر البريطانيـة ، وهذا أقصى ما كانوا يستطيعون فعله • وقد صاحب اغاراتهم على داخـل أوربا فى جوهرها تخريب كبـير • وكان تنظيم الفيكنج ، كمـا يتضح ، معدا بعناية تامة ، وكانوا جميعهم قد انطلقوا من معسكر رئيسى حصين ، وقد جمعوا فى هذا المعسكر غنائمهم وأسلابهم التى غنموها من المناطق المجاورة

---

(١) Bibliography — A. Bugge, Die nordeuropaischen VerehrsWege im fruhen Mittelalfer und die Bedeutung der Wikinger für die Entwickelung des europaischen Handels und der europaischen Schifahrt, in Vierteljahrschrift für Social-und Wirtschaftsgeschchte, t. IV, 1906. — W. Vogel, Ge chichte der deutschen Seeschiffahrt, Berlin, 1925 — J. Kulischer. Russische Wirtschaftsgeschichte, t. I, Berlin. 1915. — E. Balelon. Du commerce des Arabes dans le nord de l'Europe avant des croissades, in Athénée Oriental, Paris, 1882 — O. Montelius. Kulturgeschichte Schwedens. Leipzig 1906. — K.T. Stra ser, Wikinger und Normannen, Hamburg, 1928.

وكدسوها فى انتظار ارسالها الى الدانمرك أو النرويج • ولقد كان الفيكنج فى حقيقتهم ، قراصنة ، والقرصنة هى المرحلة الأولى للتجارة • وقد ثبتت صحة ذلك فى نهـاية القـرن التاســع ، حين توقفت غاراتهم ، وتحولوا ببساطة الى تجار •

ولتفهم غارات الاسكندنافيين ، علينا أن نتذكر أنها لم تكن جميعها موجهة نحو الغرب • ففى الوقت الذى ألقى فيه الدانيون والنرويج بأنفسهم على أراضى الامبراطورية الكارولنجية ، وانجلترا ، واسكتلندة وايرلنده ، فان السويديين اتجهوا نحو روسيا • ومن وجهة نظرنا ، ليس مهما أن نعرف اذا ما قد كانوا قد طلبوا المساعدة من أمــراء الســلاف فى وادى الدنيبر أثناء صراعهم مع البشناق ، أو سواء ، فى البحث عن نصر ، قد قاموا باندفاع تلقائى نحو شواطىء البحر الأسود البيزنطية ، عبر الطريق الطبيعى والكبير الذى كان قد سلكه تجار اليونان منذ عهود بعيدة من خرسونيز وبحر آزوف فى طلب كهرمان البلطيق • ويكفى أن نقرر أنه منذ منتصف القرن التاسع قد أقاموا معسكرات حصينة على طول نهر الدنيبر وروافده ، مثل تلك التى أقامها اخوتهم الدانيون والنرويجيون فى ذات الوقت فى أحواض أنهار الشيلد والميزوالسين • ولقد أصبحت هذه المواقع الحصينة البعيدة بعدا كبيرا عن أرضهم الأم قلاعا دائمة ، أحكم منها مهاجموهم الهجوم والحرب على من جاورهم • ومن هناك جمعوا الضرائب من الشعوب المغلوبة وأخذوا العبيد ، كذلك جمعوا العســل والفراء من غاباتهم البكر والغنية بخيراتها التى لم تكن قد استغلت بعد • ولكن قبل فوات وقت طويل ، دفعهم الوضع الذى صاروا عليه الى أن يتحولوا الى تجار •

وجنــوب روســيا ، حيث اســتقر الفيكنج ، يقع ، فى حقيقته ، بين منطقتين حضاريتين زاهرتين • فالى الشرق ، أسفل البحر الأسود ، تمتد الخلافة العباسية حتى الجنوب ، والبحر الأســود يسبح فى شواطىء الامبراطورية البيزنطية حتى القسطنطينية • ولقد شعر الاسكندنافيون فى حوض الدنيبر فى الحال بهذا الجذب المضاعف • ولقد بين لهم قبل العرب واليهود والبيزنطيين ، الذين كانوا يترددون على هذه المناطق قبل مجيئهم اليها ، الطريق الذى عليهم اتبــاعه • ولقــد وضعت البلاد التى فتحوها تحت تصرفهم سلعا جاهزة للاتجار بها مع الامبراطوريات الغنية وتحقق لهم حياة مترفة ، وهذه السلع هى : العسل والفراء ، ويأتى الدقيق قبلها ، الذى يحتاج اليه المسلمون ، كما أغرت أرباحه العاليــة تجــار البندقية •

ولقد ترك لنا قسطنطين بروفيروجينيتوس ، فى القرن العاشر ، صورة للاسكندنافيين ، أو بالأحرى الروس (وهو الاسم الذى عرفهم السلاف به) ، وهم يجمعون فى كل عام قواربهم عند كييف ، بعد ذوبان الجليد • وينزل أسطولهم الصغير ببطء الى الدنيبر الذى تظهر فيه منحدراته واضحة وتتجنبها المراكب الشراعية على ضفته (١) • وحين يصل البحر ، يبحر عبر الساحل الى القسطنطينية ، هدف الرحلة الطويلة الخطرة • وهنالك كان للروس حى خاص ، وانتظمت علاقاتهم التجارية مع المدينة الكبيرة بمعاهدات ، يعود أقدمها الى القرن التاسع الميلادى (٢) • ولقد اعترفوا بنفوذ القسطنطينية عليهم ، وقد أخذوا المسيحية عنها (٩٥٧ ـ ١٠١٥ م) ، ومنها استعاروا فنونهم ، وكتابتهم ، واستغلال الأموال وجزءا طيبا من تنظيماتهم • وليس هنالك شاهد ملفت للنظر عن التجارة التى قاموا بها مع البسفور • وفى نفس الوقت ، شقوا طريقهم ، عبر وادى الفولجا ، الى البحر الأسود وتعاملوا مع تجار اليهود والعرب الذين كانوا يترددون على موانيه •

ولم يتوقف نشاطهم على هذا الحد • فلقد صدروا بضائع من كل الأنواع الى الشمال ، صدروا : التوابل والخمور والحراير والمشغولات النحاسية والذهبية وغيرها ، التى حصلوا عليها مقابل ما كانوا يصدرون من عسل وفراء ودقيق • والدليل على هذه التجارة ما اكتشف من عدد هائل من العملات العربية والبيزنطية فى أسواق روسيا ، وكذلك الطرق التجارية التى ارتادوها عبر نهر الفولجا ، أو من الدنيبر الى البحيرات التى تتصل بخليج البوسنة • هنالك تتحد تجارة البحر الأسود مع مياه البلطيق وتواصل سيرها فى مياهه • وعبر أطراف القارة العديدة ارتبط البحارة الروس الاسكندنافيون بعالم الشرق • وان الذخائر التى وجدت فى جزيرة (القوط Gothland) من عملات عربية وبيزنطية أكثر مما وجد مثلها فى روسيا تظهر أنها كانت المركز التجارى الكبير لهذه التجارة ، وتشير الى الاتصال مع شمال أوربا • ومن الممكن الاقتناع بأن الغنائم التى جمعها رجال الشمال فى انجلترا وفرنسا كان يتم تبادلها مع السلع الثمينة الواردة من روسيا •

---

(١) w. Thomson, Der Ursprung, p. 55.

(٢) بصدد العثور على العملات العربية والبيزنطية فى روسيا ، انظر :

E. J. Arne, Op. Cit., and R. Vasmer, Ein im Dorfe Staryi Dedin in Weissrussland gemachte Fund Kufischer Munzen (Fornannen of the Academy of History of Stockholm, 1929).

في كل الأحوال ، فانه من المستحيل أن نشكك في الدور الذى لعبه الاسكندنافيون كوسطاء ، في الوقت الدى نلحظ فيه تقدمهم المذهل في الملاحة في القرنين العاشر والحادى عشر ، في خلال الفترة التى نجح فيها الغزو الدانى والنرويجى في الغرب • ومن الواضح تماما أنهم توقفوا عن أن يكونوا قراصنة وان يصبحوا تجارا محتذين في ذلك حذو اخوانهم ، من التجار البرابرة ، الذين تحولوا وصاروا تجارا في أعالى البحار (١) • ولقد حملت سفنهم الفارغه وقتذاك أدوات التجارة القادمة من أرض القوط وغيرها • ولقد أسست مراكز تجارية على الساحل السويدى وشواطئه التى ظلت سلافية حتى ذلك الوقت ، حتى السواحل الممتدة ما بين الالب والفستولا ، وفي جنوب الدانمرك ، تم التنقيب عند هيثابو Haithabu (شمال تيبل) ، وقد كشف ذلك النقاب عن وجود سوق تجارى هناك ، تشهد خرائبه على أهميته خلال القرن الحادى عشر (١) • ولقد امتد هذا النشاط التجارى ، طبيعيا ، الى موانى بحر الشمال ، وصار معروفا لبحارة الشمال الذين كانوا قد خربوا المنطقة الداخلية الخلفية منذ زمن بعيد • ولقد أصبحت موانى هامبورج على الالب وتيبل على الوال ، في القرن العاشر ، موانى النشاط الزائد لسفن رجال الشمال • ولقد ظلت انجلترا تستقبل عددا كبيرا منهم وعادت عليهم التجارة المحمولة على يد الدانيين بالثرورة التى لم يستطع الأنجلوسكسون مقاومتها ، والتى وصلت الى قمتها حين وحد الملك كانوت الأعظم Conute the Great (١٠١٧ ــ ١٠٣٥ م) انجلترا والدانمرك والنرويج في امبراطورية لم تعمر طويلا • ولقد أكد اكتشاف عملات انجليزية وفلمنكية وألمانية في أحواض البلطيق وبحر الشمال قيام هذه التجارة من منابع التايمز والراين الى دفينا (Dvina) • ولازالت قصص البطولة الاسكندناويه تروى قصص المغامرات التى وقعت على يد رجال البحر البواسل ، الذين خطروا بالدهب بعيدا الى أيسلندة وجرينلاند • ولقد ذهب شبابهم الأعزاز لينضافوا الى مواطنيهم في جنوب روسيا ، وقد وجد الأنجلو سكسون والاسكندنافيون في القسطنطينية ضمن حرس الأباطرة الخاص • وباختصار ، فلقد أثبت الشعب النورمانى في ذلك الوقت نشاطهم وروح الاقدام والجرأة التى تذكرنا بالاغريق في العصر الهومرى • ولقد تميز فنهم بالطابع البربرى ، الذى تأثر بالتأثير الشرقى الذى نشأ عن علاقاتهم

---

(١) هنالك تفصيلات مهمة عن تجارة السويديين في القرن التاسع نجدها في :
E. de Moreau, Saini Anschaire, Louvain, 1930.

(٢) O. Scheel and P. Paulsen, Quellen zur Frage Schleswig — Haithabu im Rahmen der frankischen, sachischen und nadischen Beziehungen (Kiel, 1930).

التجارية ببلاده . لكن النشاط الذى أظهروه كان نشاطا بلا مستقبل . ولم يبق لهؤلاء الشماليين الا النزر جـدا من النقود على المساحات التى أبحرت اليها سفنهم ، اذ كان عليهم أن يتركوا الميدان لمزيد من غيرهم من المنافسين الأقوياء ، الذين جلبهم المد التجارى الى القارة وزاحم نشاطهم البحرى نشاطهم .

٣ ـ تنشيط التجارة (١)

لقـد اضطرت قارة أوربا سريعا أن تشعر بقوة حركتين تجاريتين عظيمتين ظهرتا على أطرافها ، واحدة فى غرب البحر المتوسط والأدرياتيك، والأخرى فى بحر البلطيق وبحر الشمال . واستجابة لروح المغامرة وحب الكسب الموروثة فى طبيعة البشر، فان التجارة فى جوهرها ناقلة للعدوى . فضلا ، عن أنها بطبيعتها نافذة التأثير على من يشتغلون بها . وهى بالطبع تعتمد عليهم فى علاقة التبادل التى تتم بينهم والاحتياجات التى تتطلبها ، بينما يكون من المستحيل الكلام عن التجارة دون الكلام عن الزراعة ، ذلك لحاجتها اليها لتمد بالطعام أولئك الذين توظفهم والذين تمولهم .

هذه الضرورة المتعذر اجتنـابها كانت مفروضة على البندقية التى تقوم على بحيرات ولا ينمو بها زرع ولا ضرع . ولكى يضمن سكانها قوتهم

---

(١) Bibliography — See the works of W. Heyd, A. Schauba, H. Kretschmayr, H. Pirenne cited in Bib., p. 16 — C. Manfroni Storia della marina italiana invasione barbariche al trattato di Ninfeo t. I. Livourne, 1899 — G. Garo, Genua und die Machte am Mittelmeer. Halle, 1895 - 9. 2 vols. — G. J. Bratianu, Recherches sur le commerce génois dans la mer Noire au XIIIe écicle Paris 1929 — A.E. Saycus, Le rôle du capital dans la vie local et le commerce extérieur de Venise entre 1050 et 1150, in the Revue belge de philol et d'histoire, t. XIII, 1934.

E. H. Byrne. Genoese Shipping in the twelfth and Thirteenth Centuries, Cambridge (Mass). 1930. — R. Davidsohn Geschichte von Florenz, t. I. Berlin 1896 — A Sayous Le Commerce des Européens à Tunis depuis le XIIe siécle. Paris 1929 — E. H. Byrne, Genoiese Colonies in Syrie. in the crusades and other Historical Essays presented to D C. Munro New York 1928. — L. de Mas-Latrie. Traités de paixet de comerce ... concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale du Moyen Age. Paris. 1866 — H. Pirenne, Histoire de Belgique. t. I 5th ed. Bru sels 1929 — R. Haepke Brugges Entwickelung zum mittelalterlichen weltmarkt Berlin 1908 — H. Pirenne. Drans de Frise ou draps de Flandre ? see above p. 6, n 2 ? R.L. Reynolds Merchants of Arras and the Overland Trade with Genoa in Revue Belge dephilol et d'histoire, t. IX 1930 — Id. The Markets for Northern Textiles in Genoa 1179 - 1200 ibid, t. VII 1929 — F. Rousseau La meuse et le pays mosan en Belgique in Annales de la Société archéologique de Namur t. xxxix. 1930

كانوا مضطرين أن يبادلوا الملح والسمك مع جيرانهم فى القارة مقابل القمح والكروم واللحوم وهى أشياء لا تتوافر لديهم • لكن هذه المقايضة البدائية تطورت الى تجارة جعلت المدينة غنية ومشهورة ، وفى نفس الوقت زادت متطلباتها وحدت من مغامراتها • وعند نهاية القرن التاسع ، كانت البندقية تشرف على مقاطعة فيرونا وفوق ذلك كل وادى البو ، الذى كان متجرا سهلا لتزويد داخل ايطاليا • وبعد مرور قرن اتسعت علاقاتها الى عديد من النقاط على الساحل وفى داخل القارة : فى بافيا ، وتريفيزو ، وفيسانتزا ، ورافنا ، وسيزينا ، وانكونا ، وكثير غيرها •

ومن الواضح أن البنادقة ، تاجروا معهم ، وتأقلموا على ذلك ، حتى انه يمكن القول ، حيثما ذهبوا • وبالتدريج لقى تجارهم من قام بتقليدهم • ومن المستحيل ، فى غياب وجود شواهد ، أن نتتبع نمو البذور التى بذرها التجار وسط الشعوب الزراعية • ولقد عارضت الكنيسة هذا النمو ، دون شك ، وكانت معادية للتجارة ، حيث أصبح هنا عدد الأساقفة أكبر وأقوى مما فى جنوب الألب • وهنالك قصة اضطرارية غريبة وقعت فى حياة القديس جيرالد St. Gerald of Aurillac (ت ٩٠٩) تشهد على تناقض المستوى الأخلاقى للكنيسة حيال روح الكسب ، أو ما يمكن أن نسميه ، روح العمل • فبينما كان هذا الأب التقى عائدا من الحج الى روما ، قابل فى بافيا بعض التجار البنادقة ، الذين سألوه أن يشترى لهم بعض القماش الشرقى والتوابل ، وكان هو نفسه قد اشترى طيلسانا فخما انتهز الفرصة وجعلهم يرونه عليه وذكر لهم المبلغ الكبير الذى دفعه فى شرائه • ولكن حين هنأوه على صفقته الطيبة ، وكانوا يعلمون أن الطيلسان يساوى فى القسطنطينية أكثر من ذلك الثمن بكثير • لكن جيرالد لام نفسه لغبنه البائع حقه وبين لهم أنه لا يستطيع أن يأخذ لنفسه الفرق فى السعر دون الوقوع فى اثم الشح (١) •

وتوضح هذه النادرة على نحو رائع التضارب الأخلاقى الذى أحدثه انتعاش التجارة فى كل مكان ، والذى لم يتوقف بالطبع خلال كل العصور الوسطى • ومنذ البداية حتى النهاية استمرت الكنيسة فى اعتبار أرباح التجارة خطرا مثل خطر الاسترقاق والعبودية • ولقد جعلها مفهومها التنسكى دائما فى شك من التغيرات الاجتماعية ، التى لا تستطيع منعها ، والتى أجبرتها الضرورة على الاستسلام لها ، ولكنها لم تذعن أبدا لقبولها • ولقد ناء عبء الحياة الاقتصادية فى القرون المتأخرة بسبب تحريمها

---

(١) S. Geraldi comitis, Aureliaci fundatoris Vita (writtenby Odo cluny, c. 925) in Migne, Patrologina, t. CXXXIII, col. 658, on which see F.L. Ganshof in Mélanges Iorga, p. 295 (Paris, 1933).

للفائدة . ولقد منعت التجار من أن يصيروا أغنياء بضمير مرتاح ودون اعتبارها أعمالهم أمورا مخالفة للدين . ولاثبات ذلك نحتاج فقط أن نقرأ العديد من وصايا الصيارفة والمضاربين ، وهم يصرحون بأن الفقراء الذين احتالوا عليهم سوف يعوضون من قبل رجال الكنيسة بجزء من ممتلكاتهم التى يشعرون فى باطن قلوبهم أنها حرام . واذا لم يستطيعوا أن يتطهروا من الشر والاثم ويمسكوا عنه فعليهم أن يظل اعتقادهم ثابتا وأن يعتمدوا عليه للحصول على الخلاص لأنفسهم يوم الحساب . وعلى أية حال ، فاننا يجب أن نعترف بأن هذا الاعتقـاد المتأجـج قد عاون كثيرا فى التوسـع الاقتصادى فى الغرب . فقد لعب دورا كبيرا حين اتخذ البيزيون والجنويون موقفا معاديا للاسلام فى القرن الحادى عشر ، فعلى العكس منهم ، فان البندقانيين ، الذين تغلبت عليهم روح الكسب ، لم يقوموا بما قام به أهل بيزة وجنوة من معاداة ومواجهة حربية بينهم وبين الاسلام فى البحر التيرانى .

ولقد اندلعت هنالك حرب متأججة بين الديانتين وجها لوجه . وفى البداية كان الصراع لصالح المسلمين ، ففى سنة ٩٣٥ ، وثانية فى سنة ١٠٠٤ ، قام المسلمون بنهب بيزا ، بقصد منع مجهوداتها المحدودة الأولى فى التوسع الحربى هناك . لكن البيزيين أصروا على التوسع فى الحرب ، وفى العام التالى هزموا الأسطول الاسلامى فى مضايق مسينا . ولقد قام العدو بالانتقام منهم بغزو وتدمير مينائهم الحصين ، لكن البيزنطيين بتحريض من البابوات وغرورا وطمعا فى ثروة غريمهم ، عزموا على مواصلة الحرب التى كانت حربا دينية وفى نفس الوقت حربا تجارية . وقد قاموا مع الجنويين بمهاجمة سردينيا ونجحوا فى تثبيت أقدامهم هناك سنة ١٠١٥ م . وفى سنة ١٠٣٤ م ، وقد شجعهم نجاحهم ، اجترأوا على مهاجمة الساحل الأفريقى ، وتسيدوا لبعض الوقت على بون (قنسطنطينة) . وبعد ذلك بقليـل ، بدأ تجارهم يرتـادون صقلية ، ولحماية هؤلاء التجار ، قام الأسطول البيزى فى سنة ١٠٥٢ باقتحام مدخل ميناء بالرمو وتحطيم ترسانته .

ومنذ ذلك الوقت تحولت الدفة لصالح المسيحيين . ووجهت حملة سنة ١٠٨٧ م الى المهدية بقيادة أسقف مودينا بمساعدة وعون كبير من الكنيسة . ولقد ارتأى البحارة فى السماء طيف الملاك ميخائيل والقديس بطرس يقودانهم في المعركة . ولقد قاموا بالاستيلاء على المدينة ، وذبحوا (« قسس محمد ») (*) ، وهدموا مسجد المدينة وفرضوا معاهدة تجارية مخزية على المنهزمين . ولقد بنيت كاتدرائية بيزا بعد هذا النصر ، رمزا

(★) يقصد الكاتب : رجال الدين المسلمين .

لاتمام البيزيين لنصر عقيدتهم ونصر ثروتهم اللذين بدأ نصرهم يجلبه اليهم • ولقد حمل البيزيون الى بلادهم من بالرمو والمهدية : أعمدة ، ورخام ثمين ، وتحف ذهبيــة وفضية ، وستائر من الأرجوان وذهب زينوا به مدينتهم • وقد رغبوا فى أن يرمز بهاء هذه الأسلاب الى انتقام المسيحيين من المسلمين الذين اعتبروا ثروتهم نوعا من الحقد والعار (١) •

ولقد تراجع المسلمون أمام المسيحيين ، وفقدوا سيطرتهم على البحر التيرانى ، الذى كان بحيرة اسلامية • ولقد أبان الهجوم الصليبى سنة ١٠٩٦ انكسارهم النهائى هناك • وفى سنة ١٠٩٧ ، أرسل الجنويون أسطولا بالتعزيزات والامدادات للصليبيين المحاصرين لأنطاكية ، وحصلوا فى العام التالى مقابل ذلك على فندق لهم ولتجارهم فى الأراضى المقدسة من بوهيموند (Bohemond of Tarento) ، الذى كان واحدا من سلسلة المكاسب التى حققتها المدن البحرية المحاربة على ساحل الأراضى المقدسة • وبعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، تزايدت العــلاقة بين جنوة وشرقى البحر المتوسط سريعا • وفى سنة ١١٠٤ م ، امتلكت مستعمرة عنــد سان جون فى عكا ، احتوت على ثلث المدينة الذى تنازل لهم عنه الملك بلدوين ، وعن شارع عند البحر ، فضلا عن اعفائهم من مكوس قدرها ستمائة بيزنت ذهب • ولقد أقامت البندقية لها مكاتب محاسبة وعقــد صفقات فى طبرية وصيدا ، وسان جون فى عكا ويافا • وقد كرست بيزا جهودها فى تزايد نشاطها فى تزويد الامارات التى أقامها الصليبيون فى سوريا • زيادة على ذلك ، فان النشاط الاقتصادى الذى كان قد بدأ على الساحل الايطالى وصل آنذاك الى بروفانس • ففى سنة ١١٣٦ ، احتلت مرسيليا مكانا مهما ، وأسس مواطنوها مقرا لهم فى سان جون فى عكا • ومن الناحية الأخرى لخليج ليون ، كانت برشلونة قد أعلنت عن مستقبل رخائها ، فكما كان المسلمون يشتغلون فى الســابق بالاتجار فى الرقيق المسيحى ، فان مسلمى أسبانيا تاجروا فى رقيق المغرب الذى وقع لهم وزودهم بسلعة مهمة من سلع تجارتها •

وهكذا فان كل البحر المتوسط كان مفتوحا ، أو بالأحرى ، أعيد فتحه للملاحة الغربية • وكما كان فى عهد روما ، فقد تمت الاتصالات بين طرف هذا البحر والطرف الآخر فى هذا البحر الحيوى لأوربا • وقد انتهى من عليه الاستغلال الاسلامى • فلقد استعاد المسيحيون السيطرة على الجزر التى تؤمن سيادتهم عليه ، استعادوا سردينية ســنة ١٠٢٣ ،

---

(١) هنالك شعر حماسى معاصر نشره E. Du Méril فى :
Poésies populaires latines du Moyen Age, p. 251 (Paris, 1874), p. 6.
يمكننا من تقدير قيمة الدور الذى لعبه الحماس الدينى فى التوسع البيزى •

وكورسيكا سنة ١٠٩١ ، وصقلية سنة ١٠٥٨ ــ ١٠٩٠ م ، ولا يعنى ذلك كثيرا اذ أن الأتراك (السلاجقة) قد قاموا بهدم الامارات المؤقتة التى اسسها الصليبيون ، فقد استولى المسلمون على الرها سنة ١١٤٤ ، ودمشق سنة ١١٥٤ ، واستولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ ثم على عكا سنة ١١٨٧ ، وعلى الناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت وعسقلان وأخيرا بيت المقدس ، وبرغم جهود المسيحيين فانهم لم يستطيعوا حتى يومنا هذا استعادة سوريا التى كانوا قد استولوا عليها فى الحرب الصليبية الأولى من يد المسلمين • ومهما كانت أهمية هذه الأحداث بالنسبة للتاريخ العام ، وكيف كانت نتائج هذه التغيرات على مصائر العالم ، فان انتصار الأتراك لم يؤثر على المكاسب والوضع الذى أحرزته المدن الايطالية فى الشرق • ولقد اهتم هجوم الاسلام الجديد بالتوسع فى الداخل لا فى البحر • فلم يكن للأتراك السلاجقة أسطول ولم يحاولوا أن يؤسسوا أسطولا لهم • ودون أن يسببوا ضررا للتجار الايطاليين ، فان الأتراك سمحوا لهم أن يقوموا بالاتجار مع سواحل آسيا الصغرى ، وبذلك استمر نقل التوابل القادمة عبر تجارة المرور من الصين الى الهند الى سوريا الى الغرب على متن السفن الايطالية • وليس هنالك ما هو أكثر فائدة من ثبات الملاحة التى ساعدت فى الحفاظ على النشاط الاقتصادى لدول الأتراك والمغول •

ودون شك فان الأساطيل الايطالية واصلت تعاونها النشط مع الصليبيين حتى الهزيمة التى حلت بالقديس لويس (١٢٧٠ م) • فلقد كانت هذه الهزيمة نهاية لهذا النشاط ووضعت حدا فاصلا فى المجال السياسى والمجال الدينى • ومن الصحيح القول بأنه بدون عون البندقية وبيزا وجنوة ، كان من المستحيل المثابرة طويلا فى هذه الأعمال العقيمة • وكانت الحملة الصليبية الأولى قد اتخذت طريق البر ، وكان ذهاب مجاميع الرجال المتجهين الى بيت المقدس عن طريق البحر ليس من السهولة بمكان آنذاك • ولم تعاون السفن الايطالية بشىء الا بايصال المؤن للجيوش • ولكن اعتماد الصليبيين على السفن الايطالية الحربية أخضع حياتهم على الفور الى نشاط غير معقول • ولقد كانت الأرباح التى حققوها من متعهدى الجيوش كثيرة فى كل العصور ، وليس هنالك شك فى أن البنادقة والبيزيين والجنويين والبروفنساليين ، وقد وجدوا أنفسهم فجأة أثرياء ، سارعوا فى وضع سفن جديدة تحت تصرف الصليبيين • وان اقامة الامارات الصليبية فى الشام أكدت أهمية استخدام هذه الوسيلة البحرية للنقل ، التى بدونها لم يكن للفرنجة أى وجود فى الشرق • ولهذا فقد حصلوا على امتيازات كثيرة فى المدن التى كانت خدماتها ضرورية لهم ، وقد حصلوا منذ نهاية القرن الحادى عشر على تسهيلات ساعدتهم فى اقامة فنادقهم

ومرافئهم على طول سواحل فلسطين وآسيا الصغرى وجزر البحر الايجى . وبالطبع ، قبل أن ينقضى على ذلك وقت طويل أخذوا فى استخدام هذه القواعد والاستفادة منها فى عملياتهم العسكرية . وخلال الحرب الصليبية الثانية حملت السفن الايطالية قوات لويس السابع وكونراد الثالث الى ساحل الأناضول ومنه الى الأراضى المقدسة . ولقد قدمت الحرب الصليبية الثالثة اثباتا حقيقيا لكبر حمولة السفن الايطالية والبروفنسالية ، فقد كانت هذه السفن كافية لحمل قوات ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس الكبيرة العدد . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، فقد تم نقل كل الحملات الصليبية التالية بأكملها عبر طريق البحر . ومن المعروف ، كيف استغل البنادقة الموقف بتحويلهم الى القسطنطينية الأسطول المعد للحملة الصليبية الرابعة ، حين عجز قادته عن دفع الثمن المتفق عليه للرحلة ، فاضطروا لترك كل المشروع واستخدموا ، فى النهاية ، الأسطول فى حصار القسطنطينية والاستيلاء عليها . عندئذ قامت الامبراطورية اللاتينية ، القصيرة العمر ، على شواطىء البسفور ، وكان مولدها على يد الساسة البندقانيين ، . وحين اختفت (١٢٦١ م) هذه الامبراطورية ، أذعنت البندقية وسمحت لجنوة بأن تنافسها وتعمل على أن ينازعها ميشيل باليولوجوس السيادة الاقتصادية على الشرق .

وهكذا فان النتيجة الجوهرية والدائمة للحروب الصليبية هى اعطاء المدن الايطالية ، وبدرجة أقل ، لمدن بروفانس وقطالونيا ، السيادة على البحر المتوسط . وبرغم عدم نجاحهم فى تخليص الأماكن المقدسة من أيدى المسلمين ، وبرغم بقاء قلة من الأماكن على ساحل آسيا الصغرى وفى الجزر فى أيديهم منذ حملاتهم الأولى ، لكنهم على الأقل مكنوا غرب أوربا ليس من احتكار كل التجارة من البسفور الى سوريا الى خلجان جبل طارق فحسب ، ولكن ليقوموا بتنمية نشاط اقتصادى رأسمالى دقيق استطاع أن يفرض نفوذه على كل البلاد الواقعة شمال الألب .

ولم يكن للاسلام رد فعل تجاه هذا النجاح الاقتصادى حتى القرن الخامس عشر ، كذلك اضطرت الامبراطورية البيزنطية التى لم يكن لها حول ولا طول آنذاك أن تسلم به . ولقد كانت سيادتها على شرق البحر المتوسط قد انتهت منذ مطلع القرن الثانى عشر . فلقد سقطت هذه المناطق بالتدريج تحت نفوذ المدن البحرية الحربية ، التى احتكرت الآن تجارتها الصادرة والواردة . وفى بعض الأحيان ، للتخلص من نيرها ، حاول الامبراطور البيزنطى أن يحرض البيزيين والجنويين ضد البنادقة وأن يوقع بينهما ، أو أن يسمح للعامة باغتيال الأجانب غير المرغوب فيهم دون تمييز ، كما حدث على سبيل المثال ، فى سنة ١١٨٢ م . ولكن

البيزنطيين لم يستطيعوا ، رضوا أو لم يرضوا ، أن يتخلوا فى تجارتهم عنهم ، تماما مثلما فعل الأسبان الذين لم يتخلوا عنهم الا فى القرن السابع عشر ، حين تخلوا عنها للهولنديين والانجليز والفرنسيين • ولقد صحب الانتعاش البحرى التجارى انتعاشا سريعا فى داخل القارة • ليس فقط بسبب الحاجة فى التبادل التجارى للزراعة وللحاصلات الزراعية ولكن أيضا للحاجة للمصنوعات الجديدة التى صارت معدة للتصوير • وقد كان السبق لسهل لمبارديا فى كلا الاتجاهين ، بسبب موقعه البديع بين مراكز القوى التجارية الثلاثة : البندقية وبيزا وجنوة • ولقد ساهم الريف والمدن بالتساوى فى الانتاج ، الأول بغلاله وبنبيذه ،والآخر بملابسه ومنسوجاته الكتانية والصوفية • ولقد تخصصت لوقا فى المشغولات الحريرية ، وكانت المواد الخام تأتى اليها بواسطة البحر منذ القرن الثانى عشر • وفى تسكانيا ، اتصلت سيينا وفلورنسا مع بيزا بواسطة وادى أرنو وقاسمتاها ازدهارها • ووراء جنوة امتدت الحركة الى ليون عند ساحل الغال ووصلت الى حوض الرون • ولقد تاجرت موانى مرسيليا ومونبلييه وناربون عبر كل اقليم بروفانس ، كما فعلت برشلونة عبر اقليم قطالونيا • ولقد كانت تجارة الأقطار البحرية نشطة للغاية لدرجة أنها بدأت فى القرن الحادى عشر فى الانتشار عبر ممرات الألب التى كانت تتعرض لهجمات المرابطين المسلمين فى القرن العاشر • ومن البندقية وصلت الى ألمانيا بواسطة وادى برينر ولأودية السناءون والراين بواسطة سبتمر وسان برنارد والى الرون بواسطة مونت جنيس • ولم يكن عبور سان جونارد لمدة طويلة ، لكن منذ ذلك الوقت علق جسر من صخرة لأخرى عبر المضيق وصار أيضا طريقا لتجارة المرور (١) • وفى النصف الثانى للقرن الحادى عشر نسمع عن وجود ايطاليين فى فرنسا • والأكثر احتمالا أنهم كانوا يترددون على أسواق كامبانيا فى تلك الفترة وقابلوا هناك التدفق التجارى من ساحل الفلاندر (٢) •

---

(١) كان ذلك أول طريق معلق قد أقيم حسب معلوماتنا ، ومن المحتمل أن يرجع تاريخه الى بداية القرن الثالث عشر •

(٢) انظر الخطاب الذى كتبه جورجى السابع الى رؤساء أساقفة وأساقفة فرنسا ، فى ١٠ سبتمبر ١٠٧٤ م ، مدينا الملك فيليب الأول ، متهما اياه بانه انتشل منه « التجارة ذات الأرباح الوفيرة فى فرنسا » •
(E. Caspar, Das Regidter Gregors VII, M. M. G. G., p. 131).
وفى خطاب ثان أطلق البابا على التجار « الملاحين الايطاليين » (Ibid, p. 150)
وفى خطاب ثالث ، تكلم عن « الايطاليين وحلفائهم التجار البروفنسيين (Ibid, p. 168)
ومن الممكن اعتبار اصراره دليلا على تقدم التجارة العالمية فى ذلك الوقت • واذا ، كما يرى شوب (Op. Cit., p. 91) أن الحادثة وقعت فى سوق لنديت القليل الأهمية ، فانه يكون من الصعب تبين فداحة الخسارة التى وقعت على التجار •

وبالطبع ، فان الانتعاش الاقتصادى الذى كان فى مراحل تمامه فى البحر المتوسط ، قد توافق مع الانتعاش الذى وقع عند بحر الشمال ، وبرغم اختلافه عنه فى حجمه وفى طبيعته ، فانه نشأ نتيجة نفس الأسباب وأثمر نفس النتيجة • وكما رأينا سابقا كيف أن رجال الشمال قد أقاموا عند الأخوار المتكونة عند فروع الراين والميز والشيلد ، سوقا سرعان ما جذب التجار من أماكن بعيدة ومتطرفة عن هذه الأنهار •وفى القرن الحادى عشر ظهرت تييل Tiel كمركز تجارى يتردد عليه كثير من التجار ويرتبط بطريق عبر وادى الراين بكولونيا ومينز ، اللتين شهدتا آنذاك نشاطا تجاريا ملحوظا • ولسنا فى حاجة الى دليل أكثر من وصول ستمائة تاجر الى هذه المدينة سنة ١٠٧٤ م والى هذه المدن حسبما ذكر لامبيرت صاحب هرسفيلد Lampert of Hersfeld ، برغم شكنا فى الرقم المذكور وعدم معرفتنا لمستوى الثروة التى كانوا عليها (١) • وفى نفس الفترة ارتقت التجارة فى وادى الميز ، وامتدت الى فيردن Verdun عبر طريق ماستريخت ، لييج Liége ، هاى Huy ودينانت Dinant • ولقد مكن نهر الشيلد مدن : كامبراى Cambrai وفالنسيا Valenciennes وتورناى Tournai ، وجنت Ghent وانتورب أن تتصل بالبحر وبالأنهار التى تصب مياهها فى بحيرات زيلندة • ولقد بدأ ميناء بروجز Bruges على خليج زوين (Gulf of Zwyn) فى التكوين آنذاك ، وأصبح ملائما للغاية للملاحة ومنذ نهاية القرن الحادى عشر بدأت السفن تحط فيه وتفضله عن موانى أخرى، وتأكد ازدهار هذا الميناء مع الأيام •

ومن المؤكد أنه منذ نهاية القرن العاشر أن تجارة الاسكندنافيين ظلت على علاقات وثيقة مع بحر الشمال وأقاليم بحر البلطيق • ولقد اكتشفت فى الدانمرك وبروسيا ، وحتى فى روسيا ، عملات كان قد سكها الكونت أرنولد الثانى وبلدوين الرابع (٩٦٥ ـ ١٠٣٥ م) • ولقد ظلت تجارتهم من الطبيعى نشطة مع انجلترا • وان تعريفة لندن الجمركية ما بين سنوات ٩٩١ و ١٠٠٢ ذكرت أن الفيلمنج كانوا من ضمن الأجانب الذين تاجروا مع المدينة (٢) • وكان تردد السفن على القنال الانجليزى أقل من ترددها على بحر الشمال ، ولكن كانت هنالك تجارة منتظمة بين النورمان والسواحل الانجليزية ، عبر طريق الرون وأخوار السين ، ومن ثم عبر النهر الى باريس والى حدود كمبانيا وبرجانديا • وبسبب بعد نهرى اللوار والجارون ، لم يشعرا بهذا النشاط التجارى فى البحار الشمالية الا مؤخرا •

---

(١) Lamperti Hersfeldensis opera, ed. O. Holder-Egger, p. 192.

(٢) F. Liebermann, Die Gesetze der Angelsachsen, t. I, p. 232.

وسرعان ما احتل اقليم الفلاندر المكانة المتميزة ، التى ظل محتفظا بها حتى نهاية العصور الوسطى ·· وهنا نلتقى بعامل آخر ، وهى الصناعة ، التى لم تقل فى دورها الاقتصادى المبكر عن الزراعة ، والتى لعبت هذا الدور منذ وقت مبكر وكانت لها نتائج ملحوظة · ومن قبل فلقد قام المورينيون Morini والمينابيون Menapii فى منطقة الكلت فى أودية الليز Lys والشيلد Scheldt بتصنيع الصوف من قطعان الماشية الكبيرة التى احتفظوا بها فى اقليم المراعى الخصبة · ولقد تقدم تصنيع ملابسهم خلال فترة الاحتلال الرومانى لبلادهم ، حين عرفهم حكام الرومان بطرق تصنيع البحر المتوسط الفنية المتميزة · ولذلك جاء التقدم فى هذه الصناعة سريعا ، حتى ان الفلاندرز صاروا يصدرون منتجات صناعة ملابسهم الى الخارج ووصلت بعيدا حتى ايطاليا (١) · ولقد تابع الفرنجة الذين غزوا المنطقة فى القرن الخامس ، أثر سابقيهم فى هذا الخصوص · وحتى مجىء النورمان فى القرن التاسع ، كان الملاحون الفريزيون يحملون بانتظام الملابس الصوفية المنتجة والمصنعة فى اقليم الفلاندر عبر أنهار الأراضى المنخفضة ، تحت اسم Pallia Fresonica « طيالسة الفريزيين » ، ولقد جاءت شهرتها من ألوانها الجميلة حتى ان شارلمان لم يجد أحسن منها ليرسله هدية الى الخليفة هارون الرشيد (٢) · ولقد أوقف تدمير التجارة على يد الغزوات الاسكندنافية بالطبع هذا التصدير · ولكن ، فى خلال القرن العاشر ، عندما تحول الغزاة الى تجار وأخذت سفنهم وقواربهم تعود للظهور فى أنهار الميز والشيلد طلبا للتجارة ، وجدت صناعة الملابس سوقها ثانية فى الحال · ولقد تسببت جودة هذه الملبوسات فى ازدياد الطلب عليها على طول السواحل العديدة التى تردد عليها ملاحو الشمال ، ولتلبية هذه المطالب ، زاد انتاج هذه الملبوسات الى نسبة لم تبلغها حتى الآن · ومن الملاحظ تقريبا أن انتاج الصوف المحلى فى نهاية القرن العاشر كان غير كاف ولا يلبى الاحتياجات ، وصار الصوف يصدر من انجلترا · ولقد زادت شهرة الصوف الانجليزى من ثمن الملبوسات المنتجة والمصنعة منه · وفى خلال القرن الثانى عشر صار كل اقليم الفلاندر نساجين وصناع أقمشة صوفية · وقد ظلت صناعة الملابس ، التى لا زالت تشتهر بها هذه البلاد وحتى الآن ، ظلت محصورة فى المدن التجارية ، التى أسست فى كل الأنحاء وتسببت فى نمو زائد لهذا الاقليم · ولقد كان تصنيع القماش

---

(١) Camille Julian, Histoire de la Gaule, t. II, p. 282 ff.

(٢) H. Pirenne, Draps de Frise ou draps de Flandre

هو الذى صنع الثروات الناشئة لمدن : غينت Ghent ، بروجز Bruges يبرس Ypres ليل ، دوياى Douai وأرس Arras • وسرعان ما تحولت هذه السلعة البحرية الى سلعة برية مهمة • ومنذ بداية القرن الثانى عشر ، كانت الملبوسات الفلمنكية تؤخذ بحرا الى أسواق نوفجورود ، فى وقت يجىء فيه الايطاليون الى الفلاندرز ليشتروا مقايضة بما معهم من توابل وحرير ومشغولات ذهبية وأشياء جاءوا بها من جنوب الألب • لكن الفلمنكيين أنفسهم ترددوا على أسواق كمبانيا الشهيرة ، التى تقع فى منتصف الطريق بين بحر الشمال والألب ، وقابلوا هنالك مشترين من لمبارديا وتسكانيا • وقد قام هؤلاء بحمل الملبوسات الفلمنكية بكميات هائلو الى ميناء جنوة ، تحت اســـم « الطيالسة الفرنسسكانية panni francesi ويأخذونها بالبحر الى موانى الشرق البعيدة •

وبالطبع ، لم يكن اقليم الفلاندر وحدههو الذى يصنع الملابس • فالغزل بطبعه ، حرفة منزلية ، عرفها الانسان منذ ما قبل التاريخ ونجدها حيثما نجد الأصواف فى كل الأقطار • وكل ما تحتاجه هذه الحرفة هو تحريك انتاجها واتقان صنعها حتى تصبح صناعة حقيقية • ولم يكن هذا الأمر مهملا • فى القرن الثالث عشر ، ولقد أوردت صكوك جنوة الشرعية اسماء عدد من المدن كانت ترسل ملابس الى ذلك الميناء وهى مدن : أميان Amiens ، بوفييه Beauvais ، كامبراى Cambrai ، لييج Liege ، مونتريل Montreuil ، بروفينس Provins ، تورناى Tournai ، شالون Chalons وغيرها • ومع ذلك ، فان الفلاندرز ، وبعد ذلك بقليل ، جارتها باربانت Barbant احتلوا مكان الصدارة بين هؤلاء المنافسين • ولقد مكنهم القرب من انجلترا من جلب صوف فاخر بشروط معقولة وبكميات كبيرة عن الآخرين • ولقد انعكس ازدهار الصناعة الفلمنكية وتفوقها فى اثارة اعجاب الأجانب • ولم يماثل وادى الشيلد فى تقدم صناعة ملابسه اقليم آخر خلال تاريخ أوربا فى العصور الوسطى • وهو يذكرنا فى هذا الحال بما كانت عليه انجلترا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • لكن ليس هنالك مجال للمقارنة بين الحالين فى الموازنة بينهما من حيث التشطيب والمرونة ونعومة وألوان هذه المشغولات • لقد كانت ملبوسات الفلمنك والبربانت ، بالطبع ، ملبوسات فاخرة ، وهذا هو سر نجاحها وانتشار شهرتها فى العالم أجمع • وفى العصر الذى كانت فيه وسائل المواصلات لم ترتق بما فيه الكفاية لتكون مهيئة لدائرة البضائع الرخيصة والثقيلة ، كان المكان الأول فى التجارة الدولية يخص البضائع ذات القيمة العالية والأوزان المتوسطة • باختصار ، فان نجاح الملبوسات الفلمنكية يجب أن يفسر على أنه مثل التوابل ، فى سعرها المرتفع وسهولة استيرادها • وفى

تناقض لافت للنظر عن المدن الايطالية ، نرى الفلاندرز والبربانت ، فى الوقت الذى تقدمت فيه الصناعة عندهما ، نراهم أقل اهتماما بالتجارة البحرية ، وذلك ربما لأن موقعهم الجغرافى قدر عليهم ذلك ، فلقد تركوا ذلك للأجانب الذين جلبت الصناعة أعدادا كبيرة منهم الى ميناء بروجز Bruges من الاسكندنافيين فى القرن الحادى عشر ، وأخيرا من الهانز ٠ فى هذه الحال من الممكن أن نقارنهم بالبلجيكيين المحدثين ، مع فارق أن نقارن العصور الوسطى بعصورنا الحالية ، واضعين فى حسباننا تقدمهم الاقتصادى النسبى ٠ وفى نفس المنطقة التى احتلوها ألا يقدم البلجيكيون اليوم نفس المنظر القديم لتقدم صناعى غير عادى ممزوجا ببحرية حقيقية مهمـــة ؟

الفصل الثانى

المدن

١ ـ انتعاش الحياة المدنية (١)

طالما استمرت تجارة البحر المتوسط تجر غرب أوربا الى فلكها ، فان الحيـاة المدنية تستمر فى غاليا ، كمـا كانت فى ايطـاليا وأسبانيا وأفريقية • ولكن بعد أن حجز الغزو الاسلامى موانى البحر التيرانى بعد احكام قبضته على سواحل أفريقية وأسبانيا ، انقرض فيها النشاط المحلى سريعا • ولقد اختفى هذا النشاط من كل مكان عدا جنوب ايطاليا والبندقية اللتين ظل النشاط فيهما بفضل التجارة البيزنطية • ولقـد ظلت المدن

---

(١) Bibliography — H. Pirenne, Le villes du Moyen Age, see p. 2, n. 1. — G. Von Below, Der Usprung der deutschen Stadiverfassung, Dusseldorf, 1892 — K. Hegel, Stadat und Gilden der Germanischen Volker im Mittelater, Leipzig, 1891, 2 vols. — I'd Die Entstehung des deutschen Städtewesens, Leipzig, 1898. — F. Keutgen, Untersuchungen über den Ursprung der deutschen Stadtverfassung, Leipzig, 1895. — S. Rietschel, Die civitas auf deutshem Boden, Leipzig, 1894, — Id, Markt und Stadt ihrem rechtlichen Verhältniss, Leipzig, 1897. — F. Beyerle, zur typenfrage in der Stadtverfassung, in Zeitchrift für Rechtsgeschichte, Germ. Abt., 1930, — G. Espinas, La vie urbaine de Douai au Moyen Age, Paris, 1913, 4. vols. C. Gross, The Gild Merchant, Oxford, 1890, 2 vols. F. W Maitland, Township and Borough, Cambridge, 1898. C. Petit Dutaillis, The Origin of the Anglo-Saxon Borough, in Eng. Hist. Rev., 1930. Id., Borough and Town, a study of urban origins in England, Cambridge (Mass.), 1933.

H. Pirenne, Les Villes Flamandes avant le XIIe siècle, in Annales de l'Est et du Nord, t. I. 1905, Id., Les anciennes démocraties des Pays-Bas, Paris 1910. G. Des Marez, Etude dur la propréttè foncière dans les villes du Moyen 9ge et Spécialement en Flandre Ghent, 1898. F. Vercantern, Etude sur les civitates de la Belgique Seconde, Brussels, 1934. L. von Heinemann, Zur Enststehung der Stadt — Verfassung in Italien, Leipzig, 1896. G. Mengozzi, La città italiana nell'alto medio evo, 2nd ed, Florence, 1931.

قائمة ، ولكنها فقدت سكانها من الحرفيين والتجار ، وفقدت مع ذلك كل ما خلفه وراءه تنظيم الامبراطورية الرومانية المدنى •

و « المدن » ، التى كان قد أقام فى كل منها أسقف ، أصبحت الآن لاتزيد عن كونها مجرد مراكز لادارة دوقاتها الكنسية • وبذلك احتفظت بأهمية ملحوظة ، دون شك ، من وجهة النظر الدينية ، أما من وجهة النظر الاقتصادية فلم تعد لها أية أهمية • وفى معظم هذه المدن ، يوجد سوق محلى صغير ، يزود الفلاحين بما يحتاجونه ،ويمد الأعداد الكبيرة من قسس الكاتدرائية والكنائس أو الأديرة المتجمعة حوله والعبيد الذين فى خدمتهم باحتياجاتهم اليومية • وفى الأعياد السنوية الكبيرة يتجمع سكان الدوقيات والحجاج فى المدينة محدثين نشاطا محدودا ، لكن لا تبدو فى أى منها أى أمارات النشاط الملحوظ • وفى الحقيقة فان هذه المدن الأسقفية كانت تعيش وتعتمد فى حياتها على الريف • ويعيش الأساقفة والرهبان داخل أسوارهم على الايجارات والاستحقاقات التى يتحصلون عليها من ولاياتهم ، وبقى كيانهم فى جوهره قائما على الزراعة • ولم تكن المدن مراكز للعبادة فقط بل كانت أيضا مراكز ادارية للريف •

وفى وقت الحرب فان حصون هذه المدن القديمة تصبح ملجأ لمن جاورها من السكان • لكن أثناء مرحلة الخطر التى بدأت خلال تفكك الامبراطورية الكارولنجية ، أصبحت الحاجة للحماية هى الضرورة الأولى للناس فى الجنوب الذين تتهددهم غارات المسلمين وفى الشمال والغرب يتهددهم النورمان ، يضاف الى ذلك ، منذ بداية القرن العاشر ، الغارات المفزعة التى يشنها الفرسان المجريون • وقد أدى هذا الغزو من كل الجوانب الى تشييد أماكن جديدة للاحتماء • فى تلك الفترة أصبح غرب أوربا مغطى بقلاع حصينة ، شيدها أمراء الاقطاع ليستخدموها كملاجىء لرجالهم • هذه القلاع ، أو حسبما كانت تعرف به آنذاك ، تلك الأبراج ، كانت تتألف من حواجز أرضية أو حجرية ، يحيط بها خندق وتخترقها بوابات • وكان على السكان المجاورين لهذه الأبراج حمايتها • وتقيم داخل البرج حامية من الفرسان ، وقد كان البرج المحصن سكنا للورد ، وهنالك كنيسة مشروعة تنظر فى احتياجات الدين ، وحواصل وصوامع أقيمت لخزن الغلال ، وتجفيف اللحوم وكل أشكال الاحتياجات اللازمة التى يحتاج اليها المزارعون فى الأرياف ، والتى تساعد فى تزويد الحامية والسكان ، الذين فى أوقات الخطر ، يهرعون هم وقطعانهم الى القلاع • وبذلك فان وضع الأبراج ، كمدينة دينية ، ظل قائما • ولم يكن لهذه الأبراج أى حياة اقتصادية • وكانت حياتها موائمة تماما للحضارة الزراعية ، ومن الممكن القول انها ساهمت فى الدفاع عنها •

لكن الانتعاش التجارى سرعان ما غير من هيئتها تماما • ولقد لوحظت أول أعراض هذا التغيير خلال النصف الثانى من القرن العاشر • فخلال ذلك التاريخ وفى ذلك الوقت الذى كان السلب والنهب فيه سبب وجود النبالة الصغيرة ، دفع ذلك الأمر التجار الجوالين والمعرضين لكل أشكال المخاطر فى البداية الى البحث عن حماية المدن الحصينة والأبراج التى قامت على مراحل على طول الأنهار والطرق الطبيعية التى كانوا يسافرون عليها • ولقد خدمتهم هذه الأماكن وكانت لهم محطات خلال فصل الصيف ، وكانت لهم مشاتى خلال الشتاء الشديد البرودة • وكانت أحب المواقع اليهم تلك التى كانت تقع عند دالات مصبات الأنهار أو عند الأودية الضيقة ، وعند ملتقى نهرين ، أو عند نقطة تتوقف عندها ملاحة النهر والنقل عبره ، ولقد كانت جميع هذه المناطق مناطق محببة لسكن التجار والمتاجرين •

وسرعان ما تصبح هذه المساحة التى تقدمها المدن والأبراج لهؤلاء القادمين الجدد ، الذين تزايدت أعدادهم بشكل هائل بسبب تزايد تجارتهم ، غير كافية • ولذلك يضطر هؤلاء الى السكن خارج أسوار هذه المدن وأن يبتغوا لأنفسهم أبراجا جديدة الى جوار الأبراج القديمة ، أو يقوموا ببناء ما عرف بالضواحى • ونتيجة لذلك ، فانه قامت الى جانب المدن والقلاع الاقطاعية تكدسات تجارية ، الذين خصتهم مراسمهم بنوع من الحياة مناقض تماما لتلك التى كان يعيشها الناس بداخل المدينة • وكانت كلمة (أهل الموانى) Portus ، الواردة فى وثائق القرنين العاشر والحادى عشر على هؤلاء النازحين ، تعبر تماما عن طبيعتهم (١) • وهى لا تعنى فى الحقيقة الموانى بمعناها الحديث ، ولكن تعني المكان الذى تحمل اليه البضائع ، وهو لذلك يكون مكانا نشطا للنقل • ومن هذه الكلمة سمى سكان الموانى فى انجلترا والفلاندرز باسم رجال المرافىء أو رجال الموانى (poorters, portmen) ، التى صارت مرادفة لكلمة برجوازى ، وبرجوازيين التى تطورت عن مفهوم معنى تلك الكلمة الذى كان يطلق فى السابق على المشتغلين بالتجارة • والسبب فى اطلاق هذه التسمية ، قبل نهاية القرن الحادى عشر • وتعريفهم بكلمة البرجوازيين ، وهى التسمية التى عبرت عنهم تماما أكثر مما عبرت عن سكان الأبراج القديمة حيث استقروا ، توجد فى حقيقة أن الجماعات التجارية أحاطت نفسها منذ زمن بأسوار أو سياج بهدف الحماية والأمان ، وبذلك دخلت كلمة (بورج) فى تسميتهم • ولقد فهم التوسع فى مفهوم هذه الكلمة بسهولة منذ ألقت

---

(١) H. Pirenne, Les villes flamandes avant le XIIe siécle, in Annales de l'Est et du Nord, t. I (1905).

هذه الأبراج الجديدة بظلالها على الأبراج القديمة • وفى معظم المراكز النشيطة للحياة التجارية ، مثل الأبراج ، أحيطت هذه الأبراج عند بداية القرن الثانى عشر بالقلاع ، التى أصبحت بمثابة القلب لها ، من كل الجهات • ولقد صارت هذه الملحقات جوهرية ، وتغلب النازحون الجدد على السكان القدامى • وفى هذا المعنى من الصحيح تماما أن نقول ان المدينة فى العصور الوسطى ، وتبعا لذلك المدينة الحديثة ، كان ميلادها على ضواحى الأبراج ، أو أن الأبراج هى التى حددت موقعها • وسرعان ما دفع تجمع التجار فى مواقع مناسبة الحرفيين أيضا الى أن يجتمعوا هناك • ولقد كان الحشد الصناعى فى المدن مماثلا فى القدم للحشد التجارى • ونستطيع أن نلحظه ببساطة خاصة فى اقليم الفلاندرز • فلقد هاجر صناع الملابس الذين قاموا بهذه الصناعة فى هذا الاقليم ، الى الأماكن التى حملوا اليها منتجاتهم • هنالك وجد النساجون الصوف المستورد على يد التجار ، ووجدوا الغزالين والصبغات اللازمة للتلوين • ولقد صاحبت هذا التحول ، الذى لا نعرف لسوء الحظ تفاصيله ، صناعة ريفية داخل مجتمع مدنى • ولقد تحولت الحياكة التى كانت فى يد النساء الى يد الرجال ، وفى نفس الوقت تحول الطيلسان القديم الصغير الى قطع من الملبوسات الطويلة ، التى صارت ملائمة للتصدير وظل طولها الطول المثالى الذى صارت عليه منتجات الملابس حتى اليوم • وهنالك سبب طيب أيضا لافتراض وقوع مثل هذا التغيير فى ذلك الوقت فى الأنوال التى كان يستخدمها النساجون ، وهو تغيير مقاس سداة النسيج من عشرين ذراعا الى ستين ذراعا حتى تتواءم بذلك مع العارضة الخشبية للنول •

ومن الممكن أن نلاحظ تطورا مماثلا حدث فى صناعة الملابس الفلمنكية فى مجال الصناعة فى وادى الميز وتطورها عموما • فلقد تلقت صناعة النحاس التى كانت نشطة هنالك منذ شغل البرونز وكانت نشطة أيام الاحتلال الرومانى ، لقيت دفعة قوية حين أعطاها انتعاش الملاحة فى النهر الفرصة لانتاج ما يمكن تصديره منها • وفى نفس الوقت ، أصبح تركز هذه الصناعة قائما فى مدن نامور Namur وهاى Huy وفوق ذلك فى دينانت Dinant ، وهى المدن التى قصدها التجار وكان أصحابها يجلبون النحاس من مناجم سكسونيا لصناعتهم فى القرن الحادى عشر (١) • وبالمثل ، فكان الحجر الكريم الذى تكاثر وجوده فى تورناى Tournai كان يصنع فى هذه المدينة ، وأصبح انتاج وتصنيع أحواض المعمودية

---

(١) انظر F. Rousseau, op. cit., p. 89 et seq.

نشيطا حتى نلتقي بها في أماكن بعيدة مثل سوث هامبتون ووينتشستر(١) • ولقد تكررت نفس القصة في ايطاليا • فلقد جمعت المنسوجات الحريرية القادمة من الشرق عبر البحر عند لوقا Lucca ، بينما تخصصت ميلان ومدن لمباورديا وفلنديهم في ذلك تسكانيا في وقت قريب ، في صنع الفستيان (نسيج قطني) •

٢ ـ التجار والبورجوازيون (٢)

لقد كان الاختلاف الجوهري بين التجار والحرفيين في المدن الناشئة والمجتمع الزراعي ، في أوسط أشكاله ، أن شكل حياتهم لم يحدد طويلا بعلاقاتهم بالأرض • في هذه الحالة ، فلقد كونوا ، بمعنى الكلمة ، طبقة ذات جذور • فلقد أصبحت التجارة والصناعة حتى ذلك الوقت مجرد أشغال عارضة أو مؤقتة لوكلاء أرض الأشراف (الجفالك) ، الذين تأكد وجودهم على يد ملاك الأرض الذين وظفوهم عندهم ، وقد أصبحت الآن مهنا مستقلة • ولقد كان هؤلاء الوكلاء « رجالا جددا » • ودائما ما كانت تبذل محاولات لاخراجهم من تبعية اتصالهم بخدم السادة وعمالهم ، أو بالأقنان المكلفين باطعام أسيادهم في زمن المجاعات أو في زمن الوفرة يقومون بتصدير زائد انتاجهم الى الخارج لكن مثل هذا التطور لم تذكره المراجع ولم يرجح بعد (٣) • وليس هنالك شك في أن ملاك الأراضي هنا وهناك قد أحرزوا امتيازات اقتصادية في المدن الناشئة لمدة طويلة الى حد ما ، وعلى سبيل المثال ، اجبار السكان على استخدام فرن السيد وطاحونته ، أو احتكار بيع نبيذه لعدة أيام بعد تصنيعه ، أو حتى بعض الحقوق المعينة الخاصة بالجباية من المصنوعات المموهة بالذهب • لكن بقاء هذه الحقوق على الرعية ليس دليلا على اثبات الأصل الزراعي للاقتصاد المدني • بل على العكس من ذلك ، فالذي نلاحظه في كل مكان أنه من اللحظة التي ظهر فيها هذا الاقتصاد ، يبدو أنه ظهر في ظروف من الحرية وليس في ظل العبودية الزراعية •

---

(١) P. Rolland, L'Expansion tournaisienne atx XIe et XIIe ·ièles, Art et commerce de la pierre in Annales de l'Académie royale d'archtologie de Belgique, 1924.

(٢) Bibliography See above, p. 40, n. I, W. Vogel, Einseefahrender Kauf-mann um 1100, im Henscische Geschichtsblatter. t. XVIII, 1912. H. Pirenne, Les périodes de l'histoire du capitalisme, in Bull. de l'Acad. royale de Belgique, Cl. des Lettres, 1914.

(٣) R. Eberstadt, Der Ursprung des Zunftwesens und die älteren Handwerksverbande des Mittelaters, Leipzig, 1915, and in a modified form, F. Keutgen, Amter und Zünfte, Jena, 1903.

لكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن علينا ، هو كيف لنا أن نوضح تكوين طبقة التجار والحرفيين الحرة الخالصة عن مجموع طبقات المجتمع الريفى ، حيث كانت العبودية هى السمة الطبيعية للناس آنذاك ؟ وتمنعنا قلة المعلومات عن الاجابة على تلك المبادرة التى تتطلبها أهمية المشكلة . ولكن من الممكن على الأقل أن نشير الى العوامل الرئيسية : أولا ، فانه من المحقق أن التجارة والصناعة قد انتعشت على يد أجراء الأرض ، الذين كانوا يعيشون ، كما يقال ، على هامش المجتمع الذى كانت الأرض فيه هى أساس وعصب الحياة . ولقد كان عدد هؤلاء آنذاك كبيرا للغاية . وينضاف الى هؤلاء ، أولئك الذين فى وقت المجاعات أو الحروب قد تركوا أرضيهم بحثا عن الحياة فى أى مكان ثم عادوا ، وعلينا أن نتذكر كل الأفراد الذين لم يكن فى استطاعة مجتمع الملاك الزراعيين (الجفالك) أن يعولهم . وقد كان امتلاك أرض المزارعين مجرد قدر يضمن الأداء المنتظم لما عليهم من استحقاقات . ولهذا كان الأبناء الصغار للرجل الذى يعول عددا من الأولاد يجبرون فى الغالب على أن يتركوا والدهم ليمكنوه من أن يدفع ما عليه من استحقاقات لسيده . حينئذ ينضاف الى هؤلاء جموع المشردين الذين يهيمون داخل البـلاد مترددين ما بين كنيسة وأخرى لأخذ نصـيبهم من الصدقة المخصصـة للفقراء ، ويعملون أجراء للمزارعـين وقت الحصاد ووقت تصنيع النبيذ ويتطوعون كجند مرتزقة فى الفرق الاقطـاعية فى أوقات الحروب .

وسرعان ما استفاد هؤلاء الرجال من وسائل العيش الجديدة التى عرضت عليهم عن طريق وصول السفن والتجار على طول السواحل وفى أخوار الأنهار . ولقد جند كثير من المغامرين خاصة أنفسهم لسفن البنادقة والاسكندنافيين كبحارة ، والبعض الآخر انضم لقوافل التجار التى شقت طريقها مرارا وتـكرارا الى « الموانى » . وللحظ ، فان النخـبة من بينهم استطاعت أن تنجح فى انتهاز الفرص العديدة لتكوين الثروة ، التى قدمتها الحياة التجارية للمشردين والمغامرين الذين ألقوا بأنفسهم خلالها بهمة ونشاط وذكاء . وهنالك احتمال كبير يكون كافيا لاعادة النظر فى مثل هذه الحقائق ، اذا لم يكن لدينـا نموذج له قيمته ، فى قصة سان جودريك St. Godric of Finchale عن الطريقة التى تكونت بهـا طبقة الأغنيـاء الجدد (١) . ولقد ولد جودريك حوالى نهاية القرن الحادى عشر فى لنكولنشير

---

(١) عن سان جوردريك ، انظر مقال فوجيل الوارد فى الببليوجرافيا ، ص ٤٥ حاشية ٢ .

The Libellus de vita et miraculis S. Gordici, heremitae de Finchale, auctore Reginaldo monacho dunelmensi, edited in Dondon in 1948 by Stevenson for the Surtees Society.

Lincolnshire من أصل ريفي فقير وأجبر ، دون شك ، على أن يترك أرض والديه ، واستخدم كل مهارته في كسب عيشه . ومثله مثل كثير من غير المحظوظين في سنه أصبح متسكعا على الشواطىء ، باحثا عن حطام مركب قذفت بها الرياح الى الشاطىء . ولقد كان تحطم السفن كثيرا ، وفي أحد الأيام الطيبة لاحت له فرصة حظ قدمت له كسبا مفاجئا مكنه من أن يحصل على رزقه ليصبح واحدا من التجار الجائلين . واستطاع أن يجمع رصيدا قليلا من المال ، حين التحق بمجموعة من التجار . وبعد ذلك انتعشت أعمال هؤلاء التجار واستطاع جودريك أن يحقق ربحا مكنه من أن يدخل في مشاركة مع آخرين ، شاركوا في تحميل السفينة ، واشتغل في التجارة الساحلية على شواطىء انجلترا واسكتلندة والفلاندرز والدانمرك . وانتعشت هذه المشاركة . وصارت عملياتها تتكون من تصدير بضائع الى الخارج عرف عنها أنها نادرة وجلب في مقابلها حمولة ، كانت تصدر آنذاك الى أماكن يعظم الطلب عليها ، وتتحقق ، في المقابل ، من ورائها المكاسب الطائلة .

وقصة جودريك هي بالتأكيد قصة آخرين كثيرين مثله . وفي عصر استمرت فيه المجاعات ، لا يسع المرء الا أن يشترى كمية قليلة من الحبوب بسعر بخس في المناطق التى تتوافر فيها ، لتحقيق مكاسب خرافية ، من الممكن أن تتزايد بنفس الطريقة . وهكذا فان المضاربة التجارية التى كان ينطلق منها هذا النوع من الأعمال ، قد عاونت بشدة في تكوين أول ثروات تجارية . وان مدخرات أى بائع جائل صغير ، أو ملاح ، أو نوتى ، أو عامل في الميناء تجهز رأس مال كاف لأى منهم ، فقط اذا ما عرف كيف يستغلها (١) . ومن الممكن أن يحدث أيضا أن مالكا يوظف جزءا من دخله في التجارة البحرية . ومن المؤكد غالبا أن نبلاء ساحل ليجوريا قد قدموا راس المال الضرورى لبناء السفن الجنوية وقاسموا الأرباح من بيع الشحنات في موانى البحر المتوسط . ولقد حدث نفس الشىء في مدن ايطالية أخرى ، وعلى الأقل نحن بصدد افتراض ذلك حين نلاحظ أن في ايطاليا عددا كبيرا من النبلاء كانوا يعيشون دائما في المدن ، على عكس اخوتهم في شمال الألب . ومن الطبيعى فقط الافتراض أن عددا معينا منهم كانوا بشكل ما مهتمين بالانتعاش الاقتصادى الذى كان ينمو حولهم . في هذه الحالات فان رأس مال ملاك الأرض ، دون الحاجة الى سؤال ، قد أسهم في تكوين رأس المال السائل اللازم للتجارة . ومهما

---

(١) ولضرب امثلة قليلة من الممكن بسهولة أن تزداد ، انظر مقالى :

Les périodes de l'histoire sociale du capitalism, in the : Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie royale de Belgique, 1914.

كان الأمر ، فلقد كان دورهم ثانويا ، وبرغم أنهم قد اكتسبوا من وراء انتعاش التجارة ، فمن المؤكد أنهم ليسوا هم الذين أنعشوها ٠

ولقد بدأت أول دوافع الانتعاش من الخارج ، فى الجنوب بالبنادقة وفى الشمال بالملاحة الاسكندنافية ٠ ولم يستطع الغرب الأوربى مجددا فى حضارته الزراعية أن يعرف سريعا نوعا جديدا من الحياة ، فى غياب دافع وقدوة خارجية ٠ ولم يكن موقف الكنيسة ، أقوى مالكة للأرض آنذاك ، تجاه التجارة ، مجرد موقف سلبى بل موقفا معاديا للغاية ، وبرهانا كافيا على ذلك ٠ واذا كانت بدايات الرأسمالية التجارية تغرب جزئيا عن خاطرنا ، فانه من السهل أن نتتبع تطورها خلال القرن الثانى عشر ٠ وهى تقارن فى تطورها النشط ونسبى ، دون غلو ، بالثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر ٠ ولقد كان لنوع الحياة الجديدة الذى عرض نفسه على الأعداد الهائلة من أجراء الأرض المتسكعين جذب خاص لهم لم يستطيعوا مقاومته بسبب الوعد بالكسب الذى قدمه لهم ٠ وكانت النتيجة لذلك هجرة حقيقية من الريف الى المدن الناشئة ٠ وسرعان ، ما اتخذ هذه الخطوة الكثير من المشردين من أمثال جودريك ٠ ولقد كان الاغراء شديدا لدرجة جعلت أعدادا من الأقنان يهربون من مزارعهم التى ولدوا ونشأوا فيها الى المدن ، ليعملوا كحرفيين أو يعملوا موظفين عند التجار الأغنياء الذين إنتشرت شهرتهم فى الآفاق ٠ ولقد قام اللوردات بتعقبهم ونجحوا فى اعادة بعضهم الى أراضيهم ، حين تمكنوا من وضع أيديهم عليهم ٠ ولكن كثيرا منهم أفلت من قبضتهم ، وتبعا لتزايد سكان المدن ، أصبح من الصعب عليها أن تضع يدها على الهاربين المحتمين بها ٠

وبالتركيز فى المدن استطاعت صناعة هذه المدن أن تزود تجارتها الخارجية أكثر فأكثر ٠ ونتيجة لذلك ازدادت بثبات أعداد السلع وازدادت تبعا لذلك أهمية وأرباح أعمالها ٠ وفى ذلك الوقت الذى نمت فيه التجارة، لم يكن من الصعب على الشباب أن يجدوا أعمالا لهم كمساعدين لبعض السادة الأغنياء ، ليشاركوهم فى أعمالهم وفى النهاية يكونون ثرواتهم الخاصة ٠ ولقد قصت لنا حكاية مغامرات أسقف كامبرى (The Gesta) بالتفصيل قصة رجل يدعى وريمبولد Werimbold الذى دخل ، فى عهد الأسقف بيرتشارد Burchard (١١١٤ ـ ١١٣٠) فى خدمة تاجر غنى ، وتزوج ابنته وعمل على تنمية ثروته وأعماله حتى أصبح هو نفسه ثريا٠ولقد قام بشراء قطعة كبيرة من الأرض فى المدينة ، وبنى بيتا فخما ، وابتاع عوائد

المرور التى كانت تحصل عند احدى البوابات ، وابتنى جسرا على نفقته وفى النهاية ترك النصيب الأكبر من ممتلكاته للكنيسة (١) ·

ولقد كان أساس الثروات الكبيرة ، دون شك ، فى هذه الفترة ظاهرة عادية فى كل المراكز التى كانت التجارة الخارجية مزدهرة فيها · وكما أغدق ملاك الأراضى فى الماضى بهبات الأرض على الأديرة ، فان التجار آنذاك أخذوا بحظهم فى تأسيس أبرشيات الكنائس ، والمستشفيات ، والتكايا (ملاجىء العجزة) ، وباختصار فقد صرفوا أنفسهم فى الأعمال الدينية أو الخيرية لصالح مواطنيهم ولخير أنفسهم وأرواحهم · وبالطبع ، فان الديانة حثت كثيرا منهم على تحقيق الثروة ، بقصد أن تكرس لخدمة الله ، ويجب أن لا ننسى أن بيير والدو Pierre Waldo مؤسس جمعية « فقراء ليون » Poor Men of Lyons سنة ١١٧٣ م ، التى بعد قليل أقامت فرقة الولداوية (*) ، كان تاجرا · وعلى وجه التقريب ولد القديس فرنسيس St. Francis فى أسيسى Assisi فى بيت تاجر آخر (٢) · وعدد آخر من الأغنياء الجدد ، الطموحين بمعنى الكلمة ، فكروا فى أن يرفعوا مكانتهم فى السلك الاجتماعى بتزويج بناتهم الى الفرسان ، وسوف يكون بذلك حظهم من الثروة كبيرا وسوف يكبح ذلك اشمئزاز الآخرين بصددهم ·

هؤلاء التجار الكبار ، أو بالأحرى الأغنياء الجدد ، كانوا طبيعيا قادة البرجوازية ، لأن البرجوازية نفسها كانت وليدة الانتعاش التجارى ، وقد كانت كلمة تاجر mercator وكلمة بورجوازى burgensis فى البداية كلمتين مترادفتين · ولكنها حين ارتقت البرجوازية كطبقة اجتماعية وضعت نفسها شرعيا فى اطار طبقة من عنصر عالى الأصل ، علينا أن نحسب حسابها الآن ·

---

(١) Gesta episcoporum cameracensium continuata, ed. G. Waitz, M.M.G.G., t. XIV, p. 214 et seq.

(*) الولداوية أو الولدوويين ، فرقة نصرانية نشأت فى جنوبى فرنسا بعد عام ١١٧٠ م ، بزعامة بيرولدو Pierre Waldo .

(٢) تحكى حياة القديس جاى Guy (فى القرن الحادى عشر) أنه وظف نفسه للتجارة حتى يستطيع الحصول على المزيد من المال لينفقه فى الاحسان ·
Acta Sanct. Boll., Sept., t. IV, p. 42.

٣ - التنظيمات والقوانين المدنية

كانت احتياجات وميول الطبقة البرجوازية مغايرة للتنظيم التقليدى لغرب أوربا ، مما أثار حيالها معارضة عنيفة • وقد دارت هذه الاحتياجات والميول عكس جميع اهتمامات وأفكار المجتمع الذى تسلط ملاك الأراضى الواسعة عليه ماديا وتسلطت عليه روحيـــا الكنيسة التى لم تتغلب على كراهيتها للتجارة (١) • وليس من العدل أن نعزو الى « الاســـتبداد الاقطاعى » أو « الطغيان الكهنوتى » أية معارضة تفصح عن نفسها ، برغم أن هذا العزو قد تم فى الغالب بالفعل • وكالعادة ، فان أولئك المستفيدين من النظام القائم قد دافعوا عنه باستماتة ، ليس فقط بسبب أن هذا النظـام يحمى مصالحهم ، ولكن بما بدا لهم من أن هذا الدفاع ضرورى للحفاظ على المجتمع • زيادة على ذلك ، فان البرجوازيين أنفسهم كانوا أبعد ما يكونون عن القيام بموقف ثورى حيال هذا المجتمع • فلقد أخذوا سلطة أمراء الأراضى وامتيازات النبلاء كمنحة لهم ، وفوق كل ذلك سلطة وامتيازات الكنيســة • ولقد أقروا كذلك مبادىء أخـلاقية تصـوفية ، تتعارض مع أسلوبهم فى الحياة • لقد رغبوا ليس الا أن يكون لهم مكان تحت الشمس ، والحصرت مطالبهم فى احتياجاتهم الضرورية •

ومن هذه الاحتياجات والأكثر ضرورة لهم كانت حريتهم الشخصية • وبدون حرية ، ممكن القول ، بدون القوة أن تغدو وتروح ، لأداء الأعمال ، لتبيع السلع ، وقوة لا تقترن بالعبودية تجعل التجارة مستحيلة • وهكذا طالب البرجوازيون باستمرار نظام العبودية بسبب فوائدها التى تمنحها لهم فقط لا غير ، وقد كان ذلك على وجه الخصوص أمرا مفيدا لهم بعد أن صرفوا عن أذهانهم أى فكرة عن الحرية الشـــخصية كحق طبيعى للأفراد • الى جانب ذلك ، فان كثيرا من البرجوازيين اعتبروا الاسترقاق حقا شرعيا لهم ، ولقد كان هؤلاء الأرقاء من المهاجرين ، الذين جاءوا من أماكن بعيدة فرارا من تتبع أسيادهم لهم ، والذين أرادوا ألا يستمروا فى العبودية ، وتطلعوا للحرية برغم أنهم ولدوا من آباء غير أحرار • لكن الرغبـة يجب أن يتغـير شكلها الى حقيقـة • ومن الضرورة بمكان أن المواطنين ، الذين جاءوا ليسكنوا المدن بحثا عن حياة جديدة ، أن يشعروا بالأمان وألا يخافوا من أن يعادوا ثانية بالقوة الى ملاك الأرض التى هربوا منها • وكان عليهم أن يتخلصوا من أعمال السخرة ومن كل الأعباء الكريهة التى حملوها على عواتقهم من قبل ، وعلى سبيل المثال اجبارهم على أن يتزوجوا

---

(١) مؤلف كتاب حياة القديس جاى St. Guy المذكور سابقا ، أطلق على التاجر الذى نصح القديس بالعمل فى التجارة « القسيس الشيطان » • diaboli minister .

فقط من نساء من طبقتهم وأن يتركوا للورد جزءا من ميراثهم • ولقد استحوذ هؤلاء على هذه المطالب المقبولة فى القرن الثانى عشر بعد وقوع بعض الثورات الخطيرة • ولقد أضاف معظم المحافظين المتشددين ، أمثال جيوبيرت دى نونت Guibert de Nogent ، سنة ١١١٥ ، الى كلمة انتقام ، الحديث عن هؤلاء « العـامة الكريهين » الذين نصبتهم العبودية ليهربوا من سيطرة أسيادهم وليتخلصوا من أهم حقوقهم الشرعية (١) • ولقد أصبحت الحرية المنزلة الشرعية للبرجوازيين ، للدرجة التى لم تعد فيها مجرد امتياز شخصى ، بل هو امتياز اقليمى وراثى فى التربة المدنية مثلما كانت العبودية امتيازا وراثيا فى تربة الجفالك الزراعية • وللحصول عليها ، تكفى الاقامة لسنة ويوم داخل أسوار المدينة • وكما تقول الحكمة الألمانية : « هواء المدينة يجعل المرء حرا » (Stadtluft macht frei) •

ولكن اذا كانت الحرية هى أول احتياجات البرجوازية ، فان هنالك أشياء كثيرة الى جانبها • ولم تعد القوانين التقليدية باجراءاتها الشكلية الضـيقة ، وتجاربها ، ووقائعها القضائية وقضاتها المجندين من بين الفلاحين ، ووجود أعراف فصلت تدريجيا لتنظيم علاقات الرجال الذين يعيشون على الزراعة أو ملاك الأراضى ، لم تعد وافية بالغرض للسكان الذين صار وجودهم معتمدا على التجارة والصناعة • مزيد من القوانين السريعة كانت ضرورية لاثبات سرعة الاستجابة وسرعة استغلال الفرصة ، ولقد كان القضاة الذين كانوا هم أنفسهم على معرفة بأشغال أولئك الذين حكموا بينهم ، يستطيعون اتخاذ أقصر الطرق لوضع هذه القوانين لمعرفتهم بالقضية التى هى قيد الانجاز • ومنذ وقت مبكر ، وعلى الأقل مع بداية القرن الحادى عشر ، قاد ضـــغط الظروف الى وضـــع تشريع تجارى "Jus morcatorum" ، يعد جنينا للقانون التجارى • ولقد تألف هذا التشريع من مجموعة أعراف ولدت من تجارب أعمال ، وهى نوع من أنواع العادات الدولية ، التى استخدمها التجار بين أنفسهم وبين صفقاتهم •

---

(١) Guibert de Nogent ,Histoire de a vie, ed. G. Bourgin, p. 156 (Paris, 1907).

ومرة ثانية كتب جاك دى فيترى فى القرن الثالث عشر مقالا بعنوان :

"Violent and pestiferous communitates" :

كذلك كتب فى انجلترا :

A. Giry, Documents sur les relations de la royanté avec les villes en France, p. 59 (Paris, 1885).

Richard de Devizes : "Communia est tumor pelhis, timor regni tepor sacredotti". W. Stubbs, Select Charters, p. 252 (Oxford, 1890).

وخلوا من كل شرعية قانونية من الصعب علينا أن نستحضرها فى المحاكم القائمة ، واتفق التجار فيما بينهم أن يختاروا من بينهم قضاة عرفيين تكون لديهم القدرة على فهم نزاعاتهم وفض مشاكلهم على الفور · ونحن هنا دون شك يجب أن نبحث عن أصل هذه المحاكم التى أخذت فى انجلترا اسم محاكم « الأقدام المتربة » courts of piepowder (pied poudré) ، لأن أقدام التجار الذين ردت اليهم كانت لا تزال متربة من الطريق (١) · وسرعان ما صارت هذه المحاكم الطارئة محاكم دائمة معترفا بها من السلطة العامة · وعند يبريس Ypres ، فى سنة ١١١٦ م ، أبطل كونت الفلاندرز المجادلات القضائية ، ومن المؤكد أنه فى نفس التاريخ نظم فى معظم مدنه محاكم « القضاة منكوشى الشعر » échevins ، المختارين من بين البرجوازيين وهم الوحيدون المخولون بالقضاء بينهم · وسرعان ما حدث ذلك فى كل الأقطار · فى ايطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وانجلترا ، حصلت المدن على محاكم تشريعية ، جعلتهم جزرا لقضـاء مستقل ، تقع خارج العرف الاقليمى ·

ولقد صاحبت هذه المحاكم الذاتية ادارة ذاتية · ولقد استلزم وجود أكداس من الأحكام المدنية وجود عدد من الترتيبات لملاءمة الدفاع الذى كان عليهم أن يزودوا أنفسهم به فى غياب السلطات التقليدية التى لم تكن لديها الوسائل أو الرغبة فى مساعدتهم · ومن البينـات القوية لنشاط واستهلال البرجوازيين جهودهم فى تثبيت أقدام نظام المجالس البلدية ، الذى ظهرت بوادره فى القرن الحادى عشر ، وصارت فى يده كل عناصره الحيوية فى القرن الثانى عشر · وهكذا فان العمل الذى أنجز يدعوجميعه للاعجاب ، لأنه كان فى الحقيقة خلقا أصيلا · وليس هنالك شيء فى النظام القائم يمكن استخدامه كنموذج ، طالما أن الاحتياجات التى قصد أن يوفيها كانت جديدة ·

وكانت الحاجة للدفاع عن النظام هى أكثر الأمور الحاحا · ولقد كان التجار وتجارتهم ، بالطبع ، من الأشياء المغرية للنهب ، لذا كان من الضرورى حمايتهم من اللصوص بجدار قوى · لذلك فان بناء الأسوار حول المدن كان من أول الأعمال العامة التى تعهدت بها المدن ، وهو عمل كانت تكلفته المالية كبيرة حتى نهاية العصور الوسطى · بالطبع ، ربما قيل حقا انها كانت بداية التنظيم المالى ، لذلك ، على سبيل المثال ، فان اسم

---

(١) "Extraneus mercator vel aliquis transions per regnum non kebens certam mansionem infra vicecomitatum sed vagons, qui vocatur piepowdrous" (1124-53). Ch. Gross, The Court of Piepowder, in the Quarterly Journal of Economics, t. XX (1906), p. 231, n. 4.

بيت المال Firmitas ، الذى كانت تجمع فيه المكوس العامة فى مدينة ليبيج Liége ، وفى بقية المدن (لبناء التحصينات) كانت من احدى الجزاءات النقدية التي فرضها مجلس المدينة على السكان • وحقيقة أن دروع الأسلحة المحصنة حاليا تبين أهمية الأسوار فى الدفاع عن المدن • لذلك لم تكن هنالك مدينة غير محصنة أو مسورة فى العصور الوسطى • ولقد جمعت الأموال للحصول على النفقات التى سببتها الاحتياجات الدائمة للتحصينات، وقد جمعت هذه الأموال بيسر من سكان المدن أنفسهم • ولقد اهتم الجميع بالدفاع العام وكان عليهم جميعا مواجهة تكلفته • وقد قدرت القيمة المقدرة على كل فرد على أساس ثروته ، وعد ذلك بدعة كبيرة • وبخصوص الضريبة الاقطاعية الجائرة التى كانت تدفع للسيد الاقطاعى ، والتى كانت تحصل لحسابه ، فقد استبدلت بدفع ضريبة مناسبة على حدة بقصد النفع العام • وبذلك استعاد النظام الضرائبى نفسه فى شكل عام ، بعد ان كان قد اختفى خلال الحقبة الاقطاعية • ولتقدير وجمع هذه الضريبة ، كذلك لتزويد المدينة باحتياجاتها العاديــة التى تزايدت مع الوقت مع التزايد المستمر لسكان المدينة ، مثل : انشاء الموانى والأسواق ، وبناء الجيوش وأبرشيات الكنائس ، وتنظيم الطوائف الحرفية ومراقبة امدادات الطعام ، أصبح من الضرورى انتخــاب أو السماح بقيــــام مجلس من الحكماء ، والقناصل فى ايطاليا وبروفانس ، ومن المحلفين فى فرنسا ومن الشيوخ فى انجلترا • ولقد ظهروا فى القرن الحادى عشر فى مدن لمبارديا ، حين ورد ذكر قناصل مدينة لوقا سنة ١٠٨٠ م • وفى القرن التالى ، أصبحوا فى كل مكان نظاما مجازا من السلطة العامة ومشاركة فى كل تنظيم بلدى • وفى كل المدن ، مثلما كان الحال فى الأراضى المنخفضة ، صار منكوشو الشعر échevins فجأة ودون سابق انذار القضاة والأوصياء على سكان المــدينة •

وسرعان ما اكتشف الأمراء العلمانيون مدى خطــورة نمو المدن عليهم • وتبعا لنمو تجارتهم فى البر والبحر وتزايد صفقات أعمالهم ، فلقد كانوا فى المقابل فى حاجة الى زيادة السيولة النقدية فى أرصدتهم • وقد رأوا الدخول من كل أنواع المكوس وكذلك من المناجم تتدفق فى زيادة الأموال السائلة فى خزانة السيد (اللورد) • ولذلك فليس من المستغرب أن يأخذ اللوردات على عاتقهم تشجيع كل اتجاه خيرى نحو

سكان المدينة . زيادة على ذلك ، فان هؤلاء الأمراء ، وقد عاشوا كحكام في قلاع بلادهم ، لم يصطدموا بسكان المدن وبذلك تجنبوا كل أسباب الصراع معهم . وقد كان ذلك على العكس تماما بالنسبة للأمراء الكنسيين . فقد دعوا المواطنين لمقاومة الحركة البلدية ، تلك المقاومة التى تطورت مع الوقت الى صراع سافر . والحقيقة أن الأساقفة كانوا قد أجبروا على الاقامة فى مدتهم ، وقد حثهم ، على وجه الخصوص ، رجال السياسة المعتدلون فى حكومة الدوقيات ، على أن يستعيدوا سلطتهم وأن يتصدوا لطموحات البرجوازيين بكل تصميم ، لأنهم نهضوا على يد التجار ووجهوا من قبل التجار ، الذين كانوا موضع الشك دائما فى عيون الكنيسة . وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، أعطى الصراع بين الامبراطورية والبابوية الفرصة لسكان مدن لمباردیا للثورة ضد المطارنة السيمونية (*) . ومن ثم انتشرت الحركة عبر وادى الراين حتى كولون . وفى سنة ١٠٧٧ ، ثارت مدينة كمبراى ضد الأسقف جيرالد الثانى ، وأقامت أقدم الكميونات التى نلتقى بها شمال الألب . وحدث نفس الشىء فى دوقية لييج . وفى سنة ١٠٦٦ أجبر الأسقف ثيودين Théoduin أن يمنح البرجوازيين فى هاى Huy عقد حريات ، وهو يسبق العهود الأخرى المكتسبة فى باقى أجزاء الامبراطورية بعدة سنين . ولقد وقعت ثورات مدنية فى فرنسا ، فى بوفيه حوالى سنة ١٠٩٩ ، وفى نيون Noyon فى سنة ١١٠٨ ـ ١١٠٩ ، وفى ليون سنة ١١١٥ .

وهكذا كسبت بعض المدن النظم البلدية الملائمة لحياة سكانها فى البداية والبعض الآخر خلال القرن الثانى عشر بالمقاصد المعتدلة أو بالمقاصد العنيفة بالسلم أم بالقوة .

ولقد توسعت السكنى فى « المراكز الجديدة » فى الموانى ، حيث تجمع التجار والحرفيون لتشمل سكان « المراكز القديمة » و « المدن » التى صارت أسوارها القديمة محاطة من جميع جوانبها بالأحياء الجديدة ، فتهالكت هذه الأسوار القديمة تهالك تشريعاتها القديمة نفسها . ومن ذلك الوقت فصاعدا ، قاسم كل من سكن داخل أسوار المدينة ، عدا القساوسة ، امتيازات البرجوازية .

ولقد كانت السمة الجوهرية للبرجوازية هى ، بالطبع ، أنها كونت طبقة مميزة وسط باقى السكان . من وجهة النظر هذه فلقد قدمت مدن

(*) السيمونى هو مشترى المنصب الكهنوتى أو بائعه .

العصور الوسطى تناقضا ملفتا للنظر لكل من المدن القديمة ولمدن تلك الأيام ، التى تختلف فقط عنها فى كثافة سكانها وتعقد ادارتها ، خلافا عن ذلك ، فان سكانها لا يشغلون وضعا خصوصيا فى الدولة . لا فى التشريع العام أو فى التشريع الخاص . على العكس من ذلك ، فان برجوازى العصور الوسطى ، كان نوعا مغايرا لكل الذين عاشوا خارج أسوار المدينة . وفجأة صار خارج بوابات المدينة وخندقها نجد أنفسنا فى عالم آخر ، أو أكثر تحديدا ، فى أملاك تشريع آخر . ولقد جلبت حيازة المواطنة معها نتائج مشابهة لتلك النتائج التى تبعت الفارس أو الكاتب عندما أنعم عليه بحلق قمة رأسه بمعنى أنه أنعم عليه بمنزلة شرعية خصوصية . وعلى غرار الكاتب أو النبيل ، فان البرجوازى تهرب من القانون العام مثلهما وانتمى الى منزلة خاصة ، عرفت مؤخرا « بالمنزلة الثالثة » . ولقد ميزت الأرض التابعة للمدينة حسب سكانها . ولقد كانت الحصانة التى تحمى الرجل الذى يلجأ الى المدينة من السلطة الخارجية كتلك التى كان يطلبها عند اللجوء الى الكنيسة . وباختصار ، فان البرجوازيين كانوا بمعنى الكلمة طبقة مستثناة وفوق العادة . ولقد كونت كل مدينة من مدنها ، ما يقال عنه ، دولة صغيرة داخل نفسها ، متحمسة لامتيازاتها ومعادية لكل جيرانها . ومن النادر جدا أن يستطيع خطر عام أو غاية عامة أن تفرض على خصوصياتها المدنية الحاجة للتحالف أو عقد معاهدة دفاعية ، مثلما حدث ، على سبيل المثال ، مع الهانز الجرمان . وعموما ، فان سياسة المدن كانت مصممة بنفس الأثرة الدينية المقدسة التى ألهمت مؤخرا سياسات الدول . وبالنسبة للبرجوازيين فان سكان الاقليم ظلوا ليكونوا مجرد مسخرين . وبسبب منعهم من مشاركتهم امتيازاتهم فانهم دائما ما كانوا يرفضون بصلابة كل مشاركة لهم فيه .

ولم يستبعد شىء أبعد من روح الديمقراطية الحديثة عدا الموانع التى استمرت بواسطتها تدافع مدن العصور الوسطى عن امتيازاتها ، حتى ، وبالطبع قبل كل شىء ، تلك الفترات التى حكمها فيها الحرفيون .

الفصل الثالث

الأرض والطبقات الريفية

٢ ـ نظام الجمالك وعبودية الأرض (السخرة) (١)

لقد كان نفوذ البرجوازية في كل فترة من فترات العصور الوسطى منيرا للدهشة ، ذلك لأنه كان في تناقض قوي مع أهميته العددية . ولقد كانت المدن تحتوي على أقلية من السكان . وفي غياب المعلومات الاحصائية في الفترة السابقة للقرن الخامس عشر ليس هنالك تقدير محكم يمكن بالطبع أن نكونه في هذا الخصوص ، ولكننا من المحتمل ألا نكون مخطئين تماما في افتراض أن عدد السكان المدنيين في كل أوربا في الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر يزيد عن عشر المجموع الكلي

---

(١) Bibliography - Inama-Stenegg, Lamprecht, H. Ste and M. Bloch, the general bibliography K. Lamprecht, Stude sur l'état économique de la Fradce pendant la première partie du Moyen Age, trans. Marignan, Paris, 1889 — L. Delisle, Etudes sur la condition de la classe agricole et l'état de l'agriculture en Normandie au Moyen Age, Paris, 2nd ed. 1903. A. Hansay Etude sur la formation et l'organisation économique du domaine de Saint-Trand jusqu'à la fin du XIIIe siècle Grand 1899 . — L. Verriedt Le servage dans la comté de Hainaut. Les sainteurs. Le meilleur catel, Brussels, 1910 (Mém. de l'Académie de Belgique) — G. des Marez, Note sur le manse brabangon au Moyen Age in Mélanges Pirenne, Brussels, 1926. F. Seebohm, The English Village Community. London, 1883. P. Vinogradoff, The Growth Century, Oxford, 1908 G. — G. Coulton.

The Medieval Village, Cambridge, 1925 — G. F. Knapp, Grundherrschaft und Rittergut, Leipzig 1987 . — W. Wittich, Die Grundherrschaft in Nordwestdeutschland, Leipzig 1896. O. Siebeck, Der Fronéienst als Arbeitssystem, Tübingen, 1904. R. Gaggese, Classi e communi rurali nel medio evoitaliano, Florence, 1906-9, 2 vols. — H. Blink, Ge chiedenis vay den boerenstand en den landbouw in Nederland, Groningen, 1902-4, 2 vols. G. Roupnel, Hidtoire de la Cappagne française, Paris 1982. M. Bloch. Liberté et servitude personnelles au Moyen Age, particulièrement en France, in Annario de Histoire del Derecho Espagnol, 1933 . — G. E. Perrin, Recherches sur la seigneurie rurale en Lorraine Paris, 1935.

للسكان (١) • وفقط في بعض الضواحي القليلة ، مثل الأراضى المنخفضة ، ولباردیا أو تسكانيا ، أن هذه النسبة قد زادت الى درجة ملحوظة • على أى حال ، فان من الحقائق التى لا شك فيها من وجهة النظر الديموجرافية (السكانية) ، أن مجتمع العصور الوسطى كان فى جوهره مجتمعا زراعيا • فوق هذا المجتمع الريفى وضعت العقارات الكبيرة بعمق كبير علامة لم تختف آثارها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر • ونحن لسنا فى حاجة هنا الى العودة الى أصل هذا المجتمع ، الذى ورثته العصور الوسطى من العصور القديمة • وكل ما هو ضرورى هو أن نصف بلوغه مكانته خلال القرن الثانى عشر ، وكما يقال ، فى وقت كان لازال ناشئا فيه ولم يبدأ فى التغير تحت نفوذ المدن (٢) • وربما يكون من غير الضرورى أن نضيف هنا أن نظام الجفالك لم يكن قد حمل على سكان الريف ، وأنه قد أبقى على عدد محدد من الممتلكات القليلة المعفاة ، وفى الضواحى المعزولة نلتقى بقرى خرجت عن قبضتها فى كثير أو قليل • لكن تلك مجرد استثناءات لا يمكن أن تعتبر شكلا متسعا للتطور العام لغرب أوربا •

ومن وجهة نظر الأحجام ، فان العقارات الكبيرة فى العصور الوسطى كانت متسعة الأحجام بمعنى الكلمة • وكان فيما يبدو أن العقار الواحد كان يتألف فى المتوسط من ثلثمائة عزبة (mansi) ، أو حوالى ١٠,٠٠٠ فدان » وكثير من هذه العقارات كان دون شك أكبر من ذلك وأعظم ، لكن أراضى هذه العقارات لم تكن كلها مجمعة فى منطقة واحدة • فهى دائما ما تكون مبعثرة • كذلك كانت البيوت المنفردة ذات الحدائق (Villas) لنفس الملاك منفصلة عن بعضها بمسافات بعيدة للغاية ، وكانت أبعد ما تكون عن مركز أرض الشريف (جفلكه الخاص) • ولقد كان دير سان ترونود Saint-Trond على سبيل المثال ، سيدا على ممتلكات واسعة ، وكان حجم الممتلكات حوله كبيرا ، ولكن كانت بينها وبعضها مسافات بعيدة ، وكان حدها من الشمال ضواحى نيموجين Mimwegen

(١) F. Lot, L'Etat des paroisses et de feux de 1328, in the Bibliothèque de l'Ecole des Chartes, t. xc (1929), p. 301.
اعتبر لوت أن سكان فرنسا فى بداية القرن الرابع عشر كان عددهم يتراوح ما بين ١/٢٠ الى ١/٧ من مجموع السكان أما بالنسبة لبراباند J. Cuvelier, Lesdénombrements de foyers en Brabani, p. cxxxv). فانه يقرر أن فى سنة ١٤٢٧ كانت ثلثا البيوت فى كل الأراضى الهولندية توجد فى الأرياف •

(٢) من الواجب هنا أن نلفت النظر الى حقيقة انه منذ أن تقسم تنظيم الجفالك الى اقسام مختلفة فى أوربا ، نستطيع هنا أن نصف بشكل عام فقط ، الملامح الرئيسية والنموذجية التى أجملت ولخصت •

وجنوبا ضواحي ترابر Trier (١) • ولقد نتجت هذه الطبييعة المبعثرة للعقارات من نسج معد من جانب ملاك الجفالك ، لدرجة أن قرية واحدة تكون في الغالب من ممتلكات لوردين أو ثلاثة لوردات • ولقد ظل الوضع أكثر تعقيدا حين تتوسع المقاطعة ، كما كان يحدث مرارا ، وتمتد الى أراض تكون تحت حكم عدة أمراء ، أو الى مقاطعات تتكلم بلغات مختلفة • وقد نتج هذا الوضع عن وجود أكداس من العقارات بسبب هبات متتابعة من جمهور المحسنين في حالة الكنيسة ، أو حدوث تحالفات بين ملاك الأراضي أو في حالة الميراث عند النبلاء • ولم يكن هنالك أسلوب واحد نتج عنه تكوين العقارات الكبيرة ، فلقد جاءت كما صنعها التاريخ ، مستقلة عن أي اعتبارات اقتصادية •

وبرغم تبعثرها ، فان هذه العقارات لم يكن لها تنظيم قوى ، وهي في جوهرها كانت متشابهة في كل الأقطار • ولقد كان مركز العقار في العادة مسكنا للسيد المالك ، سواء أكان كاتدرائية أم كنيسة أم بيعة ، أو قلعة حصينة • وكانت كل الأرض مقسمة الى عدد من الأقسام ، يحتوى كل قسم منها على قرية أو أكثر من قرية تحت اختصاص جفلك سـيد (ويطلق عليه curtis في الأراضي التي تتحدث باللســان الرومـانى ، و Cour في تلك التي تتحدث الألمانية و hof في تلك التي تتحدث الانجليزية) • وهنا تتجمع مباني المزرعة ، وأجرانها ، وحظائر قطعانها ، واسطبلاتها ، وغير ذلك ، كذلك يتجمع الأقنـان الذين يقومون بخدمتهم • وهنا أيضا يعيش الوكيل نائبا عن الادارة ، ويعرف بفليكوس the villicus أو major (وهو maire ، mayeur في القارة الأوربية ، و seneschal ، steward أو bailiff في انجلترا) ، مختارا من بين الرؤساء ministeriales ، وممكن القول ان الأقنان التصقوا كرجال مخلصين لبيت السـيد (اللورد) • وبسبب تأثير التطور العام الخاص بفترة العصـور الوسطى الزراعية ، سرعان ما أخذ هذا الوكيل ، الذي كان في البداية عرضة للابعاد ، حقا وراثيا لمنصبه •

ولقد قسمت كل الأرض تحت حكم الكنيسة في الكور أو الجفالك الى ثلاثة أجزاء : أرض مملوكة ، أرض مستأجرة وأرض مشاع • وتتكون

---

(١) انظر خريطة هذا العقار في القرن الثالث عشر في كتابه :
H. Pirenne, Le Livre de l'abbé Guillaume de Ryckel, Polyptique et comptes de l'abbaye de Saint-Trond au milieu du XIIIe siècle (Brussels, 1896).

الأرض المملوكة (terra indominicata, mansus indominicatus) فائض أرض السيد الاقطاعي ، تتكون من كل الأراضي المخصصة للفائدة المطلقة للسيد الاقطاعي • ومن المستحيل أن نحدد تماما أهميتها التناسبية ، التي اختلفت اختلافا كبيرا في مختلف المناطق • وكقاعدة عامة ، فهي تتكون من مساحات وقطع مبعثرة تقع بين الأراضي المستأجرة • وعلى الجانب الآخر ، فان حجم الأراضي المستأجرة ، يظهر ثباتا ملحوظا في كل قرية ، برغم أنهم غالبا ما يختلفون اختلافا ملحوظا في مناطق مختلفة • وهم يشكلون ، حقيقة ، حجم الأرض الكافي لاحتياجات الأسرة ، وتبع ذلك ، أنها اختلفت في حجمها بصدد خصوبة التربة (١) • ولقد عرفوا باسم mancus ، في اللاتينية ، و hufe في الألمانية ، و virgate أو Yardland في الانجليزية ، وكانوا جميعهم مثقلين بعناء الخدمات والمكوس لصالح السيد الاقطاعي • وقد أعطى جميعهم السكان المقيمين على أرضهم الحق العام في استعمال المراعي الطبيعية ، والأحراش ، والمروج أو الغابات التي كانت تحيط بالأرض الزراعية والتي عرفت في الوثائق باسم communia أو Waies capia • وبذلت جهود سدى للعثور على آثار ما يسمى بالملكية التضامنية في هذه الأراضي المشاع • وفي الحقيقة فان ملكيتها كانت مخولة للسيد الاقطاعي (اللورد) •

وباستثناء اللورد ، فان كل من يسكن في أرض الجفالك سواء أكان من الأقنان أو كما يقال من أشباه الأقنان ، وبرغم أن الرق كان قد اختفى في العالم القديم ، الا أن بقاياه ظلت في شكل أشباه الأرقاء والتابعين (mancipia و servi quotidiani) ، وهم الأشخاص الذين ينتمون الى اللورد والذين يلتحقون بخدمته ويحتفظ بهم • ومن بينهم يقوم بتجنيد العاملين في عقاره وملحقات قصوره ، ومراعيه واسطبلاته والعاملين من الجنسين الذين يستخدمهم في الجينيسي « gynecea » ، التي تحت اسمها تكونت وتشكلت دون تمييز ورش ضيعة الشريف ، حيث كان ينتج الكتان والصوف ويغزل ، وحيث يعمل أيضا هناك صانعو العجلات والعربات ومصلحوها ، والصاغة ، وصناع الجعة وغيرهم من الصناع • ولقد ظلت العبودية بشكل أقل بين المستأجرين ، أو (باستعمال التعبير

---

(١) وفقا لعمل Des Marez الوارد في الببليوجرافيا (ص ٥٨ ، حاشية رقم ١) ، فان تقدير برابانت يتكون من ١٠ الى ١٢ قطعة ، واختلف حجم القطعة الواردة فتراوح بين ٨ الى ١٥ هكتارا (حوالى من ٢٠ الى ٣٧½ فدان) • اما وفقا لما أورده Marc Bloch (Op. cit., p 159) فان مساحة المزرعة في فرنسا تراوحت ما بين ٥ الى ٢٠ هكتارا ، والمتوسط هو ١٢ هكتارا •

الذى كان عاما فى القرن الثانى عشر) وهو Ccasati ، على المستأجرين رغم وجود فوارق كثيرة بين اللفظين • لكن فى الحقيقة الكل فى النهاية اكتسب ملكية الأرض التى يزرعها بالوراثة ، رغم أن كثيرا قد أمسك بها فى البداية بالاسم دون ثبوت • وبينهم يوجد فى الغالب أحرار سابقون ، كانوا قد فقدوا حريتهم عن اضطرار لدفع ما عليهم من خدمات وواجبات تراكمت على عاتقهم • وفى أرض الأديرة وجفالكها نمت طبقة مميزة وسط سكان الجفلك ، وهم ال Cerocensuales ، وهم سلالة نساء أرامل من أصل حر وضعوا أنفسهم تحت حماية البيعة ، مانحيها ملكية عقاراتهم شريطة أن يتمتعن هن أنفسهن من ايرادها مقابل أن يدفعن ثمن الشمع لاحتفالات الكنيسة السنوية الكبرى (١) • ويختلف هؤلاء اختلافا طفيفا عن المستأجرين ، وربما كانوا هم الذين عرفوا باسم Cotters أو bordars الفلاحين ساكنى الأكواخ (caotarri, bordarii) ، وهم رقيق تمسكوا برقعة مجردة من الأرض ، وكانوا قد وظفوا من قبل لخدمة السيد الاقطاعى واقطاعيته • ولقد تزايد اعتماد سكان الجفالك على اللورد ، وكان ، حقيقة ، يمارس حقه فى الحكم عليهم والتقاضى بينهم • ولقد أذعن كل الأقنان ، بدون استثناء ، لذلك ، بينما لم يتبع الأجراء الآخرون الا فى النادر التقاضى أمام المحاكم العامة فى حالة الجرائم والجنح • وقد تنوع اختصاص السلطان القضائى الاقطاعى فى الأقطار المختلفة تبعا لمدى الجور الاقطاعى على سؤدد الملك • ولقد بلغ ذروته فى فرنسا ووصل الى أدنى مستواه فى انجلترا • ولكن أينما كان فانه شمل على الأقل كل المسائل التى تخص الأجراء ، والعمال المسخرين ، والمكوس ، وزراعة التربة • وقد كان لكل صاحب جفلك بلاطه ، المكون من الفلاحين ، الذين يشرف عليهم بواسطة حاجب أو villicus وكان يقضى بينهم وفقا ل « عادة الجفلك » ، بمعنى القول ، بالطريقة التقليدية التى مع المراحل الطويلة أعلن السكان التابعون للسيد الاقطاعى ، أنهم اعتادوا عليها وتقبلوها •

وكما كون كل صاحب جفلك وحدة قضائية ، كذلك كون وحدة دينية • ولقد ابتنى اللوردات بالقرب من مقرهم الرئيسى بيعة أو كنيسة ، وأوقف عليها الأرض ، التى حدد مساحتها بنفسه • وكان ذلك أصل عدد كبير من الأبرشيات الريفية ، لدرجة أن التنظيم الكنسى قد حفظ لمدة طويلة حدود « المدن » الرومانية ، وقد ظلت هذه الأبرشيات باقية حتى اليوم خارج نطاق الأراضى الواسعة التى كانت موقوفة عليها فى العصور الوسطى •

---

(١) وكان يطلق عليهن فى Hainault والمناطق المجاورة اسم : Sainteurs : (القديسات ، الطاهرات) •

وهكذا ، فان نظام الجفالك لم يكن تنظيما اقتصاديا فحسب بل كان أيضا تنظيما اجتماعيا • ولقد فرض نفسه على كل حياة سكانها • فلقد كان فلاحو الجفالك عاملا طيبا فعالا أكثر من كونهم مجرد أجراء لسيدهم ، لقد كانوا رجاله بكل ما فى الكلمة من معنى ، ومن الملاحظ تماما أن السلطة الاقطاعية ظلت لفترة طويلة تشتمل على خاصيات رياسة الجماعات التى غادت بالنعمة على أصحابها أكثر من كونهم ملاكا للأرض • ولقد كان نظام الجفالك فى جوهره نظاما بطريركيا • وتشهد اللغة نفسها على ذلك • وهل هنالك من معنى للسينيور senior (seigneur) غير أنه الأكبر ، الذى تمتد سلطته على العائلة (familia) التى يقوم بحمايتها ؟ دون أدنى شك هو يقوم بحمايتهم • ففى وقت الحرب هو يدافع عنهم ضد العدو ويأويهم داخل أسوار قلعته ، ومن الواضح أنه يفعل ذلك لفائدته هو ، طالما هو يتعيش على عملهم • وربما تكون الفكرة التى اعتدنا أن نكونها بصدد الاستغلال الاقطاعى فكرة قليلة مجملة • ويتضمن استغلال الانسان الرغبة فى استغلاله كأداة للحصول على أقصى انتاج • وان الاسترقاق الذى تمثل فى زنوج أفريقية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أو فى ظروف العمال فى الانقلاب الصناعى الكبير فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يقدمان لنا أمثلة مشابهة للاسترقاق الريفى فى العالم القديم • لكن كل ذلك كان مخالفا تماما لما كان عليه الاسترقاق فى جفالك العصور الوسطى ، حيث حددت كل الأعراف الراسخة كل حقوق الانسان والالتزامات التى عليه • هذه الحقيقة وحدها كافية أن تمنع الخدمة التى لا ترحم التى يقيمها النشاط الحر للتفوق الاقتصادى من أجل تحقيق الربح • زيادة على ذلك ، فان كل الأفكار عن الربح ، ومنها بالطبع امكانية الربح ، كانت متناقضة مع الوضع الذى احتله ملاك العصور الوسطى الكبار • وحين يكون المالك الاقطاعى غير قادر على أن ينتج ما يبيعه لحاجة السوق ، فهو ليس فى حاجة فى أن يقدح ذهنه من أجل أن ينتزع من رجاله وأرضه فائضا من الممكن أن يكون عبئا عليهم ليس الا ، وكما هو مضطر بأن يستهلك انتاجه ويتخلص منه فهو أيضا قانع فى أن يعين الفائض منه لوقت الحاجة والضرورة • ولقد ضمنت موارد دخله بواسطة العمل التقليدى للتنظيم الذى لم يحاول أن يعمل على تحسينه • وقبل منتصف القرن الثانى عشر ، فان الجزء الأكبر من التربة التابعة له قد قطع الرجاء منها وصارت تغطيه الأعشاب والغابات والأحراش • واننا بأقل مجهود ندرك دورة النظام القديم الزراعية ونعرف المحاصيل الزراعية التى كان يزرعها ملاك الأرض أو دورهم فى تحسين الأدوات الزراعية • ومع تقديرنا لكفاءتهم المحتملة ، فان الأرض الزراعية الرئيسية التى كانت تحت أمر الكنيسة والنبلاء لا تورد الى الذهن أكثر من عائد طفيف •

وسوف يكون من المهم ، رغم أنه مستحيل ، أن نكتشف قدر المال الذى ادخره الفلاحون من عملهم فى هذه الجفالك التى لا يزرعها مستأجروها من أجل الربح ، بعد العمل لعام كامل لمدة من يوم الى ثلاثة أيام فى الأسبوع على عقار السيد وبعد دفع الضرائب الاعتيادية بشكل أرهق أرضهم • ولابد أن يكون هذا المال قليلا اذا كان هنالك مال أصلا • لكن هذا القليل كان كافيا للرجال الذين كان هدفهم الوحيد ، مثلما كان الحال لسيدهم ، انتاج ما يكفى احتياجاتهم • وبعيدا عن كل الخوف من الطرد أو الابعاد ، طالما أن أرضه موروثة ، تمتع ساكن المدينة (Vilain) بميزة الأمن ، ولكن على الجانب الآخر لم يعطه النظام العقارى لا الفرصة أو الرغبة فى الاستغلال الشخصى • فلقد كان نظام الوقف ، يحتاج ، بالطبع ، العمل الجماعى • ولقد كان ذلك نفس الحال بالنسبة للأسلوبين الكبيرين للزراعة ، واللذين يرجع أصلهما ، دون شك ، الى عصور ما قبل التاريخ ، وهما المساحات الطويلة أو الحقول غير المنتظمة • فى كليهما فان الدورة الزراعية ، سواء استخدم فيها نظام الحقلين أو الثلاثة حقول (بمعنى القول ، سواء زرع نصفها أو ثلثها كل عام) ، فانه يلزم زراعة متضامنة عليها جميعها • ولقد حرثت قطع نفس الربع أو الحى (gewann) سويا وبذرت كذلك وسلمت على المشاع بعد الحصاد • وحقيقة امتزاجهم سويا تعنى أنهم يظلون منفتحين على بعضهم البعض حتى تنضج الحبوب وتجمع داخل سور مؤقت • وبعد الحصاد لا تفقد الجماعة حقوقها • وتجمع كل الحيوانات فى القرية داخل حظيرة واحدة للتعقيم ، وترعى على بقايا الزرع بعد حصاد الحقول وجمع محصولها وازالة الحواجز • فى مثل هذه الحال ، يعتمد نشاط كل مقاطعة على مهارة جميع أفرادها ، وطالما استمر الوضع على ذلك تصبح المساواة الاقتصادية هى القاعدة العامة بين الفلاحين المزارعين • وفى حالة المرض أو السقم ، يهرع الجيران للانقاذ • وبالتأكيد ، فانه لم يعد للانقاذ ، الذى أصبح مؤخرا طابعا فى الفلاحين ، فرصة لاظهار نفسه • واذا ما كانت أسرة كبيرة فى عدد أفرادها ، يدخل أبناؤها الصغار جماعة الفلاحين (Cotarii) ، أو يزيدون فى أعداد المتشردين الذين يتكدسون داخل الريف •

ثانية ، فان حقوق السيد تقيد نشاط الأفراد ، بدرجات متفاوتة ، حسب أشخاصهم • ولا يستطيع الأقنان المزعومون ، الى حد بعيد ، الزواج دون دفع ضريبة ، وليس للعبد أن يتزوج من امرأة خارج ممتلكات سيده دون اذنه • وعند موت العبد يتسلم السيد كل ميراثه ويؤول اليه (Corimedis, mort-main, heroit) ولقد أثقل عناء الخدمة والأعباء كاهل المستأجرين ، أو بمعنى أصح ، كل الأجراء ، ومع الوقت تحولت هذه الأعباء من تكاليف استثنائية الى تكاليف حقيقية • فى هذه العلاقة يصبح

هنالك فصائل مختلفة واضحة بصدد الأجراء (mansi) فبعضهم كان من الصرحاء (ingenuiles) ، وبعضهم كان من الأذلاء (serviles) والبعض الآخر كان بلا فرش أو غطاء (حذرا) (li diles) ، واختلفت التزاماتهم تبعا اذا ما كانوا أصلا قد وقعوا فى العبودية بواسطة « رهن الأبدان » عبودية كاملة ، أو نصف عبودية أو كانوا أحرارا • وكانت الضريبة التى يحتاجها السيد من رجاله وقت الحاجة ، بالطبع ، أكثر الأعباء حملا على عاتقهم • ولقد أخضعتهم لجباية لم تكن تطوعية ولكنها كانت تعسفية ، وكانت فى ذلك مكافئة لأكبر ألوان التعسف • هذا بخلاف « الالتزامات » التى تجبر الفلاحين أن يطحنوا غلالهم فى طاحونة السيد ، وأن يصنعوا جعتهم فى مصنعه ، أو يعصروا عنبهم فى معصرته • ولقد كانت الضرائب التى تدفع لكل هذا ، على الأقل ، ثمنا للانتفاع من الزرع الذى يتولى اللورد النفقة عليه •

وعلى الاجمال ، فيجب أن يلاحظ أن اللورد لم يكن يتكسب من كل الاتاوات المحصلة من أرضه الزراعية • ولقد كان يحدث فى أكثر الأحيان أن تثقل أراضيه بأحكام قضائية ، وهى أحكام ليست ناشئة عن الخاصة ولكن عن المملكة • وقد يعود ذلك الى نظام الغربية الرومانية العامة على الأرض • ولقد كانت هذه الأحكام فى بعض الأحيان لمصلحة كثير من الملاك وفى بعض الأحيـان الأخرى كانت فى مصلحة أمير المقاطعـة أو مصلحة شـخص سـواه مفوض الى هـذا • وبرغم الاختلاف البين بين العشر والضريبة ، فلقد نظـم العشر باحكام بينما تزايدت المكوس كثـيرا على الأرض • نظريا ، فهى تجمع بواسطة الكنيسة ، ولكن فى الواقع ، استحوذ عليها كثير من اللوردات • على أية حال ، فان أصل كل هـذه المكوس تعنى القليل للفلاح ، كيفما كانت طبيعتها ، طالما تراكم عليه كل ما يماثلها •

٢ ـ التغييرات فى الزراعة منذ بداية القرن الثانى عشر (١) :

منذ منتصف القرن العاشر تخلص سكان غرب أوربا أخيرا من غزو المسلمين والنورمان والمجريين ، وبدأت منذ ذلك الوقت فصاعدا حركة خاصة ليس لدينا تفاصيلها المضبوطة ، لكن نتائجها تظهر بوضوح فى

---

(١) انظر سابقا ، ص ٥٨ ، رقم ١ اضافة الى : Bibliography.
Ed. Bovalot. Le tiers-état d'après la charte de Beaumont et ses fililes, Paris 1884 . — M. Prou, Les coutumned de Lorris et leur propagation au XIIe et au XIIIe siècle, in the Nouv. Rev. du droit français, t. VIII, 1884.

القرن التالى • ومن الواضح أن تنظيم أرض الجفالك لم يتناسب مع زيادة عدد المواليد عن عدد الموتى ، ولقد أجبر تزايد عدد السكان على ترك الأرض المستأجرة الموروثة من جهة الأب ، والبحث عن وسائل حديثة للمعاش • على الخصوص فان صغار النبلاء الذين ورثوا الاقطاعات عن أجدادهم ، قد ناءوا بحمل كثير من الأبناء الصغار • وكان قد جند من بين هؤلاء المقاتلين النورمان الذين فتحوا جنوب ايطاليا وتبعوا الدوق وليام الى انجلترا الجنود الذين كونوا غالبية مقاتلى الحملة الصليبية الأولى • ولم يكن من الممكن الضغط والحد من الهجرة من الريف الى المدن الناشئة وقيام طبقة التجار والصناع الجدد التى قامت بالفعل دون زيادة ملحوظة فى عدد السكان •

ولم تلفت هذه الزيادة الأنظار فى بداية القرن الثانى عشر ، الا أنها استمرت دون انقطاع حتى نهاية القرن الثالث عشر • وينتج عن هذه الزيادة مظهران مهمان وهما : من جانب ، كثافة سكانية فى مناطق الاقامة القديمة ، ومن الجانب الآخر ، قيام مستعمرات للمهاجرين الجرمان من أقطار السلاف على الضفة اليمنى لنهرى الالب والسال • وأخيرا ، فان التزايد السكانى والتوسع السكانى كان مصحوبا بتغيير عميق فى ظروفه الاقتصادية وأوضاعه القانونية • وبسرعة زائدة أو متمهلة فى الأقطار المختلفة ، بدأت عملية تطور ، وبرغم اختلاف تفاصيلها ، فقد أظهرت نفس الاتجاه العام داخل الغرب •

ولقد سبق أن رأينا أن فكرة الربح كانت غريبة تماما للتنظيم العملى للمقاطعة الكبرى • وأنها وظفت فقط لاحتياجات اللورد وشعبه • وانطلاقا من الأعراف التى أقرت حقوق الانسان وواجبه فان ذلك لم يعد متوائما مع الظروف الجديدة • وأصلا نرى الآن ملاكا كبارا للأراضى يأخذون الخطوة الأولى ليوائموا بين ما كانوا عليه وبين التغيرات الجديدة

=

— L. Vanderkindere. La loi de Prisches, in Mélanges P. Fredericq, Brussels, 1904. M. Bateson, The Laws of Breteuil, in English Hist. Review, Vol. XV 1900. — F. Goblet d'Alviella. Histoire des bois et forêts en Belgique, t. I, Brussels, 1927. A. Cchwappach, Grundriss des Fort-und Jagdwesens Deutschlands. Berlin, 1892. — E. de Borchgrave, Histoire des colonies belges qui s'établirent en Allemagne pendant le XIIe et le XIIIe siècle, Brussel, 1865 (Mém. Acd. de Belgique). — R. Schroeder. Die Niederlandischen Kolonien im Norddeutschland zur Zeit des Mittelaters. Berlin, 1880. — E. O. Schulze. Nieder-landische Siedelungen in den Marschen an der unteren Weser und Elbe im XII und XIII Johrundert, Hanover, 1889.

الحادثة حولهم · ولقد كانوا قلقين بشأن هذا التغير وسمحوا لأنفسهم، دون البحث عن الربح، بالتطلع الى النتائج التى ستعود عليهم والربح الذى سوف يجنونه من رأس المال الهائل من الأرض التى تحت تصرفهم · ومن الواضح أنهم لم يكونوا هم الذين بدءوا التغييرات لكن اجراءهم هم الذين بدءوه في النصف الأول من القرن الثاني عشر فى الأقطار المتقدمة، ولقد تسبب ذلك التغيير في اضمحلال نظام الزراعة القديم فى الأرياف (نظام الجفالك) · ولقد كان ذلك حقيقة فقط فى المقاطعات القديمة للأرستقراطية العلمانية وللأديرة البندكتية، التى تأسست وفقا للمبادىء التى كانت قد عمت خلال الحقبة الكارولنجية · وعلى الجانب الآخر، فان بيع الرهبان البندكتيين التى أسست فى القرن الحادي عشر، أى، فى الوقت، الذى بدأت فى الظهور فيه أول أعراض التوازن التقليدى · قد أظهرت شكلا جديدا تماما للادارة الاقتصادية · وطالما أن كل الأراضى الزراعية كانت من قبل مشغولة (محتلة) وقت ظهورها، وهى فى الغالب دائما ما أسست نفسها فى أراض وأقطار برية وغير زراعية، وسط الغابات والمروج والأحراش · فان المحسنين منحوهم منحا كبيرة من فائض عقاراتهم وقد كان الرهبان قادرين على العمل بأيديهم وفقا لرسم قانونهم ·

خلافا لذلك، فان الأديرة البنديكتية، التى كانت فى معظمها مثقلة بالأراضى الموقوفة المزروعة بالفعل، لجأت منذ البداية الى العمل فى اصلاح الأرض · وفى هذا المجال، قام بمساعدتهم الاخوة العلمانيون (conversi) الذين ائتمنوهم على استغلال مزارع شاسعة أو ضيعات كانت بمثابة ابتكارات اقتصادهم الزراعى · وقد اكتنفت هذه الأراضى مساحات معقولة تراوحت كل قطعة منها ما بين ٥٠٠ الى ٧٠٠ فدان، وبدلا من أن تقسم هذه المزارع بين المستأجرين، زرعت تحت اشراف الدير (grangiarius) بواسطة الكونفيرسى (conversi)، أو بواسطة رجال من الخارج وظفوا كعمال زراعيين ·

ولم تكن عبودية الأرض، التى كانت حتى ذلك الوقت الحالة الطبيعية العادية للفلاحين، فى الأغلب موجودة على أرض الكنيسة البنديكتية، كذلك لم نقابل هنالك الهيمنة التعسفية وغير القانونية الموجودة فى النظام القروى الوراثى · وليس هنالك شىء مخالف فى أرض الكنيسة البنديكتية عن الأراضى المملوكة لعقارات أرض الجفالك القديمة سوى هذه المزارع البنديكتية الجميلة، بنظامها وادارتها المركزية، وصورتها المحكمة، واستغلالها المعقول· وهكذا فان « الأراضى الجديدة » التى خططت الأديرة

لنزواعتها قد استحضرت معها نوعا جديدا من التنظيم الاقتصادى · وهنا نجد نظاما ذكيا يكشف كيف تربح جيدا بواسطة الزيادة السكانية · ولقد التجأ هذا النظام الى الفائض من العمال الذين لم يكن لديهم عمل فى ظل التقسيم القديم للأرض · ومن المؤكد أن من بينهم قد جند اخوتهم العلمانيون ، الذين تزايدت أعدادهم مع النصف الثانى للقرن الثالث عشر · ولقد كان لدى بيعة الدونيس (the Dunes) ٣٦ منهم سنة ١١٥٠ وبعد مائة عام من ذلك التاريخ أصبح عندهم ١٢٤٨ منهم · وجنبا الى جنب معهم ، نما العمال الأحرار المزودون بالضيوف (hôtes) بدرجة مماثلة (١)

ويعنى لفظ hôtes (حرفيا « ضيوف ») ، وهو يظهر مرارا وتكرارا منذ بداية القرن الثانى عشر ، ويشكل خاصية للحركة التى كانت تجرى آنذاك فى المجتمع الريفى · وكما يشير الاسم ، فان الضيف هو شخص وافد ، غريب · ولقد كان ، باختصار ، نوعا من المستعمر ، المهاجر الباحث عن أرض جديدة يزرعها · هؤلاء المستعمرون كانوا ، دون شك ، قد انسحبوا اما من السكان المتشردين الذين تكون منهم فى نفس الفترة جماعة تجار المدن الأول وحرفيوها ، أو من بين سكان المقاطعات الكبيرة الذين أزاحوا عن أعناقهم أغلال العبودية للأرض · ولقد كانت الحرية هى المنزلة القانونية للضيف · وللحقيقة ، برغم أنه فى الغالب قد ولد من أبوين غير أحرار ، الا أنه سرعان ما باعد نفسه عن المقاطعة التى ولد فيها ، وأفلت من تبعيته للسيد الاقطاعى ، الذى كان هو الوحيد الذى يستطيع أن يتكلم عن أصله · ولم يكن بعد ذلك لأى أحد هيمنة على شخصه ، وصار تبعا لذلك سيدا على نفسه مالكا لحريته · وكانت لهؤلاء الضيوف وأمامهم أراض خالية لا وارث لها كثيرة · ولقد كانت هنالك غابات وأحراش « قفراء » ومستنقعات ظلت خارج نطاق الملكية الخاصة ، وكانت من الوجهة الشرعية تبعا لسلطة أمراء المقاطعات وحدهم · وكان كل ما يحتاجه الضيف للاستقرار فى هذه الأنحاء هو اذن ميسر ، ولماذا يرفض هذا الطلب ، طالما أن القادمين الجدد لا يقومون بأى تعد على الحقوق الثابتة ؟ · وسار كل شىء ليبين أنهم فى حالات كثيرة قد بدءوا أولى خطواتهم فى اصلاح وصرف الأرض ، مثل المستعمرين فى الأقطار الجديدة · ومنذ بداية القرن الثانى عشر ، على سبيل المثال ، ثبت المهاجرون الأحرار أنفسهم فى مساحات شاسعة من « غابة ثيو » « forest of Theux » التى كانت

---

(١) عن تنظيم المقاطعات البنديكتية انظر ، على سبيل المثال :
Le polyptyque de l'abbaye de Villers (mid 13th century), edited by E. de Moreau and J.B. Goetsouwers, in the Annalectes pour servir à l'histoire ecclésia stique tt. xxxIII and xxxIII (1906-7), and E. de Moreau. L'abbaye de Villers en brabnat, Brussels, 1909.

فى حوزة الأمير أسقف لييج ، دون اذن منه ودون طلبه • وكانوا أول من انتشر فى هذه الأحراش ، وكانت اقامتهم هناك بمثابة أول عمل للرواد الأحرار الذين لم يقع عليهم ، منذ ذلك الوقت وحتى نهاية نظام استرقاق الأرض القديم ، أى عبودية أو استرقاق •

ولقد كان واضحا ، بالطبع ، أن أسلوب العمل البدائى فى هذه الأراضى لم يستمر طويلا • فان الملاك الجدد لكل الأراضى البكر ، خارج أرض الاقطاع ، سرعان ما استفادوا من الزيادة النامية للعمال اليدويين • وسرعان ما فرضت فكرة جذب (الضيوف) وتوطينهم هناك نفسها ، مقابل دفع ايجار لهم • ولقد استخدمت نفس طرق التوطين واعمار الأرض التى غالبا ما نراها متبعة فى الغرب الأقصى لأمريكا فى القرن التاسع عشر • حتى فكرة ربط هذه المقاطعات ببعضها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر قد تشابهت بكل تفاصيلها مع فكرة ربط الملتزمين الأمريكيين ولاياتهم ببعضها بواسطة خط حديدى • ولقد فكر الجانبان كلاهما فى كيفية جذب المهاجرين بعرضهم عليهم أكثر المواد المنتجة والظروف الموائمة ، وكلاهما التجأ الى الاعلان والدعاية لاغرائه • ولقد أذيع عقد انشاء المدن الجديدة التى سوف تنشأ عبر الأقطار ، تماما مثلما يحدث فى أيامنا هذه حين تتولى الصحافة والاعلام نشر أهم الاعلانات المتوهجة عن موارد الثروة المستقبلية ومزايا المدينة التى بصدد الانشاء • ولم يكن اسم « المدينة الجديدة » أقل فى الدلالة على المعنى من اسم (hôtes) الذى خصص لها • فالاسم الجديد يشير صراحة وبوضوح أنه عنى به القادمين الجدد ، والأغراب ، والمهاجرين ، أى المستعمرين • فى هذه الحالة يبرز لنا التناقض الكبير المحتمل للمدينة الجديدة عن مقاطعة الاقطاعى الواسعة ، والحقيقة التى ظلت ملحوظة هى أن مؤسس المدينة الجديدة كان دائما فى الغالب هو السيد الاقطاعى (اللورد) مالك أرض اقطاعية أو عديد من الأراضى (الجفالك) • ورغم أنه كان ملما بالتنظيم الاقطاعى للأرض الا أنه أمسك بحرص عن تقليده فى المدن الجديدة ، والسبب الواضح لذلك أنه اعتبر هذا التنظيم غير مناسب لرغبات وحاجات الناس الذين يعمل على جذبهم • وأصلا لا نلحظ هنا أية صلة بين نظام الأراضى الاقطاعى والمدن الجديدة ، وليس هناك مكان لالصاق الأخيرة بمنوال الأولى أو اخضاع الاثنين للنظام السكنى الموحد • فلقد كان كل منهما مستقلا عن الآخر كما لو كانا عالمين مختلفين متغايرين •

ومن وجهة النظر العقارية ، فان الخاصية الرئيسية للمدن الجديدة هى العمل الحر • وان عقودها ، الكثيرة منذ بداية القرن الثانى عشر الى نهاية القرن الثالث عشر ، تترك فى كل مكان نفس الانطباع • ولم تعرف

عبودية الأرض فيها على الاطلاق • وزيادة على ذلك ، حتى الأقنان الذين يأتون من الخارج يصيرون أحرارا فيها بعد الاقامة فيها لمدة عام ويوم ، برغم ما كان يحدث في بعض الأحيان أن يستثنى اللورد من ذلك الحكم عبيد أرضه الخاصين ، خشية أن يخلى هؤلاء الأقنان أرضه لفائدة المدينة الجديدة • ولقد كان نفس الحال مع العمال الأجراء • ومع ذلك ، استخدم هؤلاء العمال لزراعة ناحية اللورد ، وهنا في المدن لا توجد نواح • ولقد غطت كل الأرض بالفلاحين الأجراء وقد كرس كل فلاح كل عمله لأرضه الخاصة • وفى الغالب ، تفرض واجبات عمالية قليلة هنا وهنـــاك على السكان ، مثل ، على سبيل المثال ، الالتزام الذى وجد فى عهد لوزيس (١١٥٥ م) بنقل نبيذ الملك مرة كل عام الى أورليان • أما عن حقوق النظام الاقطاعى القديم الخاصة بالوقف ، والميراث ، والزواج فمن الطبيعى أنه لم تعد هنالك تساؤلات حولها • ولقد ظلت الضريبة التى تدفع للسيد الاقطاعى باقية كذلك الخدمة العسكرية الاجبارية ، لكنها أخذت على كونها تكاليف عامة ، وفضلا عن ذلك فلقد حددت ونظمت • كذلك لم تختف التزامات معاصر العنب والمطاحن ، لكنهما لم يكونا حقوقا تقلل من مكانة الشخص ، ولم يعد وجودهما يعنى الاستغلال ، طالما أن النبات الذى يكتنفهـا لازما وضروريا وليس أحـد سوى السيد الاقطاعى يستطيع أن يشـــيدها •

وهنا من المهم أن نلاحظ أن الفلاحين اذا كانوا فى المدن الجـديدة يختلفون عن الفلاحين فى الجفالك الاقطاعية ، الا أن هنالك نقاطا عديدة للتشابه مع البرجوازيين • وان العهود التى يحكم بها كلاهما متأثرة مباشرة بالقانون المدنى ، لدرجة أن سكان المدن الجديدة كانوا يوصفون مرارا على أنهم برجوازيون • وعلى غرار البرجوازيين ، فانهم ، بالطبع ، تسلموا ادارة حكم ذاتى مستقل متماشيا مع احتياجاتهم • ولقد كان رئيس المدينة (العمدة) الذى يرأسهم لا يشبه بأى حال من الأحوال رئيس الجفلك الاقطاعى (villici) ، فلقد كانت عهوده حامية لمصالح القرية ، وفى الغالب ينتخب بواسطة الفلاحين ، مثلما جاءت عهود بومونت Beaumont المثالية فى أرجون سنة ١١٨٢ • وبالمثل ، وتقليدا للمدن ، فكل مدينة جديدة لها مجلسها الخاص لينفذ القانون والتشريع ويطبق العدالة بين سـكانها • وهكذا فان الطبقة الريفية الجديدة استفادت من تقـدم البرجوازيين السابق • وبعيدا عن المدن التى نشأت عن القرى ، فانه من المعتقد أن القرى المحررة التى حظت بقانون بلدى ، قد جاء هذا القانون مناسبا لهم • وانها لحقيقة غريبة ظلت لفترة طويلة ، أن المدن الكبرى ، وليست المدن الثانوية شبه الريفية ، هى التى انتشرت قوانينها على كل

البلاد • ففى البربانت Brabant ، على سبيل المثال ، أصدر الأدواق العهود التى منحت سنة ١١٦٠ لبيزى Baisy ، وفى سنة ١٢١٦ لدونجلبرج Dongelberg ، وفى ١٢٢٢ لوافر Wavre ، وفى ١٢٢٨ لكوريير Courrières ، وفى ١٢٥١ لميرشتيم Merchtem فوق تلك التى منحت للوفان Louvain • ولقد أثبتت عهود قليلة للمدن الجديدة تطبيقا رائعا عند التنفيذ وانتشرت طولا وعرضا • وعهد لوريس ، فى بداية سنة ١١٥٥ ، فقد شمل ثلاثة وثمانين مكانا فى جاتينيس Gatinais وأورليانز ، وعهد بومونت Beaumont ، فى بداية ١١٨٢ ، فقد شمل خمسمائة قرية وقلعة فى شمبانيا وبرجاندى ولكسمبرج • وعهد بريشيس Priches (١١٥٨) على عدد من المدن الجديدة فى هينولت Hainault وفيرماندوا Vermandois • وبنفس الطريقة تناثرت باتساع قوانين بريتييل Breteuil فى نورمانديا خلال القرن الثانى عشر ، وفى انجلترا ، وويلز ، وحتى فى أيرلندة •

ومع ذلك يجب ألا نغالى فى التشابه بين الطرفين وأن يأخذنا بعيدا ، كذلك يجب أن نحذر المبالغة فى التشابه بين الفلاحين فى المدن الجديدة والبورجوازيين سكان المدن خاصة • فلقد كانت الحرية الشخصية للفلاحين لا تزال محدودة بالحقوق التى احتفظ بها السيد الاقطاعى محترمة فى أرض القرية • ولقد تمتع الضيف (the hôte) ، حقيقة ، باستخدام الحق الوراثى فى الأرض مقابل ايجار (cens) ، لكن الملكية الفعلية استمرت كامنة فى السيد الاقطاعى وكل الموضوعات والأمور المتصلة بحق الملكية كانت تحت حكم القضاء الاقطاعى • ويمكن أن يقال بصدق ان زراعة الفلاحين فى المدن الجديدة ذهبت متماسكة مع العقارات الكبرى • وقد كونت الأخيرة القوام القانونى لكل بناء ، برغم أنها لم تراع أبدا ظروف الرجال ، وأنها استمرت فى مراعاة ظروف الأرض • وبدون شك ، مع مرور الوقت ، أصبحت ملكية الفلاح لأرضه المستأجرة قوية للغاية وبدأت فى الغالب على ضوء حق الملكية ، لا يثقلها الا الأجرة الاسمية للسيد الاقطاعى • ومع ذلك فان ملكية الفلاح لم تطرح تماما الروابط والتعهدات التى قيدت بها حتى نهاية العهد القديم •

لقد كانت المدن الجديدة وحدها أحد مظاهر العمل الكبير لاصلاح الأرض الذى غير شكل أرض أوربا منذ نهاية القرن الحادى عشر فصاعدا • فضلا عن ذلك ، فانا نجد ذلك بالشكل الذى وصفناه ليس فى أى مكان عدا فى شمال فرنسا ما بين اللوار والميز • ومن الممكن أن يقارن جنوب

اللوار بمنطقة الثغور (bastides) ، التى تتماثل مع بداية نشوء الأمراء أو كبار رجال الاقطاع • وفى أسبانيا ، فان الرباط فى الأقاليم التى إستعادها المسيحيون من المسلمين يقدم لنا شكلا مختلفا من أشكال المستعمرات الحربية فى أوربا • أما بالنسبة لايطاليا ، فانه يبدو من المحتمل أن تطور الزراعة فيها قد أنجز أساسا بمزية زيادة العدد السكانية فى المناطق الزراعية القديمة ، التى يرجع تاريخها الى العصور القديمة التى تملك فيها الناس الأرض هناك عند نهاية الغزوات الاسلامية وحروب القرن العاشر الأهلية • ولكن برغم الاختلاف فى التفاصيل ، فان المظاهر العامة كانت هى نفس المظاهر فى أى مكان • وفى كل المناطق التى احتلتها الامبراطورية الكارولنجية القديمة ، فان الكثافة السكانية أظهرت زيادة كبيرة فى العدد فى المراكز المسكونة ، ومن هذه المراكز اتخذ العمال الأحرار طريقهم بجد واجتهاد عبر القفار لتظفر بحقول جديدة •

وفى الأراضى المنخفضة تكفل السكان هناك فى وقت واحد بحرب ضد البحر وضد الأنهار • ولم يكن التكتل السكانى الواضح هنا للعيان ، بلا ريب ، السبب فى أول محاولات الصرف فى الأرض • ولقد عرفنا من المصادر أنه خلال القرن الحادى عشر بدأ اقليم الفلاندرز يجد صعوبة فى اطعام سكانه ، ومن المعروف ، أن عددا من الفلمنك كان قد جند ، بالفعل ، فى سنة ١٠٦٦ فى جيش وليم الفاتح ، وعندما انتهت الحملة بقوا فى انجلترا ، حيث تبعهم هناك فريق من أقوامهم خلال مائة عام • وبعد قليل زود هذا الاقليم الحملة الصليبية الأولى بأحد أقوى جيوشه ، ومنه للمرة الثانية جند الأمراء المجاورون أولئك المرتزقة ، الذين لعبوا دورا عسكريا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تحت اسم geldungi أو Brabancons أو cotereaux يماثل الدور الذى لعبه السويسريون فى القرن السادس عشر (١) • أخيرا ، فان النمو السريع وغير العادى للمدن الفلمنكية فى نفس الفترة يدل بوضوح على تدفق خاص لسكان الريف الى داخل المراكز المدنية • وان الحاجة لايجاد وسائل جديدة للعيش قد أحدثت الطرق

---

(١) H. Pirenne, Histoire de Belgique, t. I, 5th ed., p. 156.
كانت الاقطار الرومانية شاملا الفلاندرز قد بدت مزدحمة بالسكان فى القرن الثانى عشر وقد ارسلت كثيرا من المهاجرين الى سليزيا كذلك الى المجر • ويبدو أن مدينة جران Gran تدين بوجودها لهم • وفى القرن الثانى عشر كانت هنالك أرض لاتينية يسكنها أساسا شعب من لوثارينيا Lotharingia وارتواس Artois •
K. SchKnemann, Die Entstehung des Stadtwesens in Sudosteuropa (Berlin, 1929).

المرتفعة عبر الأراضى السبخة • ولقد اتخذ أدواق الفلاندرز خطواتهم منذ وقت مبكر نحـــو ابقائها فى حالـــة جيدة • وبالطبع ، فان البرارى (meerschen, broeken) والتربة الغرينيـة التى كان يرجى الكسب منها كانت مرهونة بتحضـيرها وتجهيزها للزرع • وفى عهـد حـكم بلدوين الخامس (١٠٣٥ ـ ٦٧) كان التقدم الذى أحرز كافيا لأسقفية ريمز Archbishop of Rheims لتتقدم بالتهنئة للكونت على تحويل المناطق التى لم تكن قد استصلحت بعد الى أراض خصبة غنية بأسراب المرعى • ومنـذ ذلك الوقت ، تنـاثرت فى كل المنـاطق البحرية الزرائب والحظائر (vaccariae, bercariae) ، وعند نهاية القرن ، أصبح دخلهم كبيرا وسبب عائدا فائضا سجله موثقو العقود المتخصصون •

وهذا يكفى ليظهر لنا أن الكونتات لم يدخلوا تنظيمـات الأرض الاقطاعية الى « الأراضى الجديدة » فى الفلاندرز البحرية • وقد منحت الأراضى المطلوب صرفها أو حجزها ، مثل أرض المدن الجديدة الداخلية ، للضيوف (hôtes) الذين جاءوا ليستقروا هنالك • وهنالك كانت منزلتهم ثانية ، مثلما كانت فى المدن الجديدة ، أنهم أحرار ، غير مقيدين الا بدفع الايجار نقدا أو ما شابه ذلك • لكن الظروف الخاصة التى خلقها الصراع مع البحر تطلبت من هؤلاء الرجال درجة أوثق للغاية من التعاون أكثر من تلك التى بين المزارعين فى الداخل • وبرغم أن جمعيات مكافحة المياه (Wateringues) وما شاكلها ، قد شكلت مجموعات اجبـارية لضبط تدفق المياه ولابقاء الحواجز فى نفس المناطق البحرية ، ولم يظهر ذلك فى النصوص القديمة ، الا أنه ليس هنالك شك فى أنها قامت بذلك منذ البداية • وفى القرن الثانى عشر نقابل على التو على كل جانب ، عند مصب نهر الشـيلد وعلى ساحل بحر الشـمال ، كلمـة (أراض منخفضة مستصلحة من البحر) polders ، وهى كلمة بواسطتها دل على الأرض الغرينية ، المحجوزة والمستصلحة من البحر • وفى تلك الفترة قلدت الأديرة نموذج الكونت وبدأت بجـد واجتهاد فى كسح الميـاه من مناطق المستنقعات فى مقاطعاتهم • وقد أخذت الكنائس البنديكتية الزيادة من بينهم • ففى مقاطعة الهولست Hulst وحدها ، فى منتصف القرن الثالث عشر ، امتلك دير دونز Dunes ٥٠٠٠ مساحة من الأرض المحجوزة و٢٤٠٠ من الأرض غير المحجوزة (حوالى ٥٥٠٠ و٢٧٥٠ فدانا تقريبـــا) •

فى شـــمال الفلاندرز ، أثبت دوق زيلاند ودوق هولنـــدة نفس النشاط • ولتوثيق ذلك ليست لدينا أية تفاصيل ، لكن النتائج التى

حصلت عليها والشهرة التى اكتسبتها لا تترك مجالا للشك فى نجاحهم • ولقد كانت سمعة أهالى الأراضى المنخفضة عالية للغاية بكونهم منشئين للجسور ، وقد دعا ذلك الأمراء الألمان الى دعوتهم فى بداية القرن الثانى عشر لصرف ضفاف نهر الألب السفلى ، التى نفـذت الى مدن براندنبرج ومكلنبرج حيث لاتزال الأرض هنالك تحتفظ بآثار أعمالهم • ومن الطبيعى أن يكون الأمراء الذين أرسلوا فى طلبهم قد تركوهم على حريتهم ومنحوهم أرضا هنالك وفق شروط مشابهة لتلك الشروط المعتـادة فى بلادهم • ولقد عرف القـانون الذى جلب معهم باسـم « القـانون الفلمنكى » flamisches Recht ، وأظهر فى ألمانيا طبقة المزارعين الأحرار ، الذين كانوا كذلك ممثلين نشطاء • ومنذ ذلك الوقت أصبحت منحة القانون الفلمنكي معادلة للالزام عند سكان الريف • وتخللت المستعمرات الفلمنكية بنفس الطريقة مناطق ثورنجيا Thuringia ، وسـكسونيا ، ولوسـيتز Lausitz وحتى بوهيميا • وهكذا من الممكن أن يعتبر ذلك بشائر التوسع الاستعمارى الكبير الذى خططت له ألمانيا فى أقاليم الضفة اليمنى لنهرى الالب والسال • ولقد كان الاستقرار هنا تابعا فقط ونتيجة للغزو • ولقد قام أدواق سكسونيا ونبلاء براندنبرج الألمان العسكريون ، بعد هزيمتهم للشعوب السلافية وطردهم من هذه المناطق ، بفتحها للاستعمار الألمانى • فضـلا عن ذلك ، فانه من المؤكد أن هـذا الاستعمار لم يكن له أن يمضى قدما وباتساع وبمثل هذا النشاط ، اذا كانت أرض الوطن الأم غير مستوعبة فى ذلك الوقت لسكانها • ومن سكسونيا وثورنجيا ارتحـل المزارعون ليستقروا بين نهرى الالب والسال • وتبعهم بعد ذلك الوستفاليون وصبوا سويا فى مكلنبرج وبراندنبرج ولوستز • ومع نهاية القرن الثانى عشر استعمرت مكلنبرج تماما ، وأيضا براندنبرج فى القرن الثالث عشر • ولقد فرض على العناصر التيوتونية أن تمهد الطريق بقوة السلاح من سنة ١٢٣٠ لتقدم الألمان فى شرق بروسـيا ، وليفونيا Livonia ولتوانيا ولحملهم بعيدا حتى خليج فنلندة • كذلك كان البافاريون وأهل الراين Rhinelanders يتقدمون أيضا فى نفس الوقت فى بوهيميا ومورافيا وسيليزيا ، وفى أرض البترول بعيدا حتى حدود المجر ، عابرين عليها . أو مستقرين بها جنبا الى جنب مع السكان السلافيى الأصل لهذه الأقطـار •

ولقـد وجهت الحـركة بمهـارة فائقة ونشـاط زائد ، واختـار الأمراء للأراضى المفتوحة locatores نوابا اداريين يقومون ، نيابة عنهم ، بجذب الناس الى الأرض وتوزيعها بينهم • ولقد استخلصت الأديرة البنديكتية لنفسها أراضى من تلك التى استولى عليها من « المتبربرين » ، وفى الحال أقامت لها مزارع وضيعات عليها • ولقد كانت حالة السكان

أيضا هي نفس حالة أولئك الضيوف (hôtes) سكان المدن الجديدة • ومع ذلك ، فلقد أخذ هؤلاء المهاجرون في المستعمرات الألمانية ، ومعهم من سبقهم من الضيوف على هذه الأرض الغريبة ، مكان السلاف على تلك الأرض • ولقد تسلموها بحق الوراثة ومنحوا الحرية الشخصية ، التي كانت ضرورية ولازمة في كل أراضي المستعمرات • وهكذا فان ألمانيا الجديدة لم تختلف فقط عن ألمانيا القديمة في تقسيم أرضها ، ولكنها اختلفت عنها أيضا في مكانة سكانها ومنزلتهم •

ولم يكن التحول الكبير للطبقات الريفية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقط نتيجة نمو التزايد السكاني فحسب ، بل كان ، أيضا ، بمقياس أكبر نتيجة انتعاش التجارة ونمو المدن • ولقد وضع نظام الأرض الاقطاعي القديم في اطار عصر ألزم غياب الأسواق فيه ناتج الأرض أن يستهلك في موضع انتاجه ، وكان من الضروري أن يتغير الأمر وينتشر خارجها حين أمنت له الأسواق الدائمة بيعا منتظما • هذا هو الذي حدث منذ اللحظة التي بدأت فيها المدن نتاج الريف ، الذي كان ضروريا لسكانها • ومن الخطأ تماما أن نظهر التجمعات الريفية الأولى كمراكز شبه ريفية ، قادرة على أن تكفي مؤنة نفسها بنفسها • ومن البداية ، ظهر البرجوازيون كطبقة تجار وحرفيين وأبقت هذه السمة في كل مراكزها الكبرى • وهكذا كانت هذه الطبقة ، في لغة القرن الثامن عشر طبقة مادية عقيمة Physiocrates ، طالما كانت لا تنتج شيئا يخدم مباشرة الحفاظ على الحياة • وهي تعيش حياتها يوما بيوم ، وتأكل خبز يومها ، معتمدة على فلاحة جيرانها • وحتى ذلك الوقت كان الفلاحون قد فلحوا الأرض وحرثوها وخبأوا المحصول فقط لأنفسهم ولسادتهم الاقطاعيين ، والآن هم مضطرون ، ومضطرون تبعا للزيادة السكانية في المدن وأهمية نمو هذه المدن ، أن ينتجوا فائضا ، لاستهلاك البرجوازيين • وكان المحصول يأتي من أجرانه ويدخل بدوره في دائرة ، اما أن يحمل الى المدن المجاورة بواسطة الفلاح نفسه ، أو يباع في منطقة زراعته للتجار الذين تاجروا فيه (١) •

وبالضرورة فان سهولة تحريك الحاصلات الزراعية قد جلب معه تقدم الحركة النقدية في الريف ، ولم يتحقق هذا التقدم منذ البداية ، ذلك لأنه ليس هنالك ما هو مناقض للحقيقة أكثر من الاعتقاد ، الذي كان سببا للتأخر ، بمعنى أن القرون الأولى للعصور الوسطى وما تبعها من قرون

---

(١) لقد كان نفوذ المدن قويا على وجه الخصوص في ايطاليا ، حيث يقع الريف في قبضة قوميونات كبيرة • ومن اجل معرفة احداث تفاصيل هذه الظاهرة انظر :

A. Doren, Italienische Wirtschaftsgeschichte, t. I, p. 193 et seq.

حتى القرن الثامن ، كانت فترة تغير ، ليس في النقود فحسب ولكن أيضا في النوع ، وما كان قد عرف باسم الاقتصاد الطبيعي (Naturalwirtschaft) لم يبق على الاطلاق في شكله الخالص • وكانت هنالك دون شك ، التزامات الدفع للسيد الاقطاعي من عائلات (familia) المقاطعات الكبيرة التى كانت عادة ما تدفع من انتاج الأرض • ولا شيء يمكن فهمه أو يكون عمليا فى نظام يكون فيه الهدف الوحيد هو تحصيل الايجار لمؤنة مالك الأرض ، ولكن بمجرد أن صار المحصول موضوعا للمقايضة ، قدر سعره ودفع نقدا • ولقد كانت على الساحة آنذاك مسألة التجارة المتناوبة التى كانت ضرورية للنجدة فى أوقات المجاعة ، وليس هنالك أية اشارة بأن القمح الذى كان الناس فى أشد الحاجة له قد قويض عليه بدلا من أن يباع نقدا • زيادة على ذلك ، يكفينا أن نفتح مجموعة الشرائع الكارولنجية لنقتنع بالاستخدام المنتظم للنقود فى معظم المعاملات التجارية البسيطة الواقعة تحت تأثير الدينار deneratas في أسواق ذلك الوقت الصغيرة • حقا أن استخدام النقود كان محدودا ، ليس بسبب أنها لم تكن معروفة ، ولكن لأن البناء الاقتصادي لذلك العصر ، كان مناقضا للنشاط التجارى الحر ، مما أنقصها الى الحد الأدنى • لكن بمجرد أن أصبح هذا النشاط طبيعيا ومنتظما ثانية ، فان الدائرة المالية ، التى لم تختف أبدا ، تقدمت جنبا الى جنب مع التجارة • ولم تختف الاستحقاقات العينية ـ فهى لم تختف على الاطلاق فى أى عصر ، ولا حتى في عصرنا ـ ولكن فى الغالب عمل بها قليلا ، لأنها كانت أقل فائدة فى مجتمع تزايد فيه التعامل المالى • ولم يكن ما حدث استعاضة عن الاقتصاد النقدى (Geldwirtschaft) لاقتصاد طبيعى ، لكن الحقيقة ببساطة هى أن النقد حل محلها تدريجيا كمقياس للقيمة وأداة للصرف (١) •

والحقيقة المؤكدة هو أن التعامل العام قد زاد من حجم التعامل النقدى • ولقد أصبح رأس المال النقدى فى التداول بغير حدود كبيرا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أكثر مما كان عليه فى القرن الثامن وحتى نهاية العاشر ، ونتج عن ذلك ارتفاع فى الأسعار ، من الطبيعى ، تحول فى كل مكان الى فائدة للمنتجين • وبدأ ارتفاع الأسعار منذ ذلك الوقت يتماشى مع طريقة الحياة التى أصبحت مطالبها أكثر تكلفة • وفى كل اتجاه سلكته التجارة ، ولدت الرغبة عند أهلها فى اقتناء السلع الاستهلاكية الجديدة التى جلبتها معها • وكما كان يحدث دائما ، رغب الأرستقراطيون فى أن يحيطوا أنفسهم بالترف ، أو على الأقل بالراحة

(١) H. Van Werveke. Monnalie, lingosts ou marchandises Les instruments d'échange aux XIe et XIIe siècle, in Annales d'histoire tconomique et sociale, 1932, pp. 452 et seq.

اللائقة بمكانتهم الاجتماعية · ورأينا على الفور ، على سبيل المثال ، بمقارنة حياة الفارس فى القرن الحادى عشر بنظيره فى القرن الثانى عشر ، نرى مدى ارتفاع حاجة الأخير عن زميله فى الطعام ، والملبس ، والأثاث ، وفوق كل ذلك حاجته فى التسليح · ولقد كانت حاجة الأول سترتفع مثل زميله لو كانت الدخول قد أظهرت فى القرن العاشر ارتفاعا مماثلا مثلما حدث فى القرن الحادى عشر ، لكن طبقة ملاك الأراضى ، ومثلهم النبلاء ، قد ظلوا ، وسط ارتفـاع تكلفة الحيـاة ، محكومين بالأعراف ، كذلك كان الايجار المدفوع عن الأرض غير متغير وثابت · وبالتأكيد أن ملاك الأراضى كانوا لا يتسلمون من أجرائهم ما يكفيهم لمواصلة والاستمرار فى طريقة حياتهم القديمة ، ولكن ليس لأن يعيشوا كما يرغبون اليوم · ولقد كانوا ضحايا لنظام اقتصادى بطل استعماله ، الأمر الذى حرمهم من أن يستخلصوا من رأسمالهم فى الأرض ايجارا مناسبا لقيمتها · ولقد حالت التقاليد دون أن تجعل ملاك الأرض يفـكرون فى زيادة الايجار على مستأجريهم أو زيادة خدمات العمـل على أقنانهم ، طالما كانوا مجبزين العرف القديم وأصبحت حقوقا لهم يجب ألا تنتهك دون أن تسـبب انعكاسات اقتصادية واجتماعية خطيرة ·

وبالمثل فقد عجـز ملاك الأرض عن مقـاومة احتياجاتهم الجـديدة وايجاد المال الكافى والضرورى الذى يرضيهم ويشبع رغبتهم ، وتعرض عدد من النبلاء الى الاستدانة ، ثم أفلسوا وافتقروا · وفى منتصف القرن الثالث عشر ، يحكى لنا توماس دى كانتمبرى Thomas de Cantimpré أنه فى دائرة كنيسة بلده (أبرشية بلده) تناقص عدد الفرسان من ستين فارسا فى نهاية القرن السابق الى واحد أو اثنين (١) ، ومن المؤكد أن هذه مجرد حالة محلية ومثال للحالة العامة · ولقد تأثرت الكنيسة نفسها بذلك · وعن نفس الفترة ، يصف لنا ايودس ريجو Eudes Rigaud أسقف روان Rouen ، حالة غالبية الأديرة الصغيرة فى دوقيته بأنها كانت سيئة للغاية (٢) · ومن الواضح أن ملاك الأرض العلمانيين الكبار وكذلك ملاك أرض الكنيسة الكبار كانوا فى وضع طيب لمواجهة الضائقة ما لم يقاطعوا تنظيم الأرض الاقطاعى القديم مقاطعة تامة تقريبا · وبرغم أنه لازال هنالك وقت طويل يسمح بالتغيير ، فان الخسـائر كانت على الأقل سوف تنقص زيادة الربح مع استمرار انتاج الغلة التى تستخلص

---

(١) Thomas de Cantimpré, Bonum Universale de apibus, 11, 49, p. 446, in the Douai ed., 1605.

(٢) Journal des visites pastorales d'Eude Rigand, archevêque de Rouen (1248-69), ed. Th. Bonnin (Rouen, 1952).

من الأرض. ولقد أصبح الكثير من نظمهم عديم الفائدة مع انتعاش التجارة : ولقد تساءل خدم المنازل ، الذين اعتادت الاقطاعات المهمة الاعتماد على عدد منهم في صنع الملابس أو الأدوات الزراعية ، عن جدوى بقائهم على هذه الحال في وقت تضاعفت فيه مكانة الحرفيين في المدن المجاورة ؟ ولقد سمح لهم في الغالب بالانتشار أينما كانوا خلال القرن الثاني عشر . ولقد حث نفس السبب الأديرة على بيع الأراضي النائية التي كانت في حوزتها في مناطق زراعة الكروم والتي لم تكن تنتج عنبا (١) . وطالما كان النبيذ متوافرا في السوق ، فلماذا يستمر الناس على التزود به بتكلفة زائدة من نتاج أرضهم ؟ أما بالنسبة للسيد الاقطاعي ، فانه كان من السديد أن يحول أكثر ما يستطيع من أرضه بقدر امكانه الى أرض مستأجرة ، ذلك لأن خدمة السخرة صارت غير منتجة أو مثمرة ، فكان من الأحسن له ترك الأرض مقابل ايجار يدفع نقدا فوريا ، عن أن يخزن محاصيله ويخاطر بتعرضها للتلف أو فقدها بالحريق . وبوضوح ، أصبح غرض ملاك الأرض الأذكياء آنذاك من الآن فصاعدا هو زيادة دخلهم النقدي بقدر الامكان. ولقد قادهم ذلك طبيعيا الى ابطال نظام عبودية الأرض أو تعديله. ولقد كان اعتاق الرجل وكسبه لحريته مقابل دفع مبلغ معين من المال ذا فائدة مزدوجة ، فهو لكي يملك حرية نفسه كان عليه أن يتنازل عن حقه في الأرض التي يستأجرها . واذا رغب في ذلك فله أن يستبقيها لكن بشروط كلها كانت لصالح السيد الاقطاعي ، واذا فضل أن يتركها ويذهب ، فليس هنالك أسهل من أن يحل مكانه في هذه الأرض فلاح آخر . ورغم كثرة عدد من حرروا أنفسهم خلال القرن الثاني عشر ، ومع ذلك ، فان العتق ، كما نعرف ، لم يقصر تماما على وجود طبقة الأرقاء . ولكن برغم بقائه الا أنه فقد كثيرا من شكله البدائي ، فلقد سمح للمزارعين أن يخففوا عن أنفسهم أعمال السخرة وبعض الواجبات المفروضة عليهم مقابل المال ، وبرغم أن الأسماء القديمة للوقف ، والارث ، والتبعية قد بقيت حتى نهاية النظام القديم ، الا أنها في الواقع قد خفت كثيرا عما كانت من قبل ، ومع ذلك فقد ظلت تجبى الأموال منهم ، الا أن السخرة كانت آنذاك أخف بالمقارنة بالالتزامات التي كانت قد فرضت عليهم في الماضي . وأصبح لا مكان الآن للسلطة الاقطاعية التي اختفت ، لكن رغم ذلك فان قوتها نمت باضطراد في قليل أم كثير بعد ذلك وظلت في شكلها الكنسي السابق . ولقد نتج عن هذا التطور أن اقترب ملاك الأراضي أكثر فأكثر

---

(١) في سنة ١٢٦٤ ، باعت ابرشية سان تروند كروم دير هيمرود Himmerode في بوميرين Pommeren وبريدل Briedel على نهر الموزل . انظر المقال المتصل بهذا الأمر في :
Lamprecht, Deutsches Wirtschaftslebent, t. III, p. 24 et seq.

من مستأجرى الأرض ، وهم ملاك المفهوم الجديد · وصارت غالبية الفلاحين المحررين أجراء لمن منحت له الأرض حكرا ، وكان غالبا ما يكون وراثيا · وفى خلال القرن الثالث عشر ارتفعت الأسعار فى خلال سنوات فى كل الأقاليم المتقدمة · وعلى يد العمال الزراعيين الأجراء قامت زراعة غنية فى كثير من النواحى · ولقد نصح ايدريجو Eudes Rigaud رؤساء أديرة الرهبان فى دوقيته أن يؤجروا أراضيهم بقدر امكانهم (١) · فى الجنوب ، فى منطقة روزيلون Rousillon مثلا ، صار تأجير الأرض لسنتين حتى ست سنوات أمرا مألوفا ، وجنبا الى جنب هذه الايجارات المؤقتة ، أو دفع نصف المحصول كان أيضا أمرا معتادا (٢) ·

والشيء المميز آنذاك أن انحلال نظام الأرض الاقطاعى قد أدى الى تقدم متناسب مع تقدم التجارة · وقصارى القول ، أنه كان أسرع فى أقاليم ذات مدن كبيرة وتجارة كبيرة مثل : لمبارديا ، وتسكانيا ، وشمال فرنسا ، واقليم الفلاندرز ، أو ضفاف الراين ، عنه فى وسط ألمانيا أو انجلترا · وفقط فى نهاية القرن الثالث عشر بدأ النظام الاقطاعى ينهار فى انجلترا ، فى الوقت الذى كانت فيه لاتزال دلائل كثيرة على وجوده فى اقليم الفلاندرز منذ منتصف القرن الثانى عشر · وهنا ، فان التقدم التجارى يبدو أنه جلب مع اختفاء نظام عبودية الأرض والاسترقاق الى الأبد · واستطاع بذلك رئيس بلدى يبرس Ypres أن يكتب قائلا : « لم يعد عندنا عبيد ولا أيد عاطلة ولا أحد تشبه ظروفه ظروف هؤلاء » (٣) · ولقد كان لنفوذ التجارة النامى نتائج سريعة ، على الأقل على طول طرق العبور الكبرى وفى المناطق الخلفية للموانى ، حيث أفرزت على الخصوص زراعة متوائمة مع طبيعة التربة والمناخ · وطالما أن الحركة التجارية كانت منعدمة أو طفيفة ، فانه يكون لزاما أن تنتج كل ضيعة أجود أنواع الغلات الشحيحة فيها والصعبة المنال · لكن مع بداية القرن الثانى عشر تسبب التقدم التجارى فى قيام اقتصاد معقول · وحيثما كان ، فى أى مكان يعتمد على التصدير ، زرعت الأرض بما يتواءم معها للتزويد بما هو جيد وأكثر رخصا · ومن القرن الثانى عشر فصاعدا

---

(١) انظر مقاله السابق (J ournal) ، ص ٨٢ ، حاشية رقم ٢ · ولقد نصح فى عام ١٢٦٨ أحد رؤساء الأديرة بقوله : « ترك الارض اقل فائدة من تأجيرها » · "quod quam meliu posset, maneria ad firmam traderet'. (ص ٦٠٧) · وهو نفسه أجر عدة دوائر لمدة سنتين أو ثلاث وأربع سنوات للبرجوازيين والموظفين الكتبة · (Ibid, p. 766 et seq).

(٢) 1J. A. Brutails, Etude sur la condition des populations rureles au Moyen Age, p. 117 et seq.
Beugnot, Les Olim., t. II, p. 770.

تخصصت الأديرة البنــديكتية في انتــاج الصوف ، وأعشــاب الصباغة (الوسمة) ، نيلة الصباغة في العصور الوسطي ، كانت تزرع في جنوب فرنســـا ، في بيكاردي Picardy ، أســفل نورمانديا ، وفي ثورنجيا وتسكانيا • وقبل ذلك ، تأتي كروم الأعنــاب التي انتشرت زراعتهــا ، وأوقعت الضرر بالحبوب في كل هــذه الأقطـــار حيث صارت تنتج النبيذ الجيد ، المجزى والمربح والذى يسهل تصــديره • ولقد لاحظ ساليمبن Salimbene حقيقة أن الفلاحين في وادى الأكســير Auxerre « لا يزرعون ولا يحصدون » ، وذلك لأن أنهارهم قد حملت نبيذهم الى باريس حيث يجد هنالك رواجا « عظيمــا » (١) • ولقد قدمت مقــاطعة بوردو المثال الواقعي للاقليم الذى تعتمد التجارة فيه على الزراعة • ولقد كانت منطقة مصب نهر الجيروند ، في طريق لاروشيل ، من المناطق التى كان يصدر نبيذها بكثرة فائقة الى شواطىء الأطلنطى ، والى انجلترا والى أحواض بحر الشمال وبحر البلطيق • وعند نهاية القرن الثاني عشر امتد تصديره من ميناء بروج Bruges الى ليبيج Liège ، حيث زاحمت هنالك نبيــذ الراين والموزيل • وفي الشــق الآخر من أوربا ، ألجأت بروسيا نفســـها لزراعة القمح ، الذي حملته سفن الهانز الى موانى أوربــا •

وفي الختام ، فانه من الضرورى أن نلحظ أن الحدة الكبرى للحركة الاقتصادية قد أعطت للأرض سهولة الحركة التى قلبت الأراضى المستأجرة التقليدية الى ما انقسمت اليه • ولقد تحولت أراضى الكنيسة وأراضى السادة الاقطاعيين قليلا فقليلا وبالتدريج الى أراض مستأجرة وبأحجام مختلفة ، وقد تألف كل منها من قطع استحوذ عليها أحد المستأجرين وكون منها مزرعة خاصة به • والآن حيث وجد المزارع سوقا لسلعه في المدن المجاورة ، فان طعم الادخار طرأ عليه مع طعم الربح وليس هنالك ادخار أحسن من الاستحواذ على الأرض • ولكن البرجوازيين أيضا كانوا يبحثون عن الأرض ، وكان تجار المدن الأثرياء يرون فيها أحسن الاستثمارات الممكنة بسبب ما تحققه من أرباح محققة في التجارة • وفي القرن الثالث عشر استحوذ كثير منهم على أراض في الريف • ولقد تخصص الرأسماليون في اقليم الفلاندر في صرف الأراضى المستصلحة من البحر ، وفي ايطاليا فان رجال المال المتخصصــين والأثرياء اشتروا لهم ضياعا كثيرة وفي القرن الرابع عشر كانت لدى شركائهم الذين كانوا يديرون لهم أعمــالهم في فرنسا وانجلترا واقليم الفلاندرز الرغبة في احراز الأرض في أيديهم •

---

(١) Marc Bloch, Op. cit., p. 23.

لكن يجب علينا أن نعمم التجربة كثيرا فيما يختص بالمظاهر التى كانت خاصة بأقاليم قليلة ، حيث رأس المال فيها يكون قادرا على تنمية كل شئونها • وفى الحقيقة ، فان التغييرات فى النظام الزراعى وفى ظروف الطبقات الريفية كانت بطيئة للغاية فى كل أنحاء أوربا التى لم تكن قد فتحت بواسطة الطرق التجـارية الكبرى • زيادة على ذلك ، فانه حتى الأقاليم التى كان التقدم فيها سريعا ، فان نفوذ الماضى ظل عليها قويا • ولقد بدأت مساحة الأرض المنزرعـة تتزايد أكثر من أية فترة سابقة ، ولكنها ظلت أقل بكثير مما هى عليه الآن •

ولقد بدا أن طرق الزراعة ظلت ثابتة ، وأن استخدام السماد كان غير معروف ما عدا فى الأراضى القليلة فى المناطق المتميزة ، وظل الناس فى كل مكان ملتزمين تمـاما بنظام المناوبة فى الزرع التقليدى • ومع أن كثيرا من عبـودية الأرض قد استحدثت ، فان المزارع قد ظل تابعا للتنظيـم الكنسى ، وللعشور ، وللنبلاء ، ولكل تعسف القوة الذى لم تستطع الحكومات حمايته منه ، أو حمايته منه كما يجب • وكل ما يوضـع فى الاعتبار هو ، أن جمهور الريف ، الذى يمثل الأغلبية فى الناحية السكنية ، قد لعب دورا سلبيا خالصا فى هذا الخصوص • ولم يعد للفلاحين مكان فى التسلسل الاجتماعى الطبقى •

الفصل الرابع

التجارة حتى نهاية القرن الثالث عشر

١ ـ حـركة التجـارة (١)

تظهر حيوية تجارة العصور الوسطى ، بشكل رائـع لافت للنظر رغم المصاعب التى جابهت نشاط الناس والأفراد خلال هذه الفترة . ولم يكن هناك أسوأ حالا من الطرق منذ القرن التاسع . بعد أن اختفت نهائيا آنذاك كل ما تبقى من شبكة الطرق الرومانية . ولم يقتصر الأمر على وجود المكوس التى بقيت على حالها ، ولكن زاد على ذلك فرض رسوم جديدة ، وقد عرفت جميعهـــا باسمها القديم teloneum ، أو مكوس الســوق . ومثلت هذه المكوس استمرارا لضرائب لا لزوم لتحصيلها ، بعد أن تحولت تـــاما عن الغرض الرئيسى العـــام الذى فرضـــت من أجله . ولقـــد أصبحت مكوس العصور الوسطى (tonlieu) التى فرضها أمراء الأقاليم غصبا ، أصبحت مجرد ضريبة حكومية كانت تشكل عبئا كبيرا على تجارة المرور . ولم يكن يدخر أى شىء من هذه الضريبة جانبا لاصلاح الطرق أو لتجديد بناء الجسور . ولقد أثقلت هذه المكوس كاهل التجار مثلما فعلت الحقوق الاقطاعية مع الأرض . وكان التاجر الذى يدفعها يعتبرها مجرد « اغتصاب » ، و « عادة سيئة » ، وجبـــاية جائرة على بضائعه ، وقصارى القول فهو يعتبرها تعسفا لا أكثر . وقد كانت هذه المكوس من أكثر الموانع المزعجة التى اعترضت طريق تجارة المرور .

ومن الجلى أن أول المطالب التى نتجت عن قيام المدن هى أن يتحرر مواطنوهـــا من هذه المكوس ، اما جزئيا أو داخـــل المقاطعة تحت أمرائـهم

---

(١) Bibliography. A. Schulte, Op. cit., p. ix. W. Vogel, Op. cit., p. 17, n. 4. W. Götz, Die Verkehrswege im Dienste des Welthandels, Stuttgart (1888). T. H. Scheffel, Verkehrsgeschite der Alpen, Berlin (1908-13), 2 vols. — R. Laur-Belart, Studien zur Eröffnungs-geschichte des Gottaräpas es, Zurich, 1934. — J. E. Tyler, The Alpine Passes in the Middle Ages (962-1250), Oxford, 1890. R. Blanchard, Les Alpes françaises, Paris, 1925. Ch. de la Roncière, Histoire de la marine française, Paris, 1899-1932, 6 vols. E. H. Byrne, Op. cit., p. 24, n. 9 Ed. von Lippmann, Geschichte des Magnetnadels bis zur Einfuhrung des compasses Berlin, 1932. A. Beardwood, Alien Merchants in England. 1350/1377. Their Legal and Economic Position Cambridge (Mass.), 1931.

الكنسيين ، تماما كما فعلت أديرة كثيرة قبلهم اذ نال أهلوها وحصلوا على اعفاءات كعمل من أعمال التقوى • ومن القرن الثانى عشر فصاعدا نجحت القوميونات الفنية فى الحصول على امتياز التحرر من المكوس فى الأقطار الأجنبية التى يتردد عليها تجارهم (١) • ولكن برغم تعدد هذه الاعفاءات ، فان المكوس استمرت لتبقى عائقا على كل طرق التجارة الرئيسية • وعند نهاية القرن الخامس عشر ، كان يوجد على الراين أربعة وستون مكسا ، وخمسة وثلاثون على الألب ، وسبعة وسبعون على الدانوب فى مجراه داخل أسفل النمسا فقط (٢) •

ولقد تأخرت التجارة وعوقت بسبب هذه الاستغلالات المالية الحكومية مثلما حدث لها بسبب حالة الطرق التجارية السيئة آنذاك • وفى الشتاء ، كان من المستحيل التحرك من مكان لآخر على طول الطرق بسبب رخات المياه والطين • وقد تركت العناية بهذه الطرق لأولئك الذين يمرون الى أرضهم منها أو من لهم مصلحة واستفادة من أجر صيانتها • ولم تجر السلطات العامة فى لمبارديا أية محاولة لاصلاح الممر عبر الألب ، الحيوى للغاية لربط ايطاليا بشمال أوربا • وأى تقدم يحرز فى هذا الخصوص يبدو أنه كان جهدا فرديا من جانب الرحالة ، والحجاج والتجار • ولقد كان التردد كثيرا فى القديم على ممرات مونت سينيس Mont-Cenis وبرنار Brenner ، وسبتمر Septimer وسان برنارد Saint-Bernard وفى بداية القرن الثالث عشر حين بدىء فى ارتياد ممر سان جوثارد Saint-Gothard • والجسر المعلق الوحيد الذى لا نعرف أى شىء عن وجوده آنذاك كان قد طرح عبر هذا الممر وقام بصنعه مخترع مجهول ، بتكلفة من مستخدمى هذا الطريق دون شك ، وبذلك فتح الطريق المباشر ما بين ميلان وأودية الراين والدانوب • ولكن مملكة نابلى ، حيث كانت تحكم البيوتات الملكية للهوهين ستوفين Hohenstaufen والأنجيفيون Angevins ، واستفادت من أمثلة ما فعلته الامبراطورية

---

(١) حصل بورجوازيو سانت أومير Saint Omer فى سنة ١١٢٧ من وليم النورماندى على وعد بأخذ اعفاءات لهم من ملك انجلترا • وان تقرير جالبرت Galbert of Bruges فى نفس الفترة يظهر أهمية أن هذه المدن تعلقت وتمسكت بقرار الغاء مكس السوق •

(٢) Kulischer, op. cit., t. I, p. 301.

لقد عددت أنه كان فى سنة ١٢٧١ اثنان وعشرون مكسا على نهرى سكيرب Scarpe والشيلد ، ما بين دواى Donai وروبلموند Rupelmonde •

warnkoenig and Gheldorf, Histoire de la Flandre et de institutions, t. II, p. 460 et seq.

الرومانية ومسلمو صقلية ، بوضع السلطة الحكومية فى حسبانها اصلاح الطرق التجارية الرئيسية (١) • فى فرنسا ، تركت الحكومة الملكية مهمة اصلاح هذه الطرق لمن يستخدمونها ، حتى فى أطراف العاصمة • وفى سنة ١٣٣٢ ، قام أهل جينت Ghent باصلاح الطريق من سنليس Senlis على نفقتهم ، ليوصلوا بضائعهم ويسهلوا وصولها الى باريس (٢) •

ولقد أصبح بناء الجسور أكثر أهمية من صيانة الطرق • وبدون الجسور تصبح الأنهار الكبرى موانع متعبة للغاية • لكن الأهمية الحقيقية والتى كانت تستحق الانفاق عليها ، هى الجسور التى أقيمت فى المدن على نفقة البرجوازيين • مثل الجسور فى ماستريخت Maastricht وليبيج Liége ، وهاى Huy ، ونامور Namur ودينانت Dinant على نهر الميز ، وفى باريس وروان Rouen على نهر السين ، وفى أفينيون على نهر الرون ، وجسر لندن على نهر التيمز ، وغيرهم •

وكانت وسائل المواصلات موافقة لحالة الطرق السيئة آنذاك • فلقد كانت تستخدم العربة الخفيفة ذات العجلتين فى العادة لنقل البضائع ، لكن البضائع ذات الأهمية البالغة كانت تحمل على ظهور الخيل • ولارسال سلع ثقيلة بالبر فى تلك الأيام فانه كان من الضرورى أن تقسم حمولتها بين عدد من العربات أو الحيوانات • وبالتأكيد ، فان العربات الثقيلة ذات الأربع عجلات كانت مستخدمة لكن استعمالها اقتصر على الطرق غير الممهدة • ولم يؤت التقدم فى استخدام الخيول فى جر العربات فى القرن العاشر بالنتائج المرجوة طالما أن وسائل النقل ظلت قليلة (٣) •

وهذا القصور والعجز فى النقل البرى للتجارة جعل النقل النهرى مفضلا عنه ، برغم التحاريق فى الصيف ، والصقيع فى الشتاء ، وبرغم أن فيضانات الربيع والخريف كانت فى الغالب تمنع الملاحة فيها • لكن الأنهار ، رغم ذلك ، كانت الأداة الكبرى للتبادل التجارى والتصدير • ولم تبذل أى جهود لتقدم هذه الملاحة النهرية • ولقد بنيت حواجز وأرصفة

---

(١) G. Yver, Le commerce et les marchands dan: l'Italie méridionale, p. 70.

(٢) Cartulaire de la ville de Gand. Compte de la ville et des baillis, ed. J. Vuylsteke, p. 801 (Ghent, 1900).

(٣) عن عجز الحيوان على الجر والسحب قبل القرن العاشر ، انظر :
Lefebvre des Noettes, L'attelage et le cheval de selle à travers les âges (Paris, 931).

ومراس في أماكن ملائمة . وفي السهل الفلمنكي ، حيث تجرى مياه الأهوسة ببطء شديد ، كان من المستحيل حفر قنوات تغذيها الأنهار تجعلها صالحة للاتصال . ويرجع تاريخ أقدم هذه القنوات الى القرن الثاني عشر، لكن عددها ازداد في القرن الثالث عشر لدرجة مذهلة تشهد على النشاط التجارى في ذلك الاقليم . ولقد حافظوا على مستوى المياه في الارتفاع الضرورى بواسطة بناء سدود خشبية رتبت على مسافات . ولقد عبرتها القوارب بواسطة زلاقات مائلة انزلقوا عليها بمساعدة حبال رفعها مرفاع (ونش) . ولقد أطلق على الجهاز كله اسم (جرافة) . وكانت التكاليف الضرورية لانشاء وتشييد القنوات في بعض الأحيان تقع على كاهل المدن ، وفي بعض الأحيان الأخرى على كاهل التجار . ولقد رصدت المكوس بمختلف أشكالها ، التي تخالف تماما ضرائب الاقطاعيين ، لمرور القوارب، واستغل العائد في دفع تكاليف التجهيزات والصيانة (١) .

ولقد تقلدت الملاحة البحرية كذلك أهمية كبرى عن التجارة النهرية. حتى القرن الرابع عشر في البحر المتوسط والخامس عشر في البحار الشمالية ، بمعنى ، أنه حتى الوقت الذى صار استخدام البوصلة فيه عند البحارة عاما ، أجبرت السفن أن تبحر عبر شواطئها . وكانت السفن تخرج في مجموعات لرحلات قصيرة ، كثيرا ما تحرسها سفن حربية تحسبا لخطر القراصنة الخفي في البحار في وقت شاعت فيه القرصنة ، لدرجة أن التجار أنفسهم لم يتوانوا عن قتالهم والمشاركة في أعمالها حين تواتيهم الفرصة لذلك.وتراوحت حمولة السفينة ما بين المائتى طن والستمائة(٢). ولقد استخدمت السفن الشراعية ذات المجاديف الكبيرة بصفة رئيسية في البحر المتوسط . ولقد كانت سفن الغشاريات nef الفرنسية وسفن البحر الأسود والبلطيق ذات الدواليب cogge مجرد مراكب ابحار فحسب ، مرتفعة في الماء وذات جوانب مصقولة . ولقد عملت الامكانات الكاملة للدفة في السفن ، في البداية ، في القرن الثالث عشر على تحسين نوعيات الابحار لكل السفن(٣).لكن هذه السفن لم تخاطر أبدا في الابحار في رياح

---

(١) H. Pirenne, Les overdraghes et les portes d'eau en Flandre au XIIIe siècle, in Essays in Medieval History presented to Thomas Frederich Tout (Manchester, 1925).

(٢) عن سفن البحر المتوسط ، انظر : Byrne, Op. cit., p. 9 et Seq.

ولقد أظهرت ابحاثه أن كفاءتها كانت اكبر بكثير عما كان يعتقد في السابق . وكان كثير منها يستطيع حمل من ١٠٠٠ الى ١١٠٠ راكب .

(٣) Lefebvre des Noettes, Le gouvenail. Contribution à l'histoire de l'ésclavage in Mémoires de la société des antiquaire des France. 1934, p. 24 et seq.

وتبدو استنتاجات المؤلف أنها تبالغ في أهمية هذا التقدم والتحسن .

الشتاء . وحتى بداية القرن الرابع عشر حدث هنالك استثناء وحيد وهو أن عبرت السفن الايطالية مضيق جبل طارق ، ولكن في سنة ١٣١٤ نظمت البندقية وجنوة أساطيلها لتذهب الى اقليم الفلاندرز وانجلترا (١) .
أما عن الهانز Hansards ، الذين حلوا ، منذ القرن الثاني عشر ، محل الاسكندنافيين في المياه الشمالية ، فان سفنهم لم تذهب جنوبا لأبعد من خليج بسكاي ، حيث اشتغلوا بالاتجار في الملح في خليج بورجنيف Bourgneuf وبالنبيذ في خليج لاروشيل .

ولقد أدت اقامة الموانى الى بناء سقائف ووجود أوناش وصنادل لتفريغ حمولة السفن . واعتبرت تلك الموانى التي بنيت في الجنوب في البندقية ، والتي بنيت في الشمال في بروجز Bruges أكثر الموانى أمانا وأحسنها ادارة في جميع أوربا . ولقد استخدمت أبراج الكنائس وأبراج أجراسها لتبين للمبحرين في الأنهار قرب الوصول الى اليابسة . وفي بعض الأحيان كانت توقد نيران فوق تلك الأبراج وتستخدم كمنارات . وبعد تفريغ حمولة السفن تسحب في العادة الى الشواطىء لعمل الاصلاحات اللازمة .

ولقد كانت هنالك عوائق كثيرة على كاهل الحركة التجارية بسبب تزايد الضرائب الداخلية ، لكن الى جانب ذلك ، وبعيدا عن تلك العوائق ، فان بعض التعويضات كانت قد وجدت أخيرا على الحدود السياسية . وليس قبل القرن الخامس عشر ، أخذت أولى أمارات الحماية تبدأ في الاعلان عن نفسها . وقبل ذلك ، فليس هنالك شاهد واحد في أدنى رغبة لشمول التجارة العالمية بالحماية من المنافسة الأجنبية .

وفيما يتعلق بالعالمية التي ميزت حضارة العصور الوسطى حقيقة في القرن الثالث عشر ، فانها كانت مقيدة بوضوح خاص في سلوك الولايات . فلم تبذل هذه الولايات أية محاولة للتحكم في حركة التجارة وسيكون من العبث أن نبحث عن أية آثار لسياسة اقتصادية تستحق الذكر . ومن الطبيعي أن كان للعلاقات السياسية بين الأمراء صداها في المجال الاقتصادي . وفي وقت الحرب ، يتم أسر تجار الأعداء ومصادرة بضائعهم وحجز مراكبهم والاستيلاء عليها . ولقد كان الحظر التجاري أداة شائعة الاستعمال دلالة على القسر والاغتصاب . في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، توقف ملوك انجلترا ، أثناء حربهم مع الفلاندرز ، عن تصدير صوف لذلك الاقليم ، حتى يتسببوا لهم في كارثة صناعية تجبرهم

---

(١) A. Schaube, Die Anfange der venezanischen Galeerenfahrien nach der Nordsee, in Historische Zeitschrift, t. CI (1908).

على الاستسلام • وكانت تلك الاجراءات هي الوسيلة الوحيدة لاظهار دوام القوة وثباتها • وحين يتقرر السلم ، يستمر الحال على ما كان عليه سابقا، ولا يصبح هنالك مجال للتفكير في محاولة الحاق الخراب بالعدو بالسطو على أسواقه أو الاستيلاء على صناعته • وبالاختصار ، فان أمراء العصور الوسطى ظلوا بدون أى روح تجارية ، باستثناء ، على ما يبدو ، فردريك الثاني وخلفائه الأنجيفيين Angevin في مملكة نابلي • وفي هذا المقام ، بالطبع ، نستطيع أن نلحظ ، تحت نفوذ البيزنطيين والمسلمين في صقلية والمغرب بدايات وساطة الدولة في النظام الاقتصادى • ولقد احتفظ الحاكم لنفسه باحتكار تجارة القمح وأقام ادارة منتظمة للجمارك في الثغور • ولقد جاء اهتمام الحاكم بأمر هذه الوساطة عملا حكوميا خاصا ، لكن وضع التجارة تحت سيطرة الحكام أظهرت أن الحكام باشروا مسلكا جديدا ، ألقى بظلاله على السياسة التي اختارتها الملكيات الجديدة في العصر الحديث (١) • ولقد كان ملوك نابلي سابقين لعصرهم ، اذ عملوا خلال نطاق ضيق وبقدر محدود في هذا الخصوص ووجد من يقلدهم في ذلك ، لكن عملهم هذا لم يكتب له البقاء بعد كارثة شارلز أنجو Charles of Anjou في سنة ١٢٨٢ •

وان فكرة استغلال التجارة وتسخيرها لصالح خزائن الأمراء ، من الطبيعي أن تكون قد وردت على خاطر كل الحكومات • ولقد كان الأجانب عرضة في أى مكان لمكوس خاصة ، وان لم يكونوا مرتبطين بمعاهدات ، فان بضائع التاجر تتعرض لمخاطر كبيرة ويتعرض هو لتحقيقات مقاطعة الأمير وقت الحاجة • لكن اذا كان الأمير قد ظلمه ، الا أنه قد قام أيضا بحمايته • وعلى كل الجوانب ، فالتاجر ، مثله مثل الحاج ، كان تحت حماية خاصة من اللورد الذى كان مسافرا عبر أرضه وكان تحت حماية الأمن العام • ولقد اكتسب أكثر من أمير اسما محترما كمقاوم للصوص وقطاع الطرق • وبرغم أنه منذ نهاية العصور الوسطى ، وحتى بعد ذلك ، قد بقي عدد محدود من الفرسان والبارونات الذين كانوا يمثلون رعبا للتجار ، لكن من الحق أن نقول بأنه بداية من بداية القرن الثالث عشر تواجد نظام هؤلاء الجبابرة (Raubritter) فقط في مقاطعات نائية ، أو في أقطار استسلمت للفوضى • ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، وبخاصة في أوقات السلم ، فان الحكومات قد ثبتت العدالة وطبقتها بصرامة وأعطت سلطات مطلقة لموظفيهم لمجابهة السرقة • وفي نفس الوقت قامت الحكومات بتعديل بعض الممارسات التي تعارضت مع التقدم الاقتصادى • وقد كان

---

(١) عن السياسة الاقتصادية لمملكة نابلي انظر : G. Yver, op. cit.

اللورد يعتبر أن من حقه كل ما يلفظه البحر الى الشاطىء من حطام السفن الغارقة ، الا أن هذا الحق قد ألغي الآن أو نظم وفق معاهدات • وبالمثل ، فقد عقد عدد متزايد من الاتفاقات ، لحماية التجار الأجانب من الوقوع فى الأسر فى مقابل ديون سيدهم الاقطاعى عليهم ، أو ديون أهل وطنهم •

وقد وضعت كل هذه الأسس تحت الحاح متزايد وشديد خلال القرن الثالث عشر ، الا أن تطبيقها كان متقطعا ومشكوكا فيه ، وفقا لنقص تنفيذ الجزاءات التى تلزمهم بذلك • ومع ذلك ، فلقد نما الشعور بالأمان ، وقل السلب والنهب ، وقد كان ذلك فى صالح تقدم التجارة والمعاناة العالميـة •

فى البداية ، أجبر الخطر المتعدد الذى كان يهدد التجار على أن يسافروا فى عصبة مسلحة فى قوافل كبيرة • والأمان يجب أن يدفع ثمن القوة ، والقوة لا يتحصل عليها الا بالاتحاد • ولقد حدث نفس الشىء فى ايطاليا ، وفى الأراضى المنخفضة ، فى هذين القطرين حيث كانت التجارة تنمو بسرعة أكثر • ولم يكن هنالك فارق فى هذه الحالة بين الرومانسيين والشعوب الجرمانية • وأيا كان الاسم الذى جاء تحته الاتحاد ، سواء أكان من الاخوة أم الرأفة أم الصحبة أم الجماعة ، فلقد كانت الحقيقة تعنى نفس الشىء • وهنا ، كما كان فى كل مكان ، كان التصميم على أن التنظيم الاقتصادى ليس نبوغا قوميا ولكنه ضرورة اجتماعية • وكانت مجتمعات التجارة البدائية عالمية غير محلية مثل المجتمعات الاقطاعية • ولقد سمحت لنا المصادر أن نكون صورة واضحة ناصعة لمجموعات التجار وفرقهم ، الذين نراهم بأعداد كبيرة وزائدة فى غرب أوربا منذ القرن العاشر فصاعدا • ولقد أحاطت أعدادهم المسلحة بالأقواس والسيوف بالخيول والعربات المحملة بالأجولة والركائب ، والحقائب والبراميل • وفى المقدمة يمشى حامل الراية (Schildrake) والقائد Hansgraf أو Douyen ، يمارس سلطته على الجماعة ، التى تتكون من « اخوة » يربطهم قسم الاخلاص • ولقد أحيت روح التضامن والتماسك كل المجموعة • ومن الواضح ، أن البضائع كانت تباع وتشترى مشاعا مشتركا وتقسم الأرباح بعد ذلك وفق نصيب كل رجل منهم (١) • وكلما طالت الرحلة ، نجم عن ذلك الربح فى عصر كانت الأسعار فيه تعتمد أساسا على ندرة البضائع المستوردة ، وهذه الندرة تتزايد ببعد المسافة • ومن السهل أن نفهم أن الرغبة فى الربح كانت قوية بما فيه الكفاية

---

(١) C. Koehne, Das Hansgrafenmal, Berlin, 1893. W. Stein.

لتعادل مخاطر البقاء جوالا . ومن بداية القرن الثانى عشر ذهب رجال الدينانت Dinant بعيدا حتى مناجم جوسلار Goslar للحصول على مؤن من النحاس ، وتردد تجار كولونياوهاى والفلاندرز وروان على ميناء لندن، وشوهد عدد من الايطاليين فى أسواق يبريس Ypres . وما عدا فى فصل الشتاء ، كان التاجر الجرىء باستمرار على الطريق ، ولذلك تمكن بسلامة نية أن يطلق عليه اسم « ذو الأقدام المتربة » (pedes pulverosi, piepowders) « dusty foot » (١) . وسرعان ما ظهرت هذه الأعداد البشرية الهائلة الجائلة فى عدد من المجاميع البشرية أصبحت ضرورية للنشاط التجارى كلما ازدادت أعدادها . ولقد كرست جماعة هانز باريس فى وادى السين ، نفسها للعمل فى الملاحة الداخلية حتى روان Rouen (٢) . وفى اقليم الفلاندرز ، فى القرن الثانى عشر ، تكون اتحاد لمذاهب المدينة ، المتخصص فى التجارة مع انجلترا ، تحت اسم هانز لندن (٣) . وفى ايطاليا ، أدت جاذبية أسواق (شمبانيا) الى تكوين « اتحاد تجار ايطاليا العالى فى اقليم شمبانيا والممالك الفرنسية »

«Universitas mercatorum Italiae nundinas campaniae ac regni Franciae frequentantium ».

ولقد قام الاتحاد المسمى بالهانز المكون من ١٧ مدينة ليشمل تجار عدد من المدن المصنعة للملابس فى شمال فرنسا والأراضى المنخفضة ، من الذين تاجروا أيضا مع شمبانيا (٤) .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٥٣ ، حاشية رقم ١ . وتبين الفقرة التالية بوضوح حالة التجار المسافرين فى العصور الوسطى . فى سنة ١١٢٨ صوروا مظالمهم ضد الكونت وليام كليتون ، قائلين :

"Nos in terrahac (Flanders) clausit ne negociari pos emus, imo quicquid hactenus possedimus, sine lucro, sine negotiatione, sine acquistione rerum consumpsimus, unde justam habemus rationem expellendi illum a terra".

Galbert of Bruges, Histoire du meurtre de Charles le Bon, ed. H. Pirenne, p. 152.

(٢) E. Picarda,, Les marchands de l'eau. Hanse parisienne et compagnie française, Paris, 1901. G. Huisman, Le juridiction de la municipalité parisienne de la hanse parisienne des marchands de l'eau, in Mtlanges d'histoire offerts à M. Charles Bémont, Paris 1913.

(٣) H. Pierenne, La han e flamande de Londres, in Bulletin de la Classe des Lettres de l'Acadtmie de Belgique, 1899, p. 65 et seq.

(٤) H. Laurent, Nouvelles recherches sur la Hanse des XVII villes, in Le Moyen Age, 1935.

ولقد كان التاجر ينتقل من مكان لآخر فى البحر كما كان ينتقل على اليابسة للتجارة • وهنا ، فهو أيضا عليه أن يؤدى كل شئ بنفسه ، فهو يأخذ مركبا للأماكن التى يستطيع أن يبيع فيها بضاعته ويشترى الشحنات اللازمة لبلده • لكن ، مع مرور الوقت ، ولقد تطلب الأمر قيام رأسمالية متقدمة تطلبت حضور رؤوس رجال الأعمال فى مركز شئونهم التجارية والمهنية ، ولقد اعتمد الأمن والأمان على القيام بتجريدات عسكرية لضبط الأمور فى الميناء ، ولقد تحسن مستوى التجار فى القراءة والكتابة حتى انهم أصبحوا قادرين على أن يديروا أعمالهم بالمراسلة • ثم قلت الحاجة بعد ذلك للقيام برحلات تجارية شخصية بعد أن صارت الحياة التجارية أكثر استقرارا ، وصار التصدير ، كفرع خاص من النشاط ، يمتلك مقوماته الذاتية (١) • ولقد صار رؤساء البيوت التجارية الكبرى ممثلين فى فروعهم الأجنبية بواسطة شركاء أو وكلاء (« factors ») • ولقد تقدم هذا النظام تماما فى ايطاليا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر وصار حينذاك يزداد أيضا تقدما فى كل الأقطار • وان السلامة فى البحر ، حيث تكون مراكب التجار فى رحلة طويلة ومهددة بخطر القراصنة ، فرضت على التجار أن يسلحوا أنفسهم لقرون تالية ، ومن الآن فصاعدا استطاعت التجارة أن تستغنى عن التجهيزات العسكرية التى كانت تحيط بها فى أيامها الأولى •

٢ ـ الأسواق التجارية العالمية (٢)

كانت الأسواق من أكثر المعالم اللافتة للنظر فى التنظيم الاقتصادى فى العصور الوسطى ، بسبب الدور المهم الذى لعبته هذه الأسواق فى هذا التنظيم ، وبخاصة فيما بعد نهاية القرن الثالث عشر • ولقد تكاثرت

---

(١) F. Förig. Hansische Beitrage sur deutschen Wirischafisgeschte, p. 217 et eq. (Breslau, 1928).

(٢) Bibliography. Huvelin, op. cit., p. viii. F. Bourquelot, Etude sur les foires de Champagne, Paris, 1865, 2 vols. C. Bassermann, Die Champagnermessen, Ein Beitrag zur Geschichte des Kredits, Leipzig, 1911. G. Des Marez, Le lettre de foire à Ypres au XIIIe siècle, Brussels, 1901 (Mém. Acad. Belgique).

H. Laurent, Document relatifs à la procédure en foire de champagne contre des débiteurs défaillants, in Bulletin de la Commission des anciennes lois et ordonnances de Belgique, t. XIII (1929). H. Pirenne, Un conflit entre le magistrat prois et les gardes des foires de Schampagne, in Bulletin de la commission royale d'histoire de Belgique, t. Lxxxvi (1922). A. Sayous, Les optrations des banquier: italiens en Italie et aux foires de champagne pendant le XIIIe siècle, in Revue historique, t. CLXX (1932).

هذه الأسواق فى كل الأقطار ، وحيثما كانت ، فانها كانت تحمل شكلا جوهريا واحدا ، حتى انه من الممكن اعتبارها ظاهرة عالمية ، موروثة من داخل ظروف المجتمع الأوربى • ولقد بلغت هذه الأسواق ذروتها العددية فى فترة التجوال التجارى ، أما حين استقر التجار وأقاموا فى المدن تضاءل عدد هذه الأسواق • أما تلك الأسواق التى نشأت فى نهاية العصــور الوسطى فانها كانت ذات طراز مختلف تماما عن السابقة ، وأهم ما يلاحظ عليها ، أن أهميتها فى الحياة الاقتصادية لم تكن تقارن بحياة سابقاتها •

وسوف يكون من غير المثمر أن نبحث عن أصل الأسواق (nundinae) فى تلك الأسواق الصغيرة المحلية ، التى ظهرت مع بداية القرن التاسع فى أعداد متزايدة فى كل أوربا • وبرغم أن الأسواق كانت تابعة للأسواق المحلية (markets) فانها لم ترتبط بها بأية حلقة ، وهى أظهرت بالطبع ، الاختلاف الكامل عنها • ولقد كان هدف الأسواق المحلية هو أن تزود النواحى بالمؤن الضرورية للحياة اليومية للسكان • وبسبب تحديد دائرة جذبها وحصر نشاطها فى عمليات البيع بالمقسم (بالقطاعى) فسر ذلك سبب انعقادها أسبوعيا • أما الأسواق التجارية ، فعلى العكس من ذلك ، فانها اجتماعات موسمية للتجار المحترفين • وهى مراكز للتبادل خصوصا البيع بالجملة ، وقد أقيمت لجذب أكبر عدد ممكن من الناس والبضائع والسلع ، محررة من أى قيود محلية • وهى ربما تقارن بالمعارض العالمية ، لأنهــا لا تستثنى شيئا أو أحدا ، وكل فرد ، مهما كان وطنه ، وكل سلعة من الممكن أن تباع أو تشترى ، مهما كانت طبيعتها ، ضمنت ووجدت قبولا فيها • اضافة على ذلك ، فانه كان من المستحيل أن تعقد أكثر من مرة ، أو بالأكثر مرتين فى السنة فى نفس المكان ، لما تحتاجه من استعدادات ضرورية كبيرة • وانه لحقا أن نصف قطر معظم الأسواق كان محدودا ما بين منطقة فسيحة أو أقل اتساعا • ولقد جذبت أسواق شمبانيا بمفردها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر التجار من كل أوربا • لكن الشيء المهم أنه من الوجهة النظرية كان كل سوق مفتوحا للتجارة ، كما كان كل ميناء بحرى مفتوحا للسفن • ولم يكن الاختلاف بين الأسواق التجارية والأسواق العادية المحلية فقط فى الحجم ولكن الاختلاف كان أيضا فى النوع •

وباستثناء سوق سان دينيس Saint Denis ، بالقرب من باريس ، الذى يرجع تاريخه الى عصر الميروفنجيين ، والذى نبت وحيدا خلال فترة العصور الوسـطى الزراعية ، ولم يكن له مثيل ، فان الأسواق التجارية يرجع تاريخها الى فترة الاحياء التجارى • وأقدم هذه الأسواق بينها كان موجودا وقائما فى القرن الحادى عشر ، وفى القرن الثانى عشر ازداد عددها

واستمرت في الزيادة أكثر فأكثر في القرن الثالث عشر • ولقد حددت حركة التجارة الكبرى أماكن هذه الأسواق • ولقد ازدادت هذه الأسواق في أعدادها حسبما كانت التجارة في الدولة نشيطة ومهمة • أما مقاطعات الأمير فكان له وحده حق انشائها • وغالبا ما كان يمنحها للمدن ، ولكن بأية وسيلة كانت ، فلقد امتلكوا كل المراكز التجارية الريفية ، ولم تكن هنالك أسواق آنذاك في بعض المدن التى لها أهميتها الأولى ، مثل ميلان والبندقية • وفى اقليم الفلاندرز برغم وجود أسواق تجارية فى بروجز ويبريس وليل، ولم يكن هنالك منها فى المراكز النشطة مثل غينت Ghent بينما وجدت في ثوروت Thourout ومسينا Messines ، التى كانت مجرد أسواق صغيرة • وكان نفس الشيء فى شمبانيا بالنسبة للأماكن مثل لاجنى Lagny ، وبر سور أيوب Bar-sur Aube ، اللتين كانتا مشهورتين بالأسواق التجارية المشهورة التى كانت تعقد فيهما •

وهكذا ، جاءت أهمية هذه الأسواق التجارية من كونها مستقلة عن المكان الذى تعقد فيه ، ويفهم ذلك بسهولة ، طالما أن الأسواق التجارية لم تكن أكثر من اجتماعات موسمية للقريب والدانى ، وهى لا تعتمد على كثافة السكان المحليين • ولقد أسست فى النصف الثانى للعصور الوسطى ، الأسواق التجارية بغرض تزويد مدن معينة بمصادر اضافية ، ولجذب زحام الناس • ولكن من الواضح فى هذه الحالات أن اعتبارات التجارة المحلية كانت أعظم وأن المجتمع قد تحول عن غايته الأصلية والجوهرية •

ولقد أعطى القانون الأسواق التجارية وضعا مميزا • فلقد كانت الأرض التى تعقد عليها مكفولا لها الأمان والحماية التامة • ولقد حمل ذلك معه عقوبات قاسية رادعة فى حالة المخالفة • وكل من كان يذهب الى الأسواق كان تحت الحماية (conduit) ، أى حماية أمير المقاطعة • ولقد أكدت « حراسة الأسواق » (custodes nundinarum) النظام وحافظت عليه ووضعت لاحكامه أحكاما خاصة • ولقد كتبت تعهدات خاصة اعتبرت ملزمة لصاحبها بما فيها ، ورسمت بعض الامتيازات لجذب أكبر عدد ممكن من المنتفعين • وفى كامبراى Cambrai ،على سبيل المثال ، أعطيت بعض التصاريح بلعب النرد والورق داخل سوق سان سيمون وسان جبيد Saint Jude • « لقد كانت الأعياد والألعاب هى وسيلة الجذب الرئيسية للسوق » (١) • لكن أكثر الفوائد فعالية فى هذه الأسواق تمثلت فى « امتياز الاعفاء » ، الذى يحرر التجار الذاهبين الى السوق من حق الأخذ

(١) Huvelin, op. cit., p. 439.

بالثأر لجرائم ارتكبت أو ديون وقعت خارجها ، ومن حق الاستيراث ، الذي أوقف دعاوى وأحكام الاعدام طالما كان أمان السوق قائما • وأكثر هذه الفوائد عامة كان تعليق الامتيازات الخاصة بالكنيسة من الربا وتثبيت أقصى سعر للفائدة •

واذا ما تفحصنا التوزيع الجغرافي للأسواق التجارية ، يتضح لنا على الفور أن أكثرها شغلا تركز في الغالب حول منتصف الطريق عبر طريق التجارة الكبير • الذي يجرى من ايطاليا وبروفانس الى ساحل الفلاندرز • وكانت أشهر هذه الأسواق التجارية « أسواق شمبانيا وبرى » « Fairs of Champagne and Brie » ، التي تلا بعضها البعض الآخر خلال مجرى العام • ويجيء أولا سوق Lagny — on the — Marne في يناير ، ثم في يوم الثلاثاء قبل mid-Lent of Bar ، في مايو أول سوق بروفانس Provins ، ويعرف بسوق سانت كويرياس Saint of Quiriace ، في يونيو سوق « Warm fair » في مدينة ترويز Troyes ، في سبتمبر السوق الثانى لبروفانس أو سوق سانت أيول Saint Auoul ، وأخيرا ، في أكتوبر ، لاكمال الدورة ، « السوق البارد » Cold fair في ترويز • في القرن الثانى عشر ، تستمر هذه التجمعات لمدة ستة أسابيع ، تاركين فقط فترة الاستراحة الضرورية لنقل البضائع • وأهم هذه الأسواق ، بسبب توقيتها ، كانت أسواق بروفانس وسوق ترويز الدافيء • ولقد كان نجاح تلك الأسواق دون شك راجعا الى موقعها الممتاز • ويبدو من الواضح أنه مع بداية القرن التاسع تردد العدد القليل من التجار في سهل شمبانيا، اذا كما بدا كل شيء يشير الى ذلك الأمر كما ورد في خطاب Loup de Ferrières وكان ذلك في Chappas ، في مقاطعة أيوب Aube • وبمجرد أن انتعشت التجارة ، استمال السفر المتزايد عبر شمبانيا نبلاءها لاحراز الفائدة الكبرى من وراء ذلك لبلادهم وتقديمهم جميع وسائل الراحة للتجار في الأسواق التي أقيمت بجوار بعضها البعض •

وفي سنة ١١١٤ ظل سوق بار وسوق ترويز باقيين لبعض الوقت وبدون شك كان ذلك نفس الشيء مع أسواق لاجني Lagny وبروفانس Provins ، حيث وجدت أسواق أخرى بالقرب منهم (والتي لم تلق نفس النجاح عند بار Bar على السين ، وهي أسواق Chalons on the Marne و Château-Thierry ، و Nogent on the seine ، وغيرها — ومماثلا لهذه الأسواق كانت خمسة أسواق الفلمنكية في بروجز ، ويبرس ، وثورو ، ومسينا عند نهاية الخط الذى يبدأ من عندهم الى بحر الشمال •

ولقد شهد القرن الثانى عشر نموا سريعا غير عادى لنجاح هذا النظام التجارى • وليس هنالك من شك أنه من السابق فى عام ١١٢٧ كانت هنالك صلات نشطة قائمة ما بين أسواق الفلاندرز ومثيلاتها فى شمبانيا، بما وصفه جالبيرت Galbert عن الفرار المرعب لتجار لمبارديا من سوق يبرس ، حين سمعوا أخبار اغتيال كونت شارلز الطيب Count Charles the Good ومن جانبهم وجد الفلمنكيون فى شمبانيا سوقا دائما للابسهم ، الذى يصدر من هناك اما على أيديهم ، أو على أيدى المشترين الايطاليين والبروفنساليين ، الى ميناء جنوة ، ومن هناك يصدر الى موانى الشرق البحرية (١) • ومن شمبانيا ، فى المقابل ، استورد الفلمنكيون خام الحرير المنسوج ، والسلع النهبية والفضية ، واستوردوا بخاصة التوابل، التى يزودون أنفسهم بها فى بروجز Bruges فى نفس الوقت الذى يتزودون فيه بالأقمشة الفلمنكية والنبيذ الفرنسى • وفى القرن الثالث عشر ، بلغت العلاقات التجارية قمة ارتقائها • ففى كل سوق من أسواق شمبانيا نصب البزازون « خيمهم » ، مجتمعين وفقا للمدن ، حيث يعرضون أقمشتهم ، ويركب «موظفو السوق» دون أى عائق بين شمبانيا والفلاندرز، حاملين بضائع وكلائهم (٢) • ولكن اذا كانت أسواق شمبانيا تدين بالفعل بالكثير فى أهميتها للاتصال الذى قامت به مبكرا ما بين التجار الايطاليين والصناعة الفلمنكية ، فانه أدى الى زيادة نفوذهم فى كل أرجاء الغرب • « ولقد أصبح يوجد فى أسواق ترويز Troyes منازل ألمانية ، وأسواق ، وفنادق خاصة بتجار مونبلييه Montpellier ، وبرشلونة ، وفالينسيا ، ولريدا Lérida ، وبروفانس ، وأوفيرجين overgne ، وروان ، ومونتوبان Montauban ، وبرجانديا ، وبيكاردى Picardy ، وجينيف Geneva ، وكليرمونت ، ويبرس ، ودواى Douai وسانت أومير Saint-Omer » • وفى بروفانس ، كان للمبارديين مساكن خاصة بهم ، ولقد أطلق على أحد أحياء المدينة « حى الألمان » Vicus Allemannorum ، مثلما كان هنالك حى للانجليز فى لاجنى Lagny (٣) • ولم يكن الاتجار فى السلع التى تجذب الناس من بعد الى أسواق شمبانيا هى السبب الوحيد لهذا الازدحام فى ذلك الاقليم ، فهنالك روايات عديدة عن الاستيطان الذى حدث هنالك، حتى انها أصبحت ، كما تعنى العبارة الموفقة ، « سوق مال أوربا » (٤) •

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٨ •

(٢) يعطى Espinas وصفا مفصلا حيا عن هؤلاء الوكلاء فى :
Une guerre sociale inter-urbaine dans la Flandre wallonne au XIIIe siècle, pp. 24, 35, 72, 83, etc. (Paris-Lille, 1930).

(٣) Huvelin, op. cit., p. 505.

(٤) L. Goldschmidt, Universalgeschichte des Handelsrechts, p. 226.

وفى كل سـوق تجـارى ، تتبع بعد فترة تمهيدية تخصص للبيع فترة للوفاء والدفع • ولا تشتمل هذه المدفوعات على سداد الديون المعقودة فى نفس السوق فحسب ، بل انه غالبا ما كانت تسدد فيها ديون الأسواق السابقة • ومنذ القرن الثانى عشر فصاعدا أدى هذا النظام الى تأسيس تنظيم لسداد الديون ، نسـتطيع من خـلاله أن نبحث عن أصـل مكوس المعاملات التجارية • وقد كان للايطاليين ، الذين كانوا أكثر باعا من غيرهم من الأوربيين فى موضوع الربا ، الاستهلال فى ذلك والأولوية • وحتى ذلك الوقت لم تكن الصكوك سـوى تعهدات بسيطة مكتوبة لدفع مبلغ من المال فى مكان غير المكان الذى تم فيه عقد الدين ، وهى لفظيا تعرف « بورقة للدفع فى مكان محدد » • ويتعهد الموقع على هذه الورقة أن يدفع فى مكان آخر للملتزم أو للمدين له ،أو لوكيله ، وفى بعض الأحيان يدفع بنفسه هذا الدين من خلال وكيل nuntius يعمل لحسابه • ولما كانت أسواق شمبانيا كثيرة ومتناثرة فى أماكن عديدة فان الديون كانت تدفع فى أحدها أو فى أى منها ، دون النظر الى مكان كتابة صكوكها • ولم يكن ذلك الوضع فقط خاصا بديون التجارة ، ولكنه طبق على السلف البسيطة التى يقترضها الأفراد ، والأمراء أو بيوت العبادة • وأكثر من ذلك فان كل أسواق أوربا التى كانت على اتصال بأسواق شمبانيا أظهرت تلك التعريفة بها ، فى القرن الثالث عشر ، بقيامهم بانجاز الديون وسدادها « بالمقاصة »، وهى تعنى ، تصفيات حسابية • وهكذا كانت الأسواق التجارية فى أوربا فى ذلك الوقت تلعب دور جنين بيوت المقاصات • وحين نتذكر أن الناس الذين تجمعوا هنالك من كل أنحاء القارة ، فانه من السهل علينا أن ندرك كيف أنهم كانوا فى حاجة الى أن يطلعوا عملاءهم على عمليـات القروض الصحيحة المستعملة بين الفلورنتيين والسينيين Sienese ، الذين كان نفوذهم زائدا فى الاتجار فى المال •

ومن الممكن اعتبار أن أسواق شمبانيا قد بلغت قمتها فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر • لكن بداية القرن التالى شهد تقلصها • ولقد كان السبب الجوهرى لذلك ، دون شك ، هو تحول الأسـواق التجارية المتنقلة الى أسواق دائمة ، فى نفس الوقت الذى حدث فيه تقدم اتصال السفن المباشر من الموانى الايطالية الى موانى الفلاندرز وانجلترا • وليس هنالك شك ، أيضا ، فى أن الحرب التى وقعت فى كونتية الفلاندرز وملوك فرنسا من عام ١٣٠٢ حتى ١٣٢٠ ، قد أدت أيضـا الى تقلصها ، بسبب حرمانهم من أنشط جماعات عملائهم الشماليين • وبعد قليل ضربتهم حرب « المائة عام » بالضربة القاضية • ومنذ ذلك الوقت تلاشت هذه المراكز التجارية الكبرى ، التى كانت قد قامت فى أوربا منذ أكثر من قرنين • ولكن الممارسات التى وقعت هناك فتحت الطريق لحياة اقتصادية ، من

خلالها أمكن الاستخدام العام للمخالطة والمراسلة وعمليات القروض عالم العمل من أن يوقف رحلاته الى شمبانيا ٠

٣ - النقود (١)

اختلق الاقتصاديون الألمان لفظ Natural wirtschaft (المقايضة) ، « الاقتصاد الطبيعى » ، لوصف الفترة السابقة لاختراع النقود ٠ وليس من عملنا أن نعتبر أن هذه العبارة كانت مطبقة حقيقة ومناسبة لطبيعة التعامل المالى خلال المراحل الأولى للنمو الاقتصادى ، ولكن من المهم أن نستفسر الى أى مدى كان ذلك اللفظ مستخدما ، كما كان فى الغالب مستخدما ، فى بواكير العصور الوسطى قبل حركة الاحياء للاقتصاد فى القرن الثانى عشر ٠ وان الكتاب الذين يصفون هذه الفترة كواحدة من فترات الاقتصاد الطبيعى قصدوا بوضوح ألا يفهم المصطلح على الاطلاق ٠ فلقد كانوا على علم بأن اختراع النقود كان مستمر الاستعمال بين كل شعوب الغرب المتحضرة وأن الامبراطورية الرومانية ناولتها بدون انقطاع لولاياتها التابعة لها ٠ ولهذا فانه حين توصف العصور الوسطى بأنها فترة اقتصاد طبيعى ، فان ذلك كله يعنى أن الجانب الذى لعبته النقود كان حينئذ صغيرا للغاية وبدرجة قليلة الأهمية فى الغالب ٠ ودون شك أنه كان هنالك قدر طيب من الحقيقة فى تلك المجادلة ، ولكن فى نفس الوقت علينا أن نحترس من المبالغة فى الأمر (٢) ٠

---

(١) Bibliography. M. Prou, les monnaies carolingiennes, Paris, 1896. A. Luschin von Ebengreuth, Allgemgine Münzkunde und Geldgeschichte, Munich-Berlin, 2nd ed., 1926. W. A. Shaw, The History of Currency, 1252-1894, London, 1895. A. Blanchet and A. Dieudonné, Manuel de numismatique française, Paris, 1912-30, 3 vols. H. Van Werveke, Monnaie, lingots ou marchandises ?, in Annels d'histoire économique et sociale, t. IV (1932). Id., Monnais de compte et monnaie réelle, in Revue belge, 1934. A. Landry, Essai économique sur les mutations des monnaies dans l'ancienne France de Philippe le Bel à Charles VII, Paris, 1910. E. Bridrey, La théorie de la monnaie au XIVe siècle. Nicole Oresme, Paris, 1906.

(٢) A. Dopsch, Naturalwirtschaft in der Weltgeschichte (Vienna, 1930)

ولقد اظهر دوبش الوجود المشترك فى مناطق مختلفة للنظام الطبيعى والاقتصاد النقدى ، ولكن ان لم ناخذ فى حسباننا التطور الاقتصادى ورد الفعل الذى احدثه ليس فقط على شكل التعامل المالى ولكن على طبيعته ٠ انظر ملاحظات :

H. van werveke فى : Annales d'histoire économique et sociale, 1931, p. 428 et seq.

وللبداية فى هذا الأمر ، فانه من الخطأ أن نظن أن نظام المقايضة آنذاك قد حل محل النقود كأداة طبيعية للتعامل المالى • فالمقايضة كانت دائما ما تستخدم فى المخالطة الاجتماعية ، وهذا الأمر مازال كثير الوقوع فى أيامنا هذه كما كان فى الماضى • لكن ليس بعد أن اغتصب اختراع النقود وظيفة المقايضة • وحين رجع الناس اليها ، فقد فعلوا ذلك لدوافع الراحة أو مجرد اجراء عارض ، واستخدموها كبديل مؤقت للنقود ، لا لتحل مكانها • وتؤكد لنا المصادر مصداقية ذلك • فمنذ القرن التاسع حتى القرن الثانى عشر كان الناس يوضحون أسعار السلع بثبات ودون تغير بالقيمة النقدية ، ما عدا الحالات التى كانت نية الدفع فيها عينا وليس نقدا • وتظهر القراءات السطحية للجماعات الاكليريكية أن تعاملات قنيلة قد تمت فى الأسواق المحلية ، وكان التعامل فيها عينا ميسرا ، ولم يكن بالضرورة التعامل فيها بالنقد • زيادة على ذلك ، فانه من المعروف ، بعد الفترة الكارولنجية ، أن منحة السوق من قبل الحكام سارت يدا بيد مع منحة حق سك النقود لسيد السوق ، وهذه الملازمة وضحت حقيقة أن النقود كانت شائعة الاستعمال آنذاك كقيمة للسعر وأداة من أدوات الشراء • وكانت قلة قيمة السعر مساوية لقلة البضاعة • وخلال أزمنة المجاعات استطاعت الأديرة بصعوبة أن تتحصل على العملات الصعبة اللازمة لاستيراد الضروريات من الخارج ، كذلك ، فى زمن الرخاء ، لم تكن هذه الصعوبة بسبب وفرة السلع ولكن بسبب وفرة النقود التى بادلوا بها الفائض من نبيذهم وحبوبهم •

ولمواجهة هذه الحقائق الواضحة الثابتة ، فانه من المستحيل أن نضع أى اعتماد على تلك الروايات التى ترجع الى العصر المتأخر التى ، مثلا ، تظهر بلدوين الثالث ، كونت الفلاندرز (٩٥٨ - ٩٦٢) ، وقيام المقايضات فى عهد حكمه ، وأن الدجاجتين بودلتا بأوزة ، والخنزير الرضيع بثلاث أوزات ، والخروف بثلاثة حملان ، والثور بثلاث بقرات صغار (١) • بالاختصار ، فانه ليس هنالك شك من أنه خلال فترة سيادة عقار الأراضى فى العصور الوسطى ، كان هنالك تعامل بالنقد حيث كانت هنالك مبادلات وصفقات تجارية • فى هذه الحالة تكون الرواية صحيحة وأنه من غير الصحيح أن نتكلم عن بديل للاقتصاد الطبيعى بالاقتصاد النقدى •

ولكنا رأينا ، على التو ، أن تجارة ذلك الوقت كانت طفيفة ولا يعتد بها ، وأنه لم يكن هنالك سوى مجرد تحرك بسيط للتجار ، كان من الضرورى أن يصحبه تحرك بسيط للنقود ، يستطيع أن يؤثر فقط خلال

---

(١) من الغريب أن هوفيلين صدق هذه الروايات ، انظر :
Huvelin, Op. cit., p. 538.

دائرة مقيدة للتجارة • ولقد اقتصرت واجبات الأداء الاقتصادية الجوهرية ، فى تلك التى كانت تدفع فى المقاطعات الكبرى الخاضعة للحكومة ، والتى ارتكز عليها حينئذ التوازن الاجتماعى ، والتى نجا منها كلية تقريبا • وهنا يدفع المستأجرون الالتزامات التى عليهم الى سيدهم الاقطاعى عينا • وكان على كل عبد للارض ، وكل مالك لدائرة mansa عدة أيام عمل محددة لتقديم كمية محددة من المنتجات الطبيعية أو من سلع ينتجها بنفسه ، من قمح ، وبيض ، وأوز ، ودجاج ، وغنم ، وخنازير ، وقنب ، وكتان أو أقمشة صوفية • وصحيح أنه كانت تدفع فى ذلك بنسات قليلة أيضا ، ولكنها كانت تمثل مجرد نسبة ضئيلة من الكل ، مما لا يمنع الاستنتاج أن اقتصاد مقاطعات الحكومة الكبرى كان اقتصادا طبيعيا • ولقد كان ذلك الاقتصاد طبيعيا لأنه لم يكن اقتصادا يعتمد على التبادل النقدى ، الذى كان ممنوعا فى الأسواق وأنه كان يتم التعامل به فى أضيق الحدود ، دونما الاتصال بالعالم الخارجى ، ومقيدا بروتين موروث ويستخدم فقط لمجرد الاستهلاك المحلى • فى مثل هذا النظام فان المسلك العملى الشائع للسيد الاقطاعى الذى يعيش على أرضه كان بوضوح هو أن تزرع هذه الأرض بواسطة الفلاحين الأجراء وأن يتسلم منهم انتاجهم الذى لا يستطيع الحصول عليه من أى مكان آخر • كذلك يستطيع هؤلاء الفلاحون الأجراء أنفسهم (Vilains) سكان الاقطاع أن يحصلوا على نقود كافية لهم تعادل فى قيمتها ما عليهم من استحقاقات للسيد الاقطاعى طالما أنهم لم يكونوا يبيعون شيئا من انتاجهم خارج مقاطعتهم •

ولقد كانت الظروف المحققة التى أدى هذا النظام وظيفته تحتها تحمل المقاطعة الكبرى فى العصور الوسطى ضرورة دفع واستلام مستحقاتها عينا • وطالما أن النظام العينى لم يكن يستخدم للتجارة لذا لم تكن هنالك حاجة لاستخدام النقود ، وعلى العكس من ذلك ، فان التجارة بدون النقود لاتستطيع أن تحافظ على نفسها • وهذه الحقيقة كانت حقيقة جوهرية لدرجة أنه حينما تحول الاقتصاد الحكومى تحت نفوذ التجارة ، كان علامة تحوله هو احلال نظام الدفع النقدى كبديل لدفع المستحقات عينا •

وهكذا فان من الخطأ ومن الصواب أيضا أن نصف الفترة ما بين القرنين التاسع والثانى عشر كفترة نظام اقتصاد طبيعى فطرى • والخطأ فى ذلك ، اذا كنا نعنى بذلك أن النقود توقفت عن أن تكون أداة شائعة فى التعامل المالى ، لأنها استمرت باقية كذلك فى الصفقات التجارية • أما الصواب فى ذلك ، اذا كنا نعنى أن دائرة النقود ودورتها كانت محدودة ، طالما كان كل نظام المقاطعة العظمى آنذاك قد استغنى عنها : بمعنى آخر ، أنه فى كل دفع قد تم نتيجة البيع ، استخدمت النقود ،

بينما حدد الاقتصاد الطبيعي الفطري طريقة كل دفعه في الوفاء بالاستحقاقات الشاملة دون مقابل ·

وهنالك حقيقة في غاية الأهمية ، ربما تبدو متناقضة ، وهي أن كل نظام أوربا المالى تحت حكم العهد القديم ونظام الامبراطورية البريطانية اليوم قد أسس في الوقت الذى كانت فيه دائرة النقود قد تقلصت الى أدنى مستوى لها كانت قد وصلته · ومن المستحيل أن نشك أنه كان هنالك انهيار عميق في هذا الخصوص من الفترة المورفينجية الى الفترة الكارولنجية · وحين أغلق الغزو الاسلامي البحر التيرانى سبب ذلك فتقا بين العالم الغربى والاقتصاد القديم ، ظل بكل خاصياته الأساسية باقيا حتى ذلك الوقت · ولقد احتفظت كل الممالك الجرمانية البربرية ، التي تقسمت اليها الامبراطورية الغربية ، بدينار قنسطنطين الذهبى Solidus لعيارهم النقدى · وبرغم سك اسم ملوكهم عليها ، فانها لم تكن في الحقيقة عملة دولية حقيقية ، مقبولة دوليا من سوريا الى أسبانيا ومن أفريقية الى حدود الغال الشمالية (١) · ومنذ بداية القرن التاسع · اختفت هذه العملة في المملكة الكارولنجية ، التى كانت آنذاك دولة زراعية وليس لها أى نشاط تجارى · وفقط في الضواحى حيث ظلت بقية من التجارة ، في فريزيا وعلى الحدود الأسبانية ، كان هنالك بعض العملات الذهبية التى سكت في عهد حكم لويس (التقى) (٢) · وعند ذلك أنهى الاضطراب النورماندى والغزو الاسلامى هذا الدوران الأخير للعملة القديمة · ولقد توقف الذهب ليستخدم كأداة للدفع ، بسبب انقطاع تجارة البحر المتوسط وتوقفها عن غرب أوربا لقرون عديدة · ومنذ حكم بيبين القصير حلت النقود الفضية محل الذهبية ، وفي ذلك كما هو فى أمور أخرى واصل شارلمان عمل والده وأعطاه شكله النهائى ·

وان النظام النقدى ، الذى أنشأه والذى كان أكثر اصلاحاته بقاء ، واستمر حتى اليوم الذى حل فيه الجنيه الانجليزى فى التعامل ، مثل تحولا نهائيا عن نظام روما النقدى · وفى ذلك النظام ، كما هو فى كل سياسة الامبراطورية ، من الممكن ملاحظة الرغبة الصريحة عند الامبراطور ليوفق بينه وبين شئون الدولة الحقيقية ليطبق تشريعا للظروف الجديدة

---

(١) انظر الأعمال المذكورة سابقا ، ص ٢ ، حاشية رقم ١ ·

(٢) من الصعب أن نناقش هنا المقالات التى كتبها دوبتش M. Dopsch (Op. cit., p. 87, n. 24) لاثبات أن دائرة النقود والعملة الذهبية لم تعان من نكسة واضحة فى العصر الكارولنجى · وسوف أعده بعد ذلك فيما بعد لهذا الموضوع المهم ·

التى فرضت على المجتمع يقبل الحقائق ويسلم بها ، من أجل فرض النظام دون الفوضى • وليس فى أى مكان دون هذا المكان يبدو فيه شارلمان كعبقرى خلاق واقعى • ولقد أدرك ، دون شك ، الدور الذى يجب أن تضطلع به النقود آنذاك فى مجتمع غرق لأذنيه للمرة الثانية فى العمل الزراعى ، فى الوقت الذى هو فى حاجة فيه ليتزود بالعملة اللازمة لاحتياجاته ولقد لاءم اصلاحه النقدى تماما عصر الاقتصاد الريفى الذى لم تكن به أسواق ، وتتركز عظمته خاصة فى الاعتراف بهذه الحقيقة • ومن الممكن لنا أن نعرف النظام الكارولنجى النقدى باختصار بتسميته (عصر العملة الفضى) silver monometalism • وبينما كانت الدولة رسميا تجيز لمدة عام أو اثنين سك عملات ذهبية تذكارية ، فانها لم تسك الا عملة فضية • وكان أساس التعامل النقدى جنيها جديدا ، أثقل فى وزنه من الجنيه الرومانى ، لأن وزنه كان ٤٩١ جراما بدلا من ٣٢٧ جراما (١) • ولقد انقسم الى ٢٤٠ دنير (deniers) أو بنس (denarii) من معدن نقى • ويزن كل دنير من هذه البنسات الفضية حوالى جرامين ، ولقد كان نصف البنس (oboli) ، العملة الحقيقية الوحيدة نقدا • لكن جنبا الى جنب معهم وجدت نقود حسابية ، لها أسماء عديدة تختلف حسب عددها بالنسبة للبنس • من هذه النقود (السو sou) أو الشلن (solidus) ، الذى كان يساوى ١٢ بنسا ، والرطل (libra) ، الذى يحتوى على ٢٠ سو ، وهكذا حتى الوصول الى الجنيه الذى يساوى ٢٤٠ بنسا (٢) • وكان الدنير denarii والأوبولى oboli ، أقل هذه العملات قيمة فى هذه الدائرة النقدية الجديدة ، ولكنها كانت متناسبة مع عصر انحصرت الغالبية العظمى من صفقاته فى بيوع قليلة بالمقطع (بالقطاعى) • ومن الواضح أن هذه النقود لم تضرب من أجل تجارة ذات معدل واسع ، وكانت رسالتها الرئيسية هى خدمة عملاء تلك الأسواق المحلية الصغيرة التى يندر ذكرها فى الوثائق الكنسية الاكليريكية ـ والتى يتم البيع والشراء فيها بالدنيرات •

زيادة على ذلك ، فان الدولة قد عانت كثيرا للحفاظ على مستوى الوزن لهذه العملات وحمايتها من الخلط بمعادن خسيسة رديئة • ولقد

---

(١) M. Prou, Les monnaies carolingiennes, p. xliv et seq.

(٢) ومن ثم تشير الوثائق اللاتينية الى أن أنواع النقود الحسابية التى قدرت يجب أن تقرأ فى صيغة الجمع ، وبناء عليه ، فان خمسة الأرطال ، يجب أن تقرأ فى صيغة الجمع ، بمعنى V libras tur تقرأ V libras turonensium وليس V libras turonenses والأخيرة تعنى وزن خمسة جنيهات من الدنيرات المسكوكة فى تور • كذلك فان V sol. tur تعنى V solidos turonensium •

احتفظت الدولة لنفسها بالحق الأوحد لسك العملة وعملت على تركيزها في عدد من دور الضرب تحت رقابتها · ولقد وقع عقاب صارم وجزاءات كثيرة قاسية على المزيفين للعملة وأيضا على الذين رفضوا التعامل فى معاملاتهم بالدنيرات الشرعية الحكومية · علاوة على ذلك ، فان دائرة التعامل النقدي كانت محدودة للغاية · ولقد جاء احتياطى المعدن الذى تسبك منه العملة من العملات القديمة ذات الكسور البسيطة التى يرجع تاريخ سكها الى العصر الميروفنجى أو منذ العصر الرومانى ، كذلك من الغنيمة التى يستولى عليها من البرابرة ، ومن منتجات الغال الفضية ، مثل تلك التى كانت فى مدينة ميل Melle بأكوينانيا · وكانت العملة تصب فى دار الضرب الملكية وتوزع باستمرار فى طبعات جديدة ، وكان ذلك بالطبع يهدف الى محاربة التزييف ·

ولقد بقى نظام شارلمان المالى فى كل الولايات التى قامت بعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية · ولقد تقبل جميعهم الدنير الفضى كوحدة نقدية أساسية ، كذلك تقبلوا السو واللبرة كنقود حسابية · وسواء أطلق على الأول اسم p. Fenning فينيك أو penny (بنس) ، أطلق على الثانى لفظ شلن Shilling ، وعلى الثالث لفظ pfund أو جنيه pound ، فان حقيقة الخلاف بين التسميتين واحدة لكل منهم · وظل التعامل بالذهب قائما فقط فى الغرب فى الأراضى التى كانت تحت حكم البيزنطيين ، مثل جنوب ايطاليا وصقلية قبل احتلال النورمانديين لهما ، أو فى أوقات حكم المسلمين لهما مثلما حكموا أسبانيا· ولقد سك الأنجلو - سكسون أيضا عملات ذهبية قليلة ، قبل غزو عام ١٠٦٦ الذى أخضع انجلترا أيضا للحكم العام ·

وبرغم ذلك ، فان انحلال الامبراطورية الكارولنجية وتدهور الادارة الملكية فى النصف الثانى من القرن التاسع يرجعان الى فرض نفوذهما على النظام النقدى · واذا كانت المميزات الأساسية للنظام النقدى قد حوفظ عليها أينما كانت ، الا أن هنالك أماكن أخرى قد أجرت تغييرا عميقا فى الممارسة · وبين الملكيات التى استظلت بالسطوة الملكية لم يتوان الأمراء الاقطاعيون عن اغتصاب حق سك العملة فى اماراتهم ، وفى نفس الوقت أيضا سمح الملوك ، من جانبهم ، بمنح هذا الحق لعدد من الكنائس · وسرعان ما صار يوجد فى الغرب عدد كبير من الدنانير المختلفة يتعامل بها ، كذلك كان هنالك عدد كبير من الاقطاعيين الذين يتمتعون بحق العدالة السامية (haute justice) ونتج عن ذلك كله اضطراب وارتباك هائل · ولم يقتصر الأمر على كثرة أنواع العملة الرائجة آنذاك والمستعملة ، لكن تمثل فى عدم وجود أية ضوابط فى أمر هذه العملات ،

فان عيارها ونقاءها قد انحط أكثر فأكثر • ولقد حلت جنيهات أخرى محل جنيه شارلمان فى مقاطعات مختلفة • ومن بداية القرن الحادى عشر أدخل فى ألمانيا عيار جديد للعملة ، وهو المارك ذو الـ ٢١٨ جراما ، الذى كان من المحتمل أن يكون اسكنديناوى الأصل ، وقد أعطى هو نفسه أصلا لماركات أخرى ، كان أكثرها شهرة ماركات كولونيا وترويز • ويضاف الى أسباب هذه الاضطرابات ، ذلك الاستغلال الذى قام به الأمراء للعملة والذى كان أخطرها جميعا •

وكانت النقود ، فى فترات معينة ، « تجمع » ، بمعنى أنها تسحب من دائرة التعامل المالى ، وتؤخذ الى دور الضرب ، لاعادة سكها للجمهور فى عملات جديدة تكون أخف وزنا وأكثر خلطا فى المعدن ، وكان الأمراء يحصلون الفرق بين العملتين • وعلى هذا النحو تنقص القيمة الحقيقية للعملة ، وحلت محل بنس شارلمان الفضى النقى عملة ثقيلة الوزن ومخلوطة بمعدن النحاس ، لدرجة أنه مع مجىء منتصف القرن الثالث عشر، لم تعد معظم الدنانير من الفضة الخالصة ، ولكن أصبح معظمها دنانير سوداء (*) (nigri denarii) •

ولم تكن السياسات الملكية سبب هذا الاضطراب النقدى فحسب ، ولكن أيضا ظروف العصر الاقتصادية • فطالما تختفى التجارة ، يصبح تغير القيمة المادية للعملات عائقا لدائرة النقد•وفى مجتمع غالبا ما تعقد صفقاته فى الأسواق المحلية ، يكون الناس قانعين بالنقود المستعملة محليا فقط على حدودها أو على ما جاورها من المقاطعات • ولقد اكتنفت ندرة التبادل التجارى ندرة مماثلة لدائرة النقد ، ولم يزعج النوع الردىء للعملات المتداول آنذاك أهل ذلك العصر كثيرا بعد أن انخفضت التجارة فيه الى أدنى معدلاتها •

ومع ذلك ، فان من الطبيعى أن يعمل النشاط الاقتصادى الذى تفجر عند نهاية القرن الحادى عشر وأن يرتبط بارجاع سهولة حركة النقود التى كانت قد ركدت فى أنحاء المراكز التى ضربت فيها • وبدأت النقود تساقر مع التجار ، ومن كل الأنحاء سحبت نقود من كل الأنواع بواسطة التجارة الى المدن والأسواق التجارية ، ولقد أصلح التداول المتزايد للنقد النقص الواضح فى المعادن المطلوبة لسك العملات • زيادة على ذلك ، فان اكتشاف معادن الفضة فى فريبرج Freiburg ، فى منتصف القرن الثانى عشر ، جلب مؤنا جديدة لتغذية العملة • ومع ذلك ، لم يكن المعدن كافيا على الدوام لسك العملات المطلوبة للتجارة حتى نهاية العصور الوسطى • ولم يزد انتاج الفضة السنوى فى أوربا الا بعد منتصف

(*) الدنانير السوداء هى دنانير ليست من الذهب الخالص ولكنها خلطت بمعادن اخرى ، وصار الذهب يكون ثلث حجمها فقط •

القرن الخامس عشر ، حين استغلت مناجم الفضـــة فى سكسونيـا ، وبوهيميا ، والتيرول ، وسالزبورج ، والمجر • ولقد استغل أمراء هذه البلاد هذا التزايد فى دائرة التعامل النقدى لصالحهم ولتحقيق أرباح خاصة لهم• وبسبب انفراد هؤلاء الأمراء بحق سـك العملات ، فانهم خولوا لأنفسهم استخدامها لثرائهم الخاص ، مغفلين ثراء العـامة • وكلما ازداد التعامل النقدى الذى صاحب الحيـاة الاقتصـادية ، تعرضت هذه النقود لكثرة الخلط والتزييف من قبل أولئك الذين تخصصوا فى غش النقد • وأصبح من الشائع والمعتاد ، خاصة فى القرن الرابع عشر ، اصدار نقود جديدة ، تناقصت قيمتها يوما بعد يوم ، وصارت النقود تجمع باستمرار وتسك وتوزع ثانية وهى فى أسوأ حال عن ذى قبل • وكانت هنالك عمليات مالية مماثلة كثيرة الوقوع فى ألمانيا ، حيث ، خلال الاثنتين وثلاثين عاما التى حكمها برنارد الأسكانى Bernard of Ascania ، تغيرت العملة ، وخلطت بمتوسط ثلاث مرات كل عام (١) •

ومن الطبيعى أن الوضع كان أحسن فى البلاد التى كان نفوذ سكان الحضر قد فرض بعض القيود على تعاملات الأمراء الجائرة فى أمـــر ليس هنالك ما يتفوق عنه فيما يختص بالتجارة والصناعة • وعلى سبيل المثال ، ففى اقليم الفلاندرز حدث أن حصل بورجوازيو سانت أومير سنة ١١٢٧ من كونت تييرى كونت الألزاس Thierry of Alsace على منحة حق سك العملة • وقد فسخت هذه الهبة فى العام التالى (٢) ، ولكن ذلك كله يعطينا شهادة على حالة الفساد السائد آنذاك والذى لايمكن التغاضى عنه ، والذى كان من نتيجته أن النقود الفلمنكية ، رغم أنها لم تنج من الانحطاط العام الذى حل بكل عملات العصور الوسطى ، كانت دائما متميزة بسبب تفوقها النسبة • ولقد أظهر دينار كولونيا ، الذى كان واسع الاستعمال فى أراضى الراين ، كذلك ثبـاتا ملحوظـا فى القرنين الثـانى عشر والثالث عشر (٣) • وفى انجلترا كان حق سـك العملة مكفولا للملك وحده دون غيره ، وظلت النقود الانجليزية تحتفظ بنوعيتها الجيدة عن تلك التى كانت فى أى قطر آخر ، ولقد عانت انجلترا قليلا من التجاوزات الحاصلة آنذاك فى القارة الأوروبية من قبل عدد من الأمراء الذين اغتصبوا النقـــد •

ولقد قاومت الممالك هذا الاغتصاب بقدر استطاعتها • وفى الوقت الذى حرم ضعف قوة ألمانيـا وايطاليا منذ القرن الثالث عشر هذه البلاد

(١) Kulischer, Op. cit., t. I. p. 324.

(٢) A. Giry, Histoire de la ville de Saint Omer, p. 61.

(٣) W. Havernick, Der Kolner Pfenning im XII und XIII Jahrhundert, Stuttgart, 1930.

من أن تستعيد حقوقها الملكية فى ذلك الأمر وفي غيره ، فقد أدى ذلك بالطبع الى مزيد من التنازلات عن هذه الحقوق لجموع الأمراء والمدن ، وفى فرنسا ، من الجانب الآخر ، بدأت السلطة الملكية تثبت أقدامها منذ عهد حكم فيليب أغسطس Philip Augustus • وهنا فى فرنسا ، وأكثر من أى مكان آخر ، فان البارونات الاقطاعيين كانوا مغتصبين لحق الامتياز النقدى • وتحت حكم (الكابيين) الفرسان Capetians تملك حوالى ٣٠٠ اقطاعى حق سك العملة ، وكان هذا الحق من أهم الأهداف الثابتة التى عمل الملك على استردادها كلما واتته القوة لذلك • ولقد نجح الملك فى ذلك ، حتى انه لم يبق فى بداية القرن الرابع عشر أكثر من ثلاثين اقطاعيا على دار سك نقودهم ، وفى سنة ١٣٢٠ ـ ١٣٢١ قرر فيليب الثانى (الطويل) مشروعا عاجلا بتخصيص مؤسسة واحدة لسك العملة لكل المملكة (١) •

وفى سبيل استعادة حقهم الملكى فى سك العملة ، تحرك الملوك من جانبهم معتمدين على اعتبارات السيادة • واعتبروا وضع نهاية لتعسفات الاقطاعيين والمحافظة على مستوى العملة أمرا ضروريا وحقا شرعيا لهم لايمانهم بأن سك العملة وحده يعد مصدرا من أكثر مصادر دخلهم قيمة • وهكذا حين أصبحت العملة مرة أخرى ملكية ، فانها لم تكن مستقرة أو ثابتة أكثر مما كانت عليه ذى قبل • ومن عهد لعهد ازداد سوء العملة المضروبة وساءت نوعيتها • ولقد صدرت تشاريع متتالية تبين القيمة الاسمية لهذه العملات وفقما يريد العرش ، فى الوقت الذى كانت فيه قيمتها الفعلية متواصلة الانخفاض • وكانت قيمة العملة ترفع أو تخفض حسبما كان وضع الملك دائنا أو مدينا • وفى ذلك كان فيليب (الجميل) الوحيد الذى عمل وفق الممارسة الجارية المتداولة • ولقد ساد جو العملة آنذاك تقلبات مستمرة تقودنا الى الاعتقاد بأن هذه الفوضى النقدية قد أدت الى استحالة قيام التجارة ، وكان من الممكن أن نقول ان ذلك هو السبب الوحيد للفوضى الحاصلة حينذاك فى أوربا لولا أن وثائق عصرنا قد أمدتنا بمعلومات عن نشوب فوضى شديدة مماثلة ترجع الى أسباب أخرى غير سبب الفوضى النقدية • ولقد زادت الطريقة المتخلفة للنقد من الفوضى والتشويش ، لأنها كانت غير قادرة على توفير وزن ومستوى مطابق ومماثل للعملات الصادرة من دار الضرب • ولقد كان من السهل آنذاك للحاصدين التقاط فضلات حصاد محصولهم من النقود المتداولة ، ولم توقف جزاءات التعذيب بالماء المغلى المزيفين من اغراء استغلال الدولة فى أمور محببة لهم •

---

(١) P. Lehugeur, Histoire de Philippe lelong, p. 368 (Paris, 1897).

ولقد وصلت الفوضى النقدية الى درجة يصعب معها الاصـلاح منذ نهاية القرن الثانى عشر ، وأصبح الاصلاح ضروريا آنذاك • ومن الأهمية بمكان ذكر أن بشائر الاصلاح جاءت من البندقية ، أهم مراكز تجارة ذلك العصر • ففى سنة ١١٩٢ أوجب الدوق ، هنرى دانْدولو Henry Dandolo ، سك عملة جديدة تمـاما فى بلاده ، هى الجروت groat أو gros أو matapan ، وهى تزن مايزيد بقليل عن الجرامين من الفضة وتساوى فى القيمة ١٢ من الدنانير القديمـة (تسـاوى أربعـة بنسات) • وكانت هذه الجروت مسـاوية للسو الكارولنجى ، باختلاف أن السو ، كان عملة حسابية ، فأصبح الآن عملة نقدية حقيقية • ولم يبطل التعامل بنظام شارلمان واعتمد التجديد على ميزان عملتـه • وكل ما جاء به هذا التغيير هو الاستفادة من التدهور المستمر للدينار القديم واستبدال دينار جديد مكانه ، تساوى قيمته ١٢ من هذه الدنانير القديمة (واشتق اسمه من grossus) وهو مساو تماما للسو القديم الذى أصبح الحد العددى الصحيح للنقد • وبمعنى آخر ، فان النظام الجديد ظل ملزما بالقديم ، باستثناء أنه أعطى الدينار الجديد قيمة معدنية تساوى ١٢ مرة من قيمة الدينار القديم • وظـل الدينار القديم باقيا دون أن يلغى التعامل به ، ولقد أخذ الجروت مكانه الى جانبه كعملة فى التجارة ، مخفضا قيمة الدينار فى التعامل الى درجة أقل •

ولقد استجاب الجروت البندقانى الجديد لحاجات التجار بشكل كبير لدرجة أنه صار على الفور يقلد فى كل مدن لمبارديا وتسكانيا • ولقد قام شمال الألب أيضا باصلاحات لعلاج تزييف العملة الذى كان حتى ذلك الوقت غير محتمل • وفى ألمانيا ، حيث بدا الوضع أسوأ من أى مكان آخر ، فان الهيلر (Heller) « وقد سمى كذلك نسـبة لمدينة هال Halle فى سـوابيا حيث ضرب هنالك لأول مرة » قد تسبب فى ايجـاد دينار جديد فائق فى الوزن عنه وأنقى منه • وفى انجلترا فان الجنيـه الاسترلينى Sterling كعملة نقدية الذى ظهر عند نهـاية القرن الثانى عشر ، كان أيضا دينارا مقبولا • الا أن فرنسا ، التى كان المثال الايطالى ، الهاما لها ، فقد اكتشفت العلاج الحقيقى لأمر العملة • ففى سنة ١٢٦٦ أوجد لويس التاسـع الديـنـار المعروف باسم (الجروس تورنوا) gros tournoi أو (grossus denarius turonensis) وبعد قليل أوجد (الجروس باريسيز) gros parisis ، الذى كانت قيمته تزيد عن الأول بمقدار الربع • وسرعان ما انتشرت هاتان العملتان فى داخل كل أوربا ، مثلما انتشر فى ذات الوقت الفن القوطى وأدب الفرسان • ولقد لعبت أسواق شمبانيا دورا مهما فى هذا الانتشار ، الذى أعطى لهاتين العملتين مرتبة العملة العالمية • وسرعان ما ضربت هذه العملة فى اقليم

الفلاندرز ، فى برابانت ، وفى اقليم ليبج واللورين • ومنذ سنة ١٢٧٦ ظهر الجروس تورنو ، الذى عرف فى ألمانيا باسم الجروشين groschen فى وادى الموزيل ، وقبل نهاية القرن الثالث عشر وصل الى كولونيا ومنها انتشر الى كل الأراضى الألمانية أسفل الراين ، مثلما انتشر فى الأراضى المنخفضة الشمالية • ولقد تساوى النجاح الملحوظ الذى حققه الجروس تورنوا مع الاسترلينى العملة الانجليزية التى تحسن حالها فى نهاية القرن الثالث عشر ، وصار يسك على غرارها على الفور فى ألمانيـــا والأراضى المنخفضة • وهكذا فانه بظهور هذه الجروتات افتتح شكل جديد فى تاريخ النقـد • ولم يكن هنالك نقض للنظام الكارولنجى ، بل جـرت محــاولة للتوفيق بينه وبين احتياجات التجارة • وسرعان ما أثبتت العودة للتعامل بالعملات الذهبية وقدمت اثباتا آخر للحاجة الى تزويد التجارة بأداة دفع تكون كافية لمتطلباتها المتزايدة •

ومنذ ذلك الوقت بدأت تجارة القرن الحادى عشر للبحر المتوسط فى نشر العملات البيزنطية والعربية الذهبية ، فى أول الأمر فى ايطاليا ، ثم بعد ذلك فى شـــمال الألب • لكن هــذه العملات المنتسبة للبيزنطيين وعرفت باســم bezants أو للمرابطين marabotins المسلمين ، كانت عادة تحمل بواسطة أولئك الذين جاءوا الى حيازاتهم وبدا أنها استخدمت فقط كوسيلة من وسائل الدفع فى ظروف استثنائية ، قاسية لنفقة فوق العادة (١) • وفى سنة ١٧٠١ ، على سبيل المثـــال ، قامت الكونتيســة روتشيلدا كونتيسة هينو (Countess Richilda of Hainault) برهن ولاية شيفينى chevigny لرئيس دير رهبان سان هوبير Saint-Hubert مقـــابل ما يزيد على ٥٠٠ بيزانتس ذهب(٢) • ولم يكن الذهب شائع الاستعمال آنذاك فى ظروف التعاملات المالية العادية ، برغم أن رجال البحر الايطاليين من المؤكد أنهم اكتشفوا فوائده منذ وقت مبكر من خلال صفقاتهم مع الشرق وأنهم رغبوا فى أن يتعاملوا به داخل أقطارهم •

---

(١) بصدد استعمال الذهب كعملة نقدية قبل عصر الاحياء ، انظر : بلوش M. Bloch, Le problème de l'or au Moyen Age, in Annales d'histoire économique et sociale, 1933, p. i et seq.

ويركز الكاتب على تزييف بعض الامراء العملات الذهبية الأجنبية • ولكن ليس هنالك أثر فى وجودها فى دائرة التعامل النقدى التجارية آنذاك ، ويبدو انها كانت تستخدم أساسا كأداة دفع للقروض وفى الظروف الاستثنائية •

(٢) La Chronique de Saint Hubert, dite Contatorium, ed. K. Hanquet, p. 68 (Brussels, 1906).

وفى سنة ١٢٣١ قام فردريك الثانى بسك ديناره الذهبى البديع (Augustales) فى صقلية ، وكان فاتحة عملات العصور الوسطى ، لكن هذه الدنانير لم تنتشر الى أبعد من حدود جنوب ايطاليا • وليس قبل عام ١٢٥٢ أن قامت فلورنسا بسك أول فلورين لها من الذهب (fiorino d'oro) ، ولقد سمى بذلك لأنه طبع وختم بزهرة السوسن ، شعار المدينة ، وقد فتح هذا الفلورين الطريق أمام التعامل بالعملة الذهبية فى أوربا • وسرعان ما تبعت جنوة ذلك وفى سنة ١٢٨٤ أصدرت البندقية صورة من الفلورين فى عملتها الدوكات ducat أو Zechin • وكانت هاتان العملتان النقيتان ، التى تزن كل منهما ٣ ½ جرام ، ساوت فى القيمة جنيه الجروس الفضى ، كما ساوى الجروت بدوره قيمة السو • وهكذا ، بمقدم الذهب الى أوربا ، تحول الجنيه ، مثل السو ، من جنيه حسابى الى عملة حقيقية • وأصبح الدينار ، الذى كان العملة الوحيدة فى دائرة التعامل المالى الحقيقية فى العصر الكارولنجى ، من الآن فصاعدا مجرد عملة لفئة قليلة • ولقد فرض اغلاق البحر المتوسط فى القرن الثامن العملة الفضية على غرب أوربا لمدة طويلة ، والآن مكن انفتاحه العملة الذهبية لتستعيد دورها القديم هناك • ولقد كان التقدم الاقتصادى فى ايطاليا بيانا كافيا لسبق القيادة الذى صاحب افراز العملة الذهبية مشابها لسبقه فى افراز الجروت • ولكن فى كلتا الحالتين لم تتباطأ أوربا فى اتباع مثالها ، وقد جاء التقليد لها فى حالة الذهب أسرع مما جاء فى حالة الجروت ، وتلك حقيقة لا شك فى انتسابها الى النمو المتزايد للعلاقات التجارية • وبكل الاحتمالات فلقد حدث عام ١٢٦٦ ، وهو العام الذى ظهر فيه الجروس تورنوا ، أن أصدر لويس التاسع أولى الدنانير الذهبية للتعامل بها فى شمال الألب ، وتبعها بعد ذلك نتاج وافر من العملات الذهبية فى عهد خلفائه من بعده • وفى خلال القرن الرابع عشر دشنت الحركة على هذا النحو الانتشار فى كل القارة الأوربية • وفى أسبانيا يعود التعامل الذهبى الى الفونسو الحادى عشر حاكم قشتالة Alfonso XI of Castile (١٣١٢ ـ ١٣٥٠) ، وفى الامبراطورية أخذت بوهيميا عجلة القيادة فى عام ١٣٢٥ ، وفى انجلترا أصدر ادوارد الثالث فلورين ذهبيا سنة ١٣٤٤ • ولقد سكت عملات ذهبية فى أجزاء عديدة من اقليم الفلاندرز حيث كانت التجارة هنالك نشطة للغاية ، فى الفلاندرز تحت حكم لويس نافارون Louis de Nevers قبل عام ١٣٣٧ ، وفى بارابانت تحت حكم يوحنا الثانى John II (١٣١٢ ـ ١٣٥٥) ، وفى اقليم لييج تحت حكم انجلبرت دى لامارك Englebert de la Marck (١٣٤٥ ـ ٦٤) ، فى هولندة تحت حكم وليم الخامس (١٣٤٦ ـ ٨٩) ، فى جيلدرز Guelders تحت حكم رينو الثالث (١٣٤٣ ـ ١٣٧١) •

ولقد أعاد تواجد الجروت والعملة الذهبية دائرة التعامل النقدى ثانية الى ظروف صحية للغاية ، لكن اساءة استعمال هذه العملات ظل أمرا لازال قائما • ولقد استمر الملوك والأمراء فى غش العملة واعطائها تسعيرة جائرة • وظلت النقود تتبع منحنى منحدرا • وقد ضحت السياسة العامة بالمصالح الاقتصادية لحساب المصالح الحكومية ، ولقد لقى أول حكم لفهم جيد لهذه الأمور قام به نيكولاس أوريزم Nicholas Oresme فى القرن الرابع عشر آذانا صماء • ولقد احتاج الأمر لقرون عديدة تمضى قبل أن تشرع الحكومات فى اتباع المبادىء الصحيحة للادارة المالية •

٤ ـ تسليف الأموال ومقايضتها (١)

كان للنظرية التى قسم بمقتضاها النشاط التجارة الى ثلاثة أشكال

---

(١) Biography. I. Goldschmidt, Op. cit., p. viii. M. Postan, Credit in Medieval Trade, in The Economic History Review, Vol. I (1928). R. Génestal, Le rôle des monastères comme établis ements de crédit, Paris (1901). L. Delis'e. Les opérations fianciéres des Templiers. Paris (1889). H. Van Werveke, Le mort-gage et son rôle économique en Flandre et en Lotharingie. in Revue belge de philol. et d'histoire, t. VIII (1929). G. Bigwood, Les financiers d'Arras, ibid., t. III (1924). R. L. Revnold , The Merchants of Arras, ibid., t. III (1924). R. L. Reynolds. The Merchants of Arras, ibid., vol. IX)(1930). H. Jenkinson, A Monevlender's Bonds of the Twelfith Century, in Essavs in History, Presented to R. Lane Poole, ed. H.W.C Davis, London (1927). G. Bigwood, Le régime juridique et économique du commerce de l'argent dans La Belgique du Moyen Age, Brussels, 1921-2, 2 vols. (Mém. Acad. Belgique). S. L. Persuzzi, Storia de commercio e dei banchieri di Firenze (1200-1345), Florence (1969). A. Sapori, La crisi delle compagnie mercantili dei Bardie dei Peruzzi, Florence, 1926. Id., Una compagnia di Calimala ai primi del trento. Florence (1932). Id., I Libri di commercio di Peruzzi, Milan (1934). — A. Ceccherelli, Le scritture commerciali nelle antiche aziende fiorentine, Florence, 1910. E. H. Byrne, Commercial Contracts of the Genoese in the Syrian Trade of the XIIth Century. in The Quarterly Journal of Economics, vol. XXXI (1916). — A.E. Savous, Les opérations du capitaliste et commerçant marseillais Etienne de Manduel, entre 1200 et 1230, in Revue des Questions historiques (1930). Id. Dans l'Italie médiévale a l'intérieur des terre ; Sienne de 1221 à 1229, ibid, t. III (1931). Id., Les méthodes commerciales de Barcelone au XIIIe siécle, in Estudis universitaris catalans, t. XVI (1932). Id., Les mandats de Saint Louis sur son tré or, in Revue historique, t. CLXVII (1931). F. Arens, Wihelm Servant von Cahors als Kaufmann zp London,, in Vierteljahrschrift für Social und Wirtschafts chichte, t. XI (1913). W. E. Rhodes, The Italian Bankers in London and their loans to Edward I and Edward II in Owens College Essays, Manschester (1902). W. Sombart, Die Juden und das Wirtschaftsleben, Leipzig (1911). A Sayous, Les Juifs ont-ils été les fondateurs du capitalisme moderne ? in Revue économique internationale (1923). W. Endemann, Studien in die —

متتالية ، اختص الشكل الأول منها بالمبادلة والمقايضة (Naturalwirtschaft) ، والثانى بالنقود (Geldwirtschaft) ، والثالث بالتسليف (Kredit wirtschaft) ، ذات شيوع ورواج قديم • ومع ذلك ، فان دراسة الوقائع سرعان ما تكشف وتوضح لنا أنه ليس هنالك لها أى أساس فى الحقيقة ، وأنها ليست سوى مثل من أمثلة حب التنظيم والتنسيق الذى غلب على دراسة التاريخ الاقتصادى • وبينما كان من المحقق أن التسليف قد لعب دورا ملحوظا ومتزايدا ، فانه من المحقق أيضا أن ذلك الدور كان ملحوظا وقائما فى كل العصور • وقد كان الاختلاف بينهما فى هذه الناحية فقط فى الكمية وليست فى النوعية •

وكان من الطبيعى ، خلال عصر عقارات العصور الوسطى أن لانتساءل عن القرون التجارية بمفهوم الكلمة ، التى من المستحيل أن تكون قد ظهرت فى عصر تجارة متقطعة وعرضية وفى غياب طبقة التجار المحترفين • لكن من ناحية أخرى فمن الواضح أن المجتمع المحصور والمعتمد على اقتصاد ريفى وليس به أسواق ، رغم ذلك كان مفعول التسليف فيه كبيرا ، ذلك لأنه من الصعب أن نرى أن هذه الارستقراطية مالكة العقار والأرض ونفسر كيف استطاعت أن تحافظ على وضعها دون مساعدتها لها • وبفضل هذه السلفيات ، استطاع المجتمع أن يتغلب على الكوارث التى تقع به كل مدة وتهدد الناس بالمجاعة •

ولقد كانت الكنيسة المقرض الضرورى لهذه الفترة • ولقد رأينا قبلا أنها كان لديها رأسمال سائل جعل منها قوة مالية من الدرجة الأولى •

= die romanisch-kanonistischen Wirtschafts — und Recht lehre, Berlin (1874-83). 2 vols. F. Schaub, Der Kampfgegen den Zinswucher, ungerechten Preis und unlauteren Handel, Freiburg (1905). H. Pirenne, L'in truction des marchands au Moyen Age, in Annales d'histoire économique et sociale, t. (1929). A. Schiaffini, Il mercar 'e Genovese del dugento in the review A compagna, an. 1929. F. Rörig. Das alteste erhaltene deutsche ûaufmannsbüchlein, in Hansische Beitrage zur deutschen Wirtschaftsgeschichte, Breslau (1928) F. Keutgen, Handsiche Handelsgesellschaten vornehmlich des XIV Jahunderts, in Viertel jahrschrift für Social und Wirtschaftsgeschichte, t. IV (1906). J. Kulischer, Warenhandler und Geldousleiher im Mittelater, in Zeitschrift für Volkwirtschaft, Sozialpolitik und Verwalung (1908). A. P. Usher, The Origins of Banking. The Primitive Bank of Deposit, in The Economic History Review, Vol. IV (1934).

(١) « كان البيع بالاقراض ، الذى كان منكرا بوجه عام ، يشكل قاعدة مالية لتجارة العصور الوسطى • أما عن الأشكال المختلفة للاقراض فليس هنالك شك فى وجودها ، الا أن أداءها قد فسر تفسيرا خاطئا •

(Postan, loc. cit., p. 261)

وتمتلىء المصـــادر التاريخية بتفاصيل ثروات ذخائر الأديرة ، المكتظـة بالتحف ، والشمعدانات ، والمباخر ، والأوانى المقدسة المصنوعة من المعادن الثمينـــة ، والقرابين الكبيرة والصغيرة ، التى يقدمها التقـــاة الأسخياء لمحسوبيهم الذين لا أرض لهم ويعملون فى أرض القديسين أصحاب النفوذ، فكان تدخـل هـؤلاء القـديسين ضروريا بتقديم المال واقراض خـدمهم ، وكانت كل كنيسة ذات صيت تمتلك على هذا النحو تحت تصرفها أموالا ، ليست فقط لزيادة أبهة قداسها ، ولكن كانت رأس مال مدخر وافر لها ٠ فى وقت الحاجة كانت تقوم بمجرد صهر بعض القطع المصنعة من النحاس وترسل المعدن الى دار ضرب مجاورة لها ، لتحصل على مبلغ مماثل من النقود ، وكان هذا اجراء لجأت اليه الأديرة ، ليس لصالحها ، بل لصالح الآخرين ٠ واذا أراد كبير أساقفة أن يدفع مبلغا غير عادى ، سواء أكان لشراء مقاطعة أم لخدمة الملك ، فانه يتجه لطلب المساعدة من أديرة دوقيته ٠ وهنالك أمثلة لاحصر لها لمثل هذه القروض ٠ فمثلا ، عنـــدما اشترى أوتبيرت Otbert ، كبير أساقفة لييج ، قلاع بويلون Bouillon وكوفان Couvin فى سنة ١٠٩٦ ، واجهت كنائس الدوقية سداد تكاليف هذه الصفقة (١) ٠

لكن فوق كل ذلك ، فى أوقات القحط والجدب والمجاعات تصبح ذخائر الأديرة تحت الطلب الرسمى ٠ فهى تلعب دور مؤسسات التسليف والاقراض لاقطاعات الأمراء الاقطاعيين المجاورين ، الذين نضب احتياطيهم والذين يضطرون للحصول على وسائل الحياة الضرورية نقدا ٠ وتقوم هذه الأديرة بتقديم الأموال الضرورية مقابل رهن أرض المقترض كضمان دفع ما عليه من دين ٠ وكان ذلك يسمى « رهن قائم حى » (vif gage) ، حين يسهم ايراد الممتلكات المرهونة فى وفـــاء الدين الرئيسى ، ويسمى « رهن ميت » (dead gage) أو (mortgage) حين يصل دخل الأرض الى الدائن دون انقاص للدين الأصلى ٠ وفى كلتا الحالتين يراعى منع الربا ، طالما أن المال الأصلى المقترض لم يأت لنفسه بأية فوائد ٠

وفى عمليات ، مثل هذه العمليات ، التى تزايدت كثيرا حتى منتصف القرن الثالث عشر ، كانت القروض مجرد قروض استهلاكية ، بمعنى ، أنها كانت تعقد تحت الحاح حاجة ماسة ، وتصرف النقود المتحصلة منها فورا وفى الحال ، لدرجة أن كل مبلغ مقترض كان يمثل خسارة ميتة ٠ وحين منعت الكنيسة الربا لأسباب دينية ، قامت بصنيع طيب واضح لمجتمع العصور الوسطى الأولى ٠ فلقد أنقذهم ذلك من الوقوع فى عبودية رق الدين ، الذى عانى منه العالم القديم بشدة ٠ ولقد تواءم البر المسيحى هنا

---

(١) H. Pirenne, Histoire de Belgique, t. I, 5th ed. p. 139.

بتطبيق مبدأ الاقراض دون عوض بصرامة ، ولقد طبقت قاعدة مساعدة الناس دون فائدة (mutuum date nihil inde sperantes) بشدة فى فترة لم تكن النقود فيها أداة للثروة ، وظهرت أى فائدة تؤخذ عنها على أنها فرض واغتصاب • لكن انتعاش التجارة ، باكتشاف ثمار رأس المال السائل ، آثار مشاكل فشل الناس فى ايجاد حل لها • وحتى نهاية العصور الوسطى استمر المجتمع الأوربى يمزقه القلق فى مسألة الربا المخيف الذى كان على المعاملات التجارية والقيم الدينية مواجهته مباشرة • وللحاجة فى الحصول على حل أحسن ، فقد تم تجنيبه عن طريق التفاهم والتحايل •

وندرة مصاردنا تجعل من المستحيل أن نكتشف الظروف التى بدأت تحتها أول قروض تجارية ، لكن دون شك أنه كان على التو فى القرن الحادى عشر يوجد عدد لا بأس به من التجار يتصرفون فى رأس مال سائل • وضمن هؤلاء يجىء تجار لييج ، الذين أقرضوا رئيس رهبان دير سانت هوبير Saint-Hubert مبلغا كان فى حاجة له لشراء مقاطعة (١) • وبرغم أننا لانعرف شيئا عن العقد بين الطرفين ، الا أنه من المستحيل أن نصدق أن هذا القرض كان دون مقابل • ومن الواضح أن المقرضين وافقوا على تقديم قرضهم هذا مقابل فوائد وجدوها كافية ومكافئة ، ومن الصعب أيضا أن نصدق أنهم قد أمسكوا عن أى نوع من أنواع الربا • على أية حال فان التعامل الربوى يظهر فى كامل نشاطه فى منتصف القرن الثانى عشر • ولدينا التفاصيل الكافية عن حياة برجوازى سانت أومير ، وليم المدلل William Cade (الذى توفى حوالى سنة ١١٦٦) ، ما يجعلنا نشك فى أنه اشتغل فى وقت واحد فى تجارة السلع وتجارة النقود • ونحن نراه يقوم بعمليات اقراض حقيقية ، ونراه يشترى الصوف من مراعيه سلفا من الأديرة الانجليزية ، وكان بذلك دون شك يوفق أمور تجار عصره الكبار • فضلا عن ذلك ، فان هنالك شواهد ثابتة عن شراء وبيع بالدين فى كل التجارة بالجملة فى التوابل ، والنبيذ ، والصوف ، والملابس والسلع الأخرى • ومن المؤكد أن نقص التعامل النقدى سوف يجعل امكانية قيام تجارة على نطاق واسع أمرا غير مدرك الا فى حالة افتراض أن هذه التجارة سوف تتعامل مع السلفيات تعاملا عاديا • وبصدد هذا التعامل ، فان ايطاليا ، التى بدأ التقدم الاقتصادى فيها أسبق من الدول مثيلاتها فى القارة الأوربية ، تزودنا ببراهين لا اعتراض عليها • وسرعان ما نجد البنادقة فى القرن العاشر يوظفون أموالهم فى مغامرات حربية ، وبمجرد أن كرس الجنويون والبيزيون

---

(١) Chronique de Saint-Hubert, ed. Hanquet, p. 121.

أنفســـهم للملاحة ، بدأ عدد من النبلاء والبرجوازيين يخاطرون برؤوس أموالهم فى البحر • ورغم ضآلة المبالغ التى اكتنفتها فانها يجب ألا تعمينا عن أهمية هذه الاستثمارات • ومن أجل تقسيم المخاطر وتوزيعها ، ذهب المتاجرون « جماعات » فى عدة سفن فى وقت واحد • وسرعان ما ازدهرت السلفيات فى القرن الثانى عشر ، وقد ظهر ازدهارها بوضوح فى الدور الذى لعبتـه الســلفيات التجـــارية • وكان المقتـرض (commendator) يتعهد لدائنه بنصيب من أرباحه المرتقبة (وكانت فى العادة ثلاثة أرباع الربح) على المبلغ الذى يقوم الأخير باستغلاله فى الخارج (١) • ويعد تأمين الملاحة فى البحر ، التى تبين لنا الوثائق الجنوية أنه كان يعمل بها من القرن الثانى عشر ، تطبيقـــا للســلفيات • وحتى نصف الأشكال الكثيرة والمتعددة التى اتخذت من ذلك الوقت فصـــاعدا ، فانه من الضرورى أن لانتعدى أبعد ما هو ممكن هنا فى ميدان التشريع التجارى • وسوف يظهر انتشـــار هذا التأمين والضمان البحرى المبكر عند الايطاليين ، وبخاصـــة أرباب السفن الجنويين • ومن خـــلال هؤلاء انتشر التأمين من الصفقات البحرية الى كل المعاملات المالية العـــامة • ولقـــد كرست المجتمعات لتجارة البر تحسينات أقل سرعة نوعا ما عن تلك التى خصصت لتجارة البحر ، لكن سرعان ما ظهرت هذه التحسينات قوية ونشطة فى القرن الثانى عشر فى كل مدن ايطـــاليا التجارية • وأصبح آنذاك التعامل بصكوك الدين عاديا ، وهكذا سرعان ما نرى أن الدور الرئيسى الذى لعبوه فى المعاملات التجارية يواكب أسواق شمبانيا التجارية • وان الصكوك التى أوضحتها فواتير الحساب التجارية ، قد سحبت فى ايطاليا وكتبت بواسطة الموثقين العموميين ، وفى جنوب فرنســـا بنفس الواسطة ، وفى اقليم الفلاندرز كتبها الكتبة البلديون • ولقـــد استوجب ارتقـــاء أدوات القروض معرفة القراءة والكتابة بين التجار • ولقد كان نشاط التجارة دون شك سبب تاسيس أول مدارس للأطفال البرجوازيين • وكان على هؤلاء الأطفال أن يعتمدوا أولا تمـــاما على المدارس الديرية ، حيث يتعلمون مبادىء اللاتينية الضرورية للمعاملات التجارية • لكن من الواضـــح أنه ليست روح هذه المدارس أو تنظيمها ، كانا سيسمحان ببذل انتبـــاه كاف لنوع المعرفة العملية التى يتطلبها التلاميذ الذين خصصوا للعمل التجارى • وهكذا فانه منذ النصف الثانى للقرن الثانى عشر بدأت المدن تفتح مدارس صغيرة ، من الممكن اعتبارها نقطة البداية لوضع التعليم فى العصور الوسطى • ولقد عارض القساوسة ، بالطبع ، هذا التدخل للقوة العلمانية فى مجال كان حتى ذلك الوقت ملكا مطلقا لهم • وبرغم أنهم لم يدبروا وقفا لهذه البدعة

---

(١) وفقا لراى بيرين Byrne فان الربح العادى لأى مشاركة جنوية فى القرن الثانى عشر كانت تصل الى نسبة ٢٥٪ •

التى أصبحت ضرورية ولازمة للحياة الاجتماعية ، فانهم غالبا ما نجحوا فى اخضاع مدارس المدن لاشراف لاهوتهم ، برغم أن السلطات البلدية أبقت فى يدها على حق تعيين نظار هذه المدارس ٠

ولقد أحرز غالبية التجار الذين اشتغلوا فى التجارة العالمية فى القرن الثانى عشر دون شك تقريبا درجة متقدمة من التعليم ٠ وقد جاء ذلك من المؤكد أكثر ما جاء نتيجة اعتقادهم بأن اللغات العامية حلت مكان اللاتينية فى أخص أدواتهم ٠ وفى كل الأحوال فانه من الضرورى أن نقر بأن هذه المحاولات بدأت فى تلك الأقطار التى كانت من الناحية الاقتصادية أكثر تقدما ، بمعنى القول ، فى ايطاليا واقليم الفلاندرز ٠ وان أول عقد حرر بالفرنسـية قد جـاء من الأخيرة ٠ وفى ايطـاليا كانت المكاتبات جزءا كبيرا من الحياة التجارية حتى ان اقتناء التجار للكتب صار شيئا عاما ، ان لم يكن ضروريا ولازما مثلما صار فى القرن الثالث عشر ٠ ومنذ بداية القرن الرابع عشر صارت الكتابة مشاعا فى كل أوربا ٠ ولقد بدأت دفاتر حسابات الاخوة بونيس Bonis brothers المسجلة فى مونتوبان فى سـنة ١٣٣٩ (١) ، وكتب حسـاب أوجوتيرال Ugo Teralh فى فوركالكير Forcalquier (٢) تغطى سنوات ١٣٣٠ ـ ١٣٣٢ ٠ ومن ألمانيـا وصلنا ، من بين ما وصـل ، كتب حساب يوهان تولنر من روستوك Johann Tolner of Rostock (٣)، وكتب فيكو فون جلدرنسن Vicko von Geldernsen من هامبـورج (٤) ، وكتب يوهان وتنبـورج Johann Wittenborg ا... بك (٥) ، وأقدم هؤلاء ، ذلك الذى جاءنا من ويريندوربس Warendorps ، وأيضا ما جاء من ليوبيك (٦) ٠ ومع بداية

(١) E. Forestié, Le livre de comptes des Frères Bonis marchands montalbanais du XIV si.cle (Paris-Ausch, 2 vols., 1890-3).

(٢) P. Meyer, Le livre journal de mailre Ugo Teralh, notaire et drapier à Forcalquier (133/2), in Notice et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale, etc., t. XXXvi (1998).

(٣) K. Koppmann, Johann Tolners Handlungsbuch von 1345-135/ (Rostock, 1885).

(٤) H. Nirrnheim.Da Handlungsbuch Vickos von Geldersen (Hamburg- Leipzig, 1895).

(٥) C. Mollwo, Das Handlungsbuch von Herman und Johann Wittenborg (Leipzig, 1901).

(٦) F. Rorig, Hansische Beitrage, etc. cited p. 119, Bib.

أما عن بروجز فلم يتبق لنا الا أجزاء من كشف حساب كولار دى مارك (١٣٦٦ ـ ١٣٦٩) Collard de Marke ٠

R. de Roover, Considérations sur le livre de comptes de c. de M., in Bulletin de l'école suptrieure de commerce Saint-Ignace à Anvers (1930).

القــرن الثــالث عشر صــنف ليونــاردو بيزانو (Leonardo Fibonaci) Leonardo Pisano رسالة فى الحساب لاستعمال التجار .

ولقد انتشر تعلم اللغات الأجنبية أيضا بين رجال الأعمال ، والذين كانت الفرنسية تلعب نفس الدور فى الأعمــال الاقتصــادية مثلما تفعل الانجليزية اليوم . وقد ظهر ذلك بتوسع فى أسواق شمبانيا التجارية . ولقد احتفظ هنالك بعدد من كتب المحادثة الصغيرة ، التى صنفت فى بروجز Bruges فى منتصف القرن الرابع عشر من أجل تعلم هذه اللغة (١) . وجنبا الى جنب مع الفرنسية واصلت اللاتينية لعبها لدور اللغة العالمية ، وخاصـــة فى مجــال العلاقات بين الشعوب الرومانسية والشعوب الجرمانية .

وبدا تقدم التعليم متلازما تماما مع تقدم القروض ، ومثال ايطاليا يبين أنه كلما ارتقى نظام القروض ، سارع الآخر فى التقدم والارتقاء . وان الوثائق التى حفظت تبين لنا أن أذونات الدفع طويلة الأجل كانت شائعة للغاية ، ونظرة عابرة لكتب الحسابات المذكورة عاليه تبين لنا حقيقة ذلك وتجعل الأمر واضحا لنا . فضلا عن ذلك ، فان هذه الكتب كانت تتعلق فقط بتجارة المقطع (القطاعى) . وهنـــالك وثائق مماثلة تتعلق بعمليات بيع بالجملة سوف تبقى بالتأكيد أكثر اثارة للأنظـــار . ومــن المستحيل أن نصدق أن التجار الذين اشتروا مئات البــالات من الصوف الانجليزى اســتطاعوا أن يدفعوا ثمنهـــا قبل أن يبيعوا المنســوجات التى صنعوها منه . زيادة على ذلك ، فلدينـــا شــواهد كافية لاجازة نتيجة مؤداها أن كبار التجار كانوا فى علاقات ديون مستمرة مع بعضـــــهم البعض . وفى الحقيقة ، فانه بدلا من الاهمال المعتاد بصدد الدور الذى لعبته القروض والديون فى العصــور الوسطى ، فانه علينـــا أن نعترف بأنها لعبت دورا زائد القيمة .

وبالطبع لم يكن تقــدم هذا الدور متساويا فى كل الأقطـــار . فلقد كان انتشاره قليلا فى ألمانيا أسفل الراين عن اقليم الفلاندرز وفى كل ايطاليا ، وانه لمن الخطأ فى التقدير أن نعمم ما كان يجرى فى هذا البلد على ســائر أوربا ، كما يحدث غالبا . ولكى نتفهم مــدى انتشار الظاهرة المذكورة ، يجب أن ندرس أين كانت مظاهرها أكثر وضوحا . ولايمكن لنا أن ننقل من النشاط الاقتصادى للمدن الفلمنكية والايطاليــة ونساويه بما كان فى مدينة فرانكفورت ـ على نهر المين . وكذلك سوف

---

(١) Le Livre des métiers de Bruges et ses dérivés Quatre anciens manuels de convarsetion, ed. J. Gessler (Bruges, 1931).

يكون من غير العدل أن نغالى فى أهمية قروض التجارة فى العصور الوسطى بمقارنتها بما هى عليه فى أيامنا ، أو حتى بما كانت عليه فى نهاية القرن الخامس عشر • ومن الضرورى ، فانه كما كان قائما ، فان هذه القروض التجارية كانت تعمل وتدور داخل حدود منطقــة اقتصــادية محدودة من الغرب بشواطىء الأطلنطى ومن الشرق بسواحل البحر المتوسط والبحر الأسود وسواحل البلطيق • ولم تكن ، فى ذلك الوقت قوة الدول الكبرى تعضد أو تقدر ، لأسباب سوف تظهر مؤخرا ، على التأثير بجدية على تنظيم الانتاج الصناعى •

ولقد استخدمت قروض التجارة كجزء من رأس المال السائل المتاح فحسب • ومع الوقت فان الجزء الأهم استخدم كسلفيات للسلطات العامة أو للأفراد • وكانت العمليات البنكية فى العصور الوسطى فى جوهرها عمليات اقراض ، وغالبا ما كان كل تاريخ التجارة فى المال فى تلك الفترة كان مهتما بذلك • وهذه التجارة ، كانت نفسها نتيجة لحركة النشاط التجارى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فحسب • وعن البنــوك فى العصور الوســطى وبدايتها ، فنستطيع القول بأن بعضــها كانوا من ســلالة الصــيارفة (cambitores) ، الذين كانت بداية ظهــورهم فى تاريخ مبكر كنتيجة لاختلاف العملات وسرعان ما كون هؤلاء الصيارفة لهم ثروات واغتنوا من خلال احتراف مهنة ضرورية ليس عليها أية رقابة ، كذلك كان عدد كبير منهم من كبــار التجار ، الذين استخدموا فائض أموالهم وربحوا من اقراضها للغير • ويجب أن نلاحظ ، علاوة على ذلك ، أن العمليات المصرفية لم تنفصل نهائيا تماما عن الاتجار فى الســلع ، وقد كانت تمثل ابتزازا لها • ولقد كانت ببساطة تلك هى الوســيلة الوحيدة لاستغلال فائض رأس المال •

كقاعدة عامة فان أعمال العصور الوسطى المصرفية كانت تجمع بين المقرضين والتجار • ومن المحتم أن تأسيس ثروات تجارية كبيرة خلال القرن الثانى عشر قد لفتت انتباه الملوك ، والأمراء ، والارستقراطيين ، وكذلك الكنيسة • ولقد كان جميعهم يعانون من عدم كفاية الدخل ، نتيجة لتزايد النشاط الاقتصادى والنمو المتزايد للمصروفات الذى كان نتاجا لمستوى معيشى متميز • ولقد كان من الموافق لهم أن يحصلوا على المزيد من المال الذى كانوا فى حاجة اليه من هؤلاء لتجار الذين كانوا يتعاملون به ، دون الحاجة الى أن يرهنوا أراضيهم للأديرة أو أن يرسلوا فضياتهم الى دار الضرب • ولنا أن نتساءل فى هذا المجال ، كيف قاوم التجار هذه المطالب وكيف واجهوها ؟ ولقد كان من الخطورة بمكان أن يقف أحد آنذاك ضد المقرضين الذين كان نفوذهم السياسى والاجتماعى ملحوظا • وحقيقة

أن قوتهم العظمى ربما تعرضت للخطر بسبب المخاطرة والمجازفة التى كانت تتعرض لها أموالهم ، لكن الضمان الكافى لاستمرارهم فى اقراض هذه الأموال للتجار هو الحصول على قدر كاف من الفائدة على هذه الأموال تعوض خسارة الديون غير المدفوعة • ولقد وضع هؤلاء المقرضون فى حسبانهم أنه برغم المخاطرة الكبيرة بأموالهم (من تعرض التجار لمخاطر الحرب ، وتحطم السفن والقراصنة ، واللصوص) فان الأرباح الناجمة عن استثمار هذه الأموال كانت جذابة • ومن القرن الثالث عشر فصاعدا صاروا على وجه التقريب الأغنياء الجدد noveaux riches • ومن الجلى أن بقايا قليلة لصكوك حجج كانت قد صارت فى حوزتهم سدادا للقروض التى قدموها للتجار قد أتلفت عند السداد • ونحن ندين كلية لصدفة العثور على مصادر قليلة وصلت الينا وأمدتنا بمعلومات فى هذا الخصوص ، وبرغم قلة هذه المعلومات وضآلتها ، الا أنها مكنتنا من أن نقدر قيمة العروض التى وضعها التجار آنذاك فى خدمة عملائهم •

وحوالى سنة ١١٦٠ قدم وليم المدلل (William Cade) مبلغا كبيرا لملك انجلترا ولعدد من النبلاء (١) • كذلك قام بنفس الدور كل من جون رينفيتش John Rynvisch وسيمون سافير Simon Saphir of Ghent مع جون لاكلاند John Lackland (٢) ، وفى نفس الوقت تقريبا كانت آراس Arras مشهورة بمقرضيها ، Atrebatum .. urbs .. plena Divitiis, nihians lucris et foenore gaudens. (٣) •

ولقد كان اللوتشارديون Louchards ، أغنى هؤلاء التجار المقرضين، وقد تركوا لهم اسما أسطوريا فى الأراضى المنخفضة ، كذلك الكريسبينيون Crespins فقد أحرزوا تقريبا نفس الشهرة • ولا تزال القصائد الشعرية المحفورة على الجدران تحفظ لنا انطباعا بأن ثروتهم وحبهم للكسب كانا متعاصرين(٤)• ومن بداية القرن الثالث عشر كان كل نبلاء حوض الشيلدت

---

(١) عن هذه العمليات ، انظر مقال : H. Jenkinson Quoted p. 118, Bib.

(٢) تقريبا فى سنة ١١٧٦ استدان الأساقفة الانجليز مبالغ كبيرة من « تجار الفلاندرز "mercatores Flandriae •
A. Schaube, Handelsgeschichte der Romanischen Vöker, p. 393.

(٣) Guillaume le Breton, Philipidis. Mon. Germ. Hist. Script., t. XXVI. p. 321.

(٤) A. Guesnon, La atire à Arras a xiiie siècle, in Le Moyen Age (1990-1890).

وعن الشهرة والثروة التى حدثنا عنها الأسفار الارتوازية فى بداية القرن ١٢ ، انظر :
Guibert de Nogent, Histoire de sa vie, ed. G. Bourgin, p. 223.

الكبار مدينين لبرجوازيي المدن • وجنبا الى جنب أهالي أرتوا Scheldt basin
Artois نسمع عن برجوازيي لينز Lens ، ودواي Douai ، وتورناي Tournai ، وجنت Ghent وفالينسيا وايبريس Ypres كمقرضين ، لقائمة ديونهم التي شملت الكونتيسة جين ومارجريت كونتيسة الفلاندرز ، وكونت جاي دي دامبيير Count Gui de Dampierre وأبنائه روبرت وجين ، وأسقف لييج ، وكونت روبرت الثاني كونت أرتوا Count Robert II of Artois ، وسيد تيرموند Termonde وكثير غيرهم • ولقد تنوعت المبالغ المقدمة وتغير حجمها من ما بين الستين جنيها الى ١٤٫٠٠٠ جنيه ، لكن نفس الأشخاص كانوا يعودون باستمرار للاقتراض • ومنذ عام ١٢٦٩ حتى عام ١٣٠٠ ، وصلت الديون الشهيرة لجاي دي دامبيير في جملتها الى ٥٥٫٨١٣ جنيها • في اقليم الفلاندرز لوحده ، ولا نعلم عن المزيد من القروض الأخرى التي قام باقتراضها من أماكن أخرى • وكان سداد الدين عادة ما يحدد بعد عام من السنة التي تم الاقراض فيها وبضمان كفالات ، بعض البرجوازيين في بعض الحالات ، وفي بعض الحالات الأخرى بعض الشخصيات الكبيرة ، مثل وكيل دعاوي آراس (avoués) وبيثين Bethune ولورد أودينيريد Audenarde ، في المدن البورجوازية • وفي بعض الأحيان ، كان الضمان أيضا يقدم بممتلكات المدين الفعلية • ولقد كانت المدن مستعدة للاقتراض شأنهم في ذلك شأن النبلاء • في الحاجة للقليل من المال أو الكثير منه كانوا يلجأون الى صناديق مال التجار • ومن أكتوبر ١١٨٤ حتى فبراير ١٣٠٥ في عشر مناسبات مختلفة اقترضت بروجز مبلغا بلغ اجماله ٤٦٠٫٠٠٠ جنيه (١)• ولم توضع في الاعتبار احتياجات المؤسسات الدينية آنذاك ، لكنها مالت باستمرار الى الاستدانة ، لكن كتاب زيارات رينو Eudes Rinaud (١٢٤٨ ـ ٦٩) الذي احتفظ به رئيس لأساقفة نورمانديا تبين أن كل أديرة نورماندي كانت غارقة في الدين •

هذه الصور سوف تكفي لتبين لنا درجة عمليات الاقراض ، التي نتجت عن وجود رأسمال ناتج من التجارة • وان الصورة التي قدمتها لنا الأراضي المنخفضة قد قدمت ثانية وشملت كل أوربا ، مع اختلافات ناتجة عن نشاط زائد أو نشاط أقل للحياة الاقتصادية في المناطق المختلفة • وفي كل مكان أكدت الأموال أن استغلالها كان مربحا كذلك فان الحاجة لها كانت ماسة • وكان كل مبلغ يقدمه الدائن يعني أنه سوف يأخذ عنه عوضا وهو ببساطة ربا ، أو باستخدام التعبير الحديث ،

---

(١) G. Bigwood, op. cit., t. I, p. 99

فائدة • ولم تتراجع البيانات البلدية ولا المذكرات الشخصية أمام ذكر كلمة ربا الكريهة ، لكن الوثائق التى وجهت للعامة فقد ووريت الحقيقة بها • وفى العادة يوافق المقترض على أن يسدد ، وقت الاستحقاق ، مبلغا أكبر فى الحقيقة من المبلغ الذى اقترضه ، ومن هذا الفرق بين المبلغين تتكون الفائدة • وفى القروض التى ينتاب أهلها ضرر أو تلفيات فان القرض المعترف به عادة ما يكون المبلغ الأصلى المقترض دونما فائدة • وفى اليوم المحدد للسداد تدفع التلفيات واذا لم يدفع رأس المال فى الموعد المحدد للسداد يجدد الدين حتى يرهن المدين فى النهاية نفسه سدادا لما عليه من دين عجز عن سداده • وكان من المفهوم أن المدينين سوف لايدفعون فى الموعد المحدد للسداد ، وهنا يتقرر الربا جزاء للتأخير (١) • وعموما فان قيمة الفائدة تراوحت ما بين ١٠٪ و ١٦٪ من قيمة المبلغ المقترض • وفى بعض الأحيان كانت الفائدة تتناقص الى ٥٪ ، أو تزيد وترتفع الى ٢٤٪ وأكثر • ومن الطبيعى أن تكون درجة المخاطرة التى سبق الاشارة اليها فى الصفقات قد أثرت فى المعدل المشروط • ولقد مارس تجار شمال أوربا الاتجار فى المال ، فى كيد Cade ، ولوتشارد Louchard ، وكريسبين Crespin ، وما شابههم ، بشكل بدائى للغاية رغم اتساع قدرها • ويبدو أنها كانت محصورة فى تعاقدات أفراد ، بين أصحاب رؤوس المال والمقترضين • ولم يبد أن رجال مال أراس Arras وبقية المدن الفلمنكية كانوا قد كونوا شركات • « وهم اما تصرفوا بمفردهم ، أو فى الغالب ، فى جماعات من اثنين أو ثلاثة ، يتم بينهم اتحاد مؤقت فى الغالب لا يستمر ، لكن ليس فى جمعية منتظمة » (٢) • ولم يكن لهم ممثلون فى الخارج ، ولا مؤسسات مماثلة • ويبدو أنهم حتى لم يكونوا على علاقة بأصحاب المصارف وصيارفة أسواق شمبانيا التجارية ، لأنهم كانوا يشترطون باطراد أن تسدد الأموال التى يقدمونها كقروض فى مواطنهم الخاصة • زيادة على ذلك ، تعهدوا بألا يأخذوا تأمينات وودائع ، ولا ترك الوفاء فى الدفع بالخارج ، ولا اسقاط الصكوك • وكان الايطاليون ، على عكس ذلك ، كانوا معتادين على كل هذه العمليات من القرن الثانى عشر وأوصلتهم من القرن الثالث عشر الى أعلى درجات التقدم الموافقة لظروف العصر الاجتماعية • ولقد كانت سيادتهم كبيرة على رجال المال الشماليين حتى ان هؤلاء الشماليين أخلوا الساحة لهم وأصبح كل هم رجال المال منذ نهاية القرن الثالث عشر هناك أن يكونوا مجرد أثرياء Otiosi شغلوا أنفسهم بادارة ثرواتهم وحيازة ممتلكات حقيقية وتحصيل الايجارات •

---

(١) G. Bigwood, oj. cit., t. I, p. 441.

(٢) Ibid., p. 178.

وكما سبق أن رأينا ، فان تجار الشمال وتجار ايطاليا كانوا يترددون على أسواق شمبانيا التجارية وأسواق الفلاندرز منذ القرن الثالث عشر • ولقد كانت صناعة المنسوجات التى استوردوها بكميات كبيرة لجنوب أوربا مهمة بالنسبة لهم لدرجة أن كثيرا منهم انقاد ليقيم فى مراكز الانتاج وكذلك للدخول فى مصاهرة مع البرجوازيين • ولكن ما كادوا يستقرون فى هذه المراكز حتى أخذوا فى منافسة أهاليها بنجاح ، واستفادوا كثيرا فى أمورهم المالية من تنظيمهم وتقنيتهم العالية • ولقد قامت الشركات الفوية التى ينتمون اليها بتزويدهم برأس المال من الخارج ومن نهاية القرن الثالث عشر كان لهم جميعهم ممثلون فى الأراضى المنخفضة • ولقد وجدنا هنالك شركاء أو وكلاء للسالمبينين Salimbene والبنسينوريين Gallerani of Siena, Buonsignori ، وال Frescobaldi ، the Pucci ، و the Peruzzi ، the Scoti of Piacenza ، and the Bardi of Florence وجنبا الى جنب معهم الجنويين ، والبستوانيين والكاهورسينيين من لانجيدوك Pistoians and Cahorsins from Languedoc ولقد كان لدى كل هؤلاء الجنوبيين ثقافة تجارية ، ونسق أعمال التبادل والأعمال التسليفية ومعرفة بمراكز أوربا التجارية الكبرى التى كانوا على علاقة مستمرة معها ، وقد جعلهم كل ذلك فوق المنافسة • وليس من المستغرب ، أن تستنجد الكونتيسة جين Countess Jeanne بدائنى ايطاليا بعد معركة بوفان Bouvines بطلب مبلغ من المال كانت فى حاجة له لتفتدى به زوجها ، فراند البرتغالى Fernand de Portugal ، من أيدى فيليب أغسطس • وفى سنة ١٢٢١ تسلمت ٢٩ر١٩٤ جنيها من أصل مبلغ ٣٤ر٦٢٦ • ولقد كان ذلك انجازا مربحا للمقرضين ، كذلك دون شك للكونتيسة ، التى استطاعت من جانبها أن تهنىء نفسها على عملهم الطيب (١) • على كل حال ، فانه منذ ذلك الوقت فصاعدا انتشر الاقتراض من المراكز المالية البعيدة سريعا •

وقد بدا تقدم الاقراض بأشكال متعددة مسلم « بصحتها » • وقد حددت أسواق شمبانيا التجارية فى العادة كمكان لسداد القروض وتحديد أجلها • لكن رجال المال الايطاليين عملوا أيضا كوسطاء فى دفع القروض فى الخارج ، ولقد أعطتهم سيادتهم فى عمليات المقايضات ، و « المقاصات » التى تعنى موازنة ومعادلة الديون المتبادلة ، منذ نهاية القرن الثالث عشر القدرة على احتكار كل الأعمال المصرفية فى شمال الألب • ولقد زودهم ملوك فرنسا وانجلترا ، وأمراء المقاطعات ، وكبار الأساقفة ، ورؤساء

---

(١) Ibid., p. 180.

الأديرة ، والمدن ، زودوهم جميعهم بعملاء عالميين • ولقد استفادت البابوية منهم في تشغيل الأموال الكثيرة التي كانت تحت يدها ، لجمع فوائد المال لكنيسة القديس بطرس ولمواجهة الضرائب المتزايدة من كل نوع والتى كانت تثقل كاهل الكنيسة (١) • وانهم فى حقيقة الأمر أداروا مالية كل أوربا • ولقد دعاهم الملوك لمجالسهم ، وعهدوا اليهم بدور ضربهم ، وأوكلوا اليهم الاشراف على ضرائبهم والقيام بجمعها • ولقد فرضوا نظام الالتزام فى مدن كثيرة ، وحيثما كانوا فقد خولهم الأمراء بحفظ قوائم الديون • وبالاضافة الى العمل المصرفى فقد شاركوا فى كل العمليات التجارية • ولقد اشتروا الصوف وباعوا القماش ، والتوابل ، والمشغولات النحاسية ، والحرير ، والديباج ، وامتلكوا سفنا وكذلك فنادق فى باريس ، وبروجز ، ولندن وفى مدن أخرى • ومع نمو أعمالهم أصبحوا أكثر جسارة ، لأن الأرباح التى كانوا يحققونها كانت أكثر من خسائر المخاطرة • ولم يترددوا فى استنزاف المدنيين واعتصارهم ، والذين أجبرتهم الحاجة أن يوافقوهم على دفع فائدة قدرها ٥٠٪ عن ديونهم المستحقة لهم ، وكذلك أيضا نسبة ١٠٠٪ على الأديرة أو الأفراد الذين وقع الحجز عليهم • لكن فى الأعمال الكبيرة وصفقاتهم مع عملائهم الذين يستندون على قوتهم أو على قدرتهم على سداد الدين ، فان الفائدة كانت فى حوالى ١٠٪ •

ومقارنة بطفح الديون الايطالية وتفشيها ، بدت الديون اليهودية مسألة صغيرة للغاية ، وبدا الدور الذى لعبوه فى العصور الوسطى دورا مبالغا فيه بالتأكيد • والحقيقة الفعلية تبين ، أنه كلما كانت الدولة متقدمة اقتصاديا ، وجد بها عدد قليل من المقرضين اليهود • ففى اقليم الفلاندرز لم يتواجد هنالك الا قلة مهملة منهم ، لكن اعدادهم تزايدت بكثرة تجاه شرق أوربا • وفى ألمانيا تزايدت ونمت أعدادهم مع الزمن من الراين وفى بولندة ، وبوهيميا والمجر تواجدوا هنالك بكثرة • وفى عصر اقطاع أرض العصور الوسطى ، كما بينا سابقا ، وجدناهم بائعين جائلين لبضائع الشرق (٢) • وداخل أسبانيا الاسلامية (الأندلس) ، حيث كان هنالك مجتمع متعاون الأديان اكتسبوا فى وقت مبكر نفوذا اقتصاديا كبيرا ، وكانوا يجلبون الى شمال أوربا التوابل ، والأقمشة

---

(١) G. Schneider, Die finanziellen Bezichungen der florentinischen Bankers zur ûirche (Leipzig, 1899); ed. Jordan, Le Saint-Eiège et les banquiers italiens, in Congrès internationale des catholiques, 5th section, p. 292 (Brussels, 1895).

(٢) انظر ما سبق ، ص ١١ ، وانظر ايضا :
M. Hofmann, Der Geldhandel der deutschen Juden Wahrend des Mittelaters bis zum Jahre 1350 (Leipzig, 1920).

الفخمة والمشغولات النحاسية • كذلك يظن أنهم عملوا في الاتجار سرا في الأرقاء المسيحيين حتى نهاية القرن العاشر تقريبا • ولقد استحوذ عدد منهم على أراض ، وكروم أعناب وطواحين في جنوب فرنسا • لكن الكنيسة ، دون أن تضطهدهم ، كانت على الدوام تفكر في منع أي تعاقد يحدث بين هؤلاء « اللئام » وبين المخلصين ، وان انبعاث الشعور الديني ، الذى أدى الى الحملة الصليبية الأولى ، قد أطلق العنان لكراهية العامة لهم وكان فاتحة لتلك السلسلة الطويلة من المذابح ، التي كانوا في الغالب آنذاك هم ضحاياها • وفى نفس الوقت فان انتعاش تجارة البحر المتوسط في القرن الحادى عشر جعل من السهل الاستغناء عنهم كوسطاء مع الشرق ، والمكان الوحيد الذى حاز اليهود الثروة فيه هو برشلونة خلال الحكم الاسلامي للأندلس ، وقد بقوا في المدينة بعد فتحها ، وشاركوا في التجارة البحرية هناك كملاك للسفن أو مشاركين في ملكيتها • وحيثما كان فان يهود الغرب صاروا مجرد مقرضين للمال مقابل رهن ، ويسلفون بالفائدة بضمان الرهائن • ولم يتأثروا بتحريم الربا ، المطبق فقط على المسيحيين ، فحققوا أرباحا طائلة دون شك من افراطهم في استخدام هذه البراءة ، وبسبب أنه لم يكن يطرق بابهم سوى محتاج أو مضطر ، فقد جعلتهم هذه الحاجة يستغلون عملاءهم كما يريدون وبقدر استطاعتهم • ولقد سهلت لهم اتصالاتهم مع المجتمعات غير المتعصبة ، ليس فقط في أوربا ولكن في الأراضي الاسلامية في الجنوب ، أن يحصلوا على المال اللازم الذين يحتاجونه لأعمالهم ، ويستطيع الأشخاص الذين يقعون في ضوائق مالية أن يحصلوا على مساعداتهم ، وبقدر الحاح حاجة العميل تقل مساومته في الفائدة المقدرة على المبلغ الذى يقترضه منهم • فضلا عن ذلك ، فانه كان للاقتراض من اليهود فائدة لها اعتبارها وهي السرية • وقد كان ذلك أمرا موافقا حتى ان المؤسسات الكنسية رجعت الى الاقتراض منهم •

وحيثما حل اليهود كانوا في حماية حكام المقاطعات ، واعتمدوا كثيرا في ذلك على نواياهم الطيبة تجاههم • وفى سنة ١٢٦١ أمر الدوق هنرى دوق البرابانت Duke Henry of Brabant ، وهو على فراش الموت، بطرد كل المرابين من بلاده ، ولكن زوجته الأرملة سمحت لنفسها بالابقاء عليهم بعد سماعها نصيحة القديس توماس الأكويني St. Thomas Aquinas (١) • ولقد قام ادوارد الأول بطردهم من انجلترا سنة ١٢٩٠ ، وحذا حذوه فيليب (العادل) Philip the Fair

---

(١) H. Pirenne, La duchesse Aleyde de Brabant et le "De regimine Judaeorum" de Saint Thomas d'Aquin, in Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie royale de Belgique (1928).

فى فرنسا سنة ١٣٠٦ لكن خلفاءه سمحوا لهم بالعودة تدريجيا الى المملكة ، لكنهم طردوا مرة أخرى سنة ١٣٩٣ · الى جانب ذلك ، فقد كان الأهالى يثورون ضدهم على فترات وذلك بتحريض من المدنيين ، الذين كان من السهل عليهم اثارة جموع العامة مستغلين فى ذلك سلامة طويتهم(١) · ولقد اشتبه فى المرابين اليهود من أنهم وراء كل نوع من أنواع الارهاب وتدنيس المقدسات وانتهاك حرماتها · وفى عام ١٣٤٩ ذبحوا فى كل برابانت ، وفى سنة ١٣٧٠ طردوا منها نهائيا ، بعد سريان اشاعة أنهم دنسوا خبز القربان المقدس (٢) · ولقد واجه اليهود كمرابين منافسين أقوياء من المسيحيين أنفسهم بداية من القرن الثالث عشر · وبدت أقدم هذه المنافسة فى تاريخها من قبل رجال من كاهورز Cahors ، كانوا منتشرين فى كل فرنسا والأراضى المنخفضة وكانوا نشطاء للغاية فى أمر الاقراض ، حتى انه منذ منتصف القرن الثالث عشر أصبحت كلمة (كاهورزينى Cahorsin) تقابل كلمة المقرض للمال والمرابى(٣) · على أن ، اللمبارديين ، أو غالبية الايطاليين ، سرعان ما أخذوا مكانهم فى طبقة رجال الأعمال هذه · ومقابل الايجار ، أعطاهم الأمراء والمدن الحق فى تقديم « جداول قروض » ، وأقدم هذه المنح فى الأراضى المنخفضة ترجع الى عام ١٢٨٠ · ولقد مارس من منح هذه القوانين احتكار يعطيهم الحق فى ابعاد الآخرين عن المنافسة · « مثلما حدث للتسكانيين على يد اليهود » (٤)، وربما يكون من الحدس والتخمين أن نقول بأن ممثليهم هم الذين أسهموا فى سبب ابعاد اليهود عن المكان الذى أخذوه · وبرغم أن المنح الأولى التى أعطيت لهم اشترطت أن القروض يجب أن تتم بطريقة « حسنة وقانونية دون توريط ودون ربا » ، وكان كل القصد من ذلك بوضوح هو تحريم أخذ الفائدة على المال المقترض · ولا تركز المصادر المتأخرة على هذه النقطة ، ولكنها فقط منعت « الاتفاقات الشريرة » أو الزام المقرضين بأن يعملوا بموجب الأعراف والعادات التى اعتاد اللمبارديون الاقراض بها » (٥) ·

---

(١) ومن الأمثلة المتاحة لذلك ما وقع فى باريس سنة ١٣٨٠ ، انظر :
Chronique du religieux de Saint Denys, ed. Bellaguet, t. I, p. 54.

(٢) لم يتواجد هنالك عدد كبير منهم آنذاك ، بدليل أن ممتلكاتهم التى صودرت قدرت قيمتها فقط بمبلغ ٧٠٦٥ر٧ فلورين برابانتى ·
Henne and Wauters, Histoire de Bruzelles, t. I, p. 133.

(٣) وفى سنة ١٣٦٧ كانت كلمة « كورزينين » Cauwersinen تطلق على اللمبارديين
Gilliodts van Severen, Inventaire des Archives de Bruges,t. t. II. p. 140.

ولقد تعامل الكاهورزنيين فى تجارة المال والبضائع ، انظر :
F. Arens. Wilhelm Servant von Cohors als flaufmann zu London, in Vierteljahreschrifte für Social-und Wirtschaftsgeschichte, t. XI (1913). p. 477 et seq.

(٤) Bigwood, Le commerce de l'argent, t. I, p. 340.

(٥) Ibid., p. 451.

وعلى هذا فلقد اعترفوا رسميا بالتعنت مع المدنيين واستغلال ظروفهم ، الذى اعتبروه ثمنا معقولا للفائدة · ولقد كان السعر العادى للفائدة هو دينارين للجنيه كل أسبوع ، بمعنى أنها بنسبة ٤٣ ١/٣ ٪ فى العام ، وغالبا ما كانت فائدة التجارة تصل الى ضعف هذه النسبة · ولقد أظهرت « قوائم » اللمبارديين وحساباتهم ، أنهم كانوا بعيدين عن حصر أنفسهم على وجه القصر فى ممارسة الاقراض بالفائدة ، لكنها أظهرت أنهم تسلموا أموالا من عملائهم وسددوا عنهم ديونهم واشتغلوا أيضا بالعمليات التجارية ·

ولقد شارك الصيارفة فى الاتجار فى المال وفى تقديم القروض وقد كان تغيير العملة عملا مربحا ، وكان حق القيام به يمنح من قبل الأمراء فقط مقابل جعل معين ولعدد محدد من الأشخاص من الذين كانوا يحظون آنذاك بمكانة شبه رسمية · ولقد احتفظ هؤلاء لأنفسهم بالاتجار فى المعادن الثمينة ، ومن الواضح أنهم أحرزوا من وراء ذلك أرباحا وفيرة ، اضافة الى عمولات تغيير العملة · وسرعان ما أصبح من المعتاد أن يعهد اليهم بحفظ بعض الأموال كودائع عندهم ، ولم تكن هذه الخدمات دون شك بدون مقابل · وتسلموا أيضا ودائع وذخائر مرهونة ، ومن الممكن أن نفهم بسهولة أنهم عملوا مرارا وتكرارا كوكلاء للدفع وأن بعضا منهم أصبح أيضا مقرضين ·

وعلى الجانب الآخر ، فان المؤسسات الكنسية ، التى كانت قد لعبت دور مؤسسات الاقراض الحقيقية فى قرون العصور الوسطى الأولى ، نادرا ما أقرضت نقودا منذ بداية القرن الثالث عشر · وخلافا لما كان عليه العلمانيون الذين لم يستطيعوا تجنب تشريع تحريم الربا ، ولذلك سمحوا لأنفسهم من حين لآخر بنقض هذا التشريع (١) · زيادة على ذلك ، فانه لم يكن لديهم المال الكافى الجاهز للمنافسة مع التجار ، وبخاصة التجار الايطاليين ، حتى لو كانوا قد أرادوا ذلك ، وبالطبع ، فانه من المعتاد أن تلجأ هذه المؤسسات الكنسية الى كبار رؤوس هذه البيوتات المالية طلبا للقروض منهم ، وأنهم كانوا بذلك دوما مدينين لهم · والوحيدون الذين استثنوا من ذلك هم كهنة فرسان المعبد Templars ، وبسبب علاقاتهم مع مسيحيى الشرق ، فقد نجحوا فى أن يصبحوا قوة مالية حقيقية خلال القرن الثالث عشر · ولقد كانت مقاطعاتهم العسكرية على اتصال ببعضها البعض ، سواء أكانت قائمة فى سوريا أم فى الولايات الغربية · وبسبب هيبتهم ونفوذهم وقوتهم العسكرية صار النبلاء يستخدمونها كأماكن آمنة

---

(١) فى سنة ١٢٢٨ قام دير سانت بيرتين Saint Bertin باقتراض مال بالربا ، انظر : Bigwood, Op. cit., t. II, p. 263.

لايداع أموالهم فيهـــا ، أو لتحويل الأموال من والى الشرق بواسطتهم ـ وفي فرنسا كان الملوك يأتمنون فرسان المعبـد على كل أنواع الأعمـــال المالية ، حتى جاء فيليب العادل وقرر فض هذا النظام ، وطمع في ثرواتهم ورغب في أن يصرف حمايته لهم عنهم · ولقد تطورت الديون الحقيقية ، (ونعني هنا الديون المتصلة بالولايات الزراعية) بطريقـــة ، أعطتها ، على الأقل ، داخل المـدن ، أهميـــة حيوية ، فالتجار الذين نمت ثروتهم بسبب التجارة لم يستخدموا كل مكاسبهم في العمليات التجارية أو في السلفيات · فلقد كانت الطريقـــة الآمنـــة لهم هي شراء الأرض ، التي أصبحت مع التطور السكاني السريع للمدن البلدية أرض بنـــاء ، تؤجر أبنيتهـــا للوافدين الجـــدد من السـكان · وسرعان ، ما أظهرت لنـــا : Gesta episcoporum camera censium عند بداية القرن الثـاني عشر أول تاجر عظيم في الأراضي المنخفضة اكتسب المزيد من الايجارات التي زادت ثروته زيادة كبيرة وسجل التاريخ اسمه وهو وريمبولد Werimbold (Census accrescunt consibus et munera muneribus) (١) ·

وقد أضيفت الى ايجارات الأراضي التي حصل عليها ملاك الأراضي ، ايجارات أخرى تمثلت في ايجار المساكن التي كان يدفعها ساكنو هذه المساكن التي أقيمت فوق هذه الأراضي · ولقد كان ظهور ايجارات المنازل هذه واحدا من أهم أشكال الدين وأكثرها شـــيوعا بين ديون العصـور الوسطى · واذا ما أراد مالك بيت أن يقترض قرضـا طويل الأمد ، فهو يبيع ايجار منزله للمقرض ، بمعنى أن يقوم المقرض بتسلم هذا الايجار ، وتكون الفائدة المقدرة على المبلغ المقترض بضمان ملكية المنزل ، الذي يؤول للرهن اذا لم يتحصل المقرض ايجار المنزل من صاحبه أو من ساكنيه · هذه الفائدة ، التي كانت أكثر اعتدالا من فائدة التجارة ، كان من فوائدها أيضا عدم وقوع المتعاملين بها في حرمانية الربا ، وكانت نسبتها تتراوح عادة ما بين ٨ ٪ الى ١٠ ٪ حتى القرن الخامس عشر (٢) · ولقد كانت هذه الايجارات القائمة على الممتلكات الحقيقية مختلفة تماما عن الايجارات التي كانت قائمة بين المدن نتيجة السلفيات التي كانت معقودة بينها ·

---

(١) Gesta episcoporum Cameracensium Continuata, ed. G. Waitz, MMGG., SS. t. XIV, p. 215.

(٢) W. Arnold, Zur Geschichte des Eigentums in den deutschen Stadten (Basle, 1861). G. Des Marez, Etude sur la proprriétt foncière dans les villes du Moyen Age et spécialement en Flandre (Ghent, 1894) ; J. Gobbers, Die Erbleihe und ihr Verhaltniss zum Rentenkauf im mittelalterlichen Koln, in Zeitschrift do Savigny dtiftung für Rechtsgeschichte, Germ. Abth. (1883).

فمن بداية القرن الثالث عشر تفشت فى المدن بكثرة عادة بيع الايجارات لأجل أو اثنين ، من أجل رفع المبلغ وزيادته زيادة غير طبيعية ، وتكون فائدة هذه الايجارات على رأس المـال المقترض ٠ وتدفع هذه الفوائد للمقرض حتى وفاته أو فاة ورثتـه (ايجـار لأجلين) ٠ وهكذا فلقد كانت هذه الفوائد اسـتثمارات فتش عنهـا البرجوازيون منـذ وقت مبكر ، ولما كان مسموحا لأى شخص بشراء الايجارات من هذا النوع ، صار فى كل مدينة عدد كبير من المستأجرين موزعين فى أنحاء كثيرة ٠ ولمنع الاحتيال فى هذا الأمر والغش ، وعد المســتأجرون الجدد للدين العـام الذين يشبهون الدائنين القدامى بجوائز خاصـة اذا ما أبلغوا عن وفاة مستحقى هذه الايجارات ٠ وفى بعض الأحيـان ، أيضا ، تختار حكومة المدينة وكلاء خاصين لها لحصر مستأجرى هذه الديون الأحياء (١) ٠ ولقد تنازلت مدن معينـة عن ادارة جزء من دخلها لصـالح دائنيهم ، عوضـا عن أرباحهم المستحقة ٠ ولقد شاعت هذه العادة كثيرا فى ايطاليا فى منتصف القرن الثانى عشر ٠ وفى سنة ١١٦٤ تنازلت جنوة عن مواردها لمدة أحد عشر عاما لمؤسسـة (monte) التى تألفت من أحـد عشر شخصـا ٠ وبحلول القرن الثالث عشر جمدت المدينة دينها واعترفت لدائنيها بحقهم فى بيع استحقاقاتهم من الديون لطرف ثالث ٠ وقد نشأ بنك سان جورج الشهير (casa di S. Georgio) ، الذى صار بنكا قويا للغاية فى القـرن الخامس عشر ، عن هذا الطريق ٠

وبرغم أن الصورة السالفة للديون والاتجار فى المال ، كانت صورة باهتة وأيضا غير مكتملة ، الا أنهـا أعطتنـا بعض الأفكار عن أهميتها وعن أشكالها المتعددة التى ظهرت عليها قبل نهاية القرن الثالث عشر ٠ وبدون هذه الصورة كانت الحياة الاقتصادية فى العصور الوسطى ستصبح غير مفهومة ولا مدركة لنا ٠ لكن ، عدا فى المدن الايطالية الكبرى ، حيث النظم المالية الحكومية للأسواق وبنوك المستقبل التى كانت قد أخذت شكلها ، فان نشاط هذه الديون كان أكبر بكثير من بلوغها حد الكمال اصطلاحا ٠ ومن الثابت حقا ، أنه لم تكن هنالك أســواق مال ، بالمعنى الحقيقى للمدلول اللفظى ، فى هذه الفترة ٠ فكل عملية اقتراض كانت فى حقيقتها موضوع تعاقد تم لظروف خاصة باتفاق خاص بين المقرض والمقترض ٠

---

(١) أوجدت الاديرة أيضا ايجارات الدائنين منهم الحية ، انظر ، على سبيل المثال ، فى سنة ١٢٦٧ قائمة :

Pensiones que post vitas hominum ad ecclesiam revertentur, in Le Livre de l'abbé Gullaume de Ryckel, ed. H. Pirenne, p. 68.

وعن الديون القائمة فى المدن انظر : G. E pinas, Les finances de la commune de Douai, p. 321 et seq (Paris, 1902).

وفى الحقيقة لم تكن القروض التجارية تختلف عن القروض الاستهلاكية (١) ٠

ومن الطبيعي أن يقود ذلك الأمر الى التساؤل عن مدى نسبة هذه النقائص والمآخذ الى تحريم الفائدة ٠ والحقيقة أن هذا التحريم الذى مر من الكنيسة الى التشريع المدنى من المؤكد أنه كان عائقا كبيرا باقيا ٠ ومع ذلك ، فانه فى التعامل الحقيقى ، كان من المستحيل مراعاة ذلك حرفيا ٠ ولكن التحريم طبق فقط بشدة على حالات (الربا الواضح) ، بمعنى السلف المرتهن بشرط تعيين معدل زائد من الفائدة ٠ ولقد كانت الحاجة للقروض كبيرة للغاية وعادية بالنسبة للناس الذين لم يفكروا أصلا فى تثبيط همة المقرضين ٠ ومنذ ذلك القرن الثالث عشر فصاعدا بحث المشرعون فى تعديل التحريم المطلق للفائدة الذى وضع فى نص : mutuum dale nihil indesperantes بحيل مختلفة (٢) ٠ ولقد اكتشف أنه فى أى سلفيات احتوت على خسارة كاملة (damnum emergens) أو انقطاع المكسب (lucrum cessans) أو ضياع رأس المال (periculum sortis) فالغرامة ، أو بمعنى آخر ، الفائدة ، ممكن تبريرها ٠ وهكذا فان الفائدة كانت ربا شرعيا حلالا لا غير ، ومن السهل أن نفهم الى أى مدى كانت دقة الفرق بين هذا الربا المباح والربا المحرم وأى مساحة قد ترك لتفسير القضاة ٠ وفى التجارة فان « تهريب » المال كان مباحا بالتعامل النقدى ٠ وقد كان ذلك القاعدة فى أسواق شمبانيا وشائعا فى عمليات المجتمعات التجارية ٠ وفى القرن الرابع عشر يذكر المعلم اللاهوتى الفاريوس بالاجيوس Alvarus Palagius أن تحريم الربا لم يمكن تطبيقه أخيرا (٣) ٠

على أن الحقيقة التى ظلت باقية ، هى أن انتقاد الكنيسة كان قد ظل على الدوام عالقا كتهديد دائم على كل أولئك المتعاملين بالديون ٠ وفى أحوال كثيرة كان المستدينون يعفون من جانب الكنيسة من التزامهم بدفع

---

(١) Bigwood, op. cit., t. I, p. 456.

(٢) W. Endemann, Studien in die romanisch-Kanonistischen Wirtschafts — und Rechtslehre, 2 vols. (Berlin, 1874-83). E. Schreiber Die Volkswirtschaftlichen Anschanungen der Scholistik seit Thomas von Aquin, Jena, 1913. A. Fanfoni, Le origini del spirito capitali tico in Italia, Milan, 1932. A. Sapori, Il giusto prezzo mella dottrina di S. Tomosco t nella pratica del suo tempo in Archivio storico Italianc, 1922.

(٣) E. Lipson, Economic History of England.

فوائد ديونهم · ومن ثم كانت براعة عظمى من جانبها بذلته لموارية الفوائد الخطيرة · وفى بعض الأحيان كان المقرض يخصم الفائدة من المبلغ المقترض، وفى بعض الأحيان الأخرى كانت تختفى تحت شكل جزاء التأخير فى السداد ، وأحيانا يحرر المدين ايصالا عن المبلغ الذى اقترضه أكبر بكثير من المبلغ الحقيقى الذى تسلمه · عموما فان التشريعات ضد الربا لاتبدو أنها منعت من التعامل به كثيرا مثلما فعلت التشريعات الأمريكية (Volstead Act) حول الاسراف فى تعاطى الكحول · لقد كان ذلك عائقا لكنه لم يكن مانعا · ولقد اضطرت الكنيسة ذاتها للاقتراض من رجال المال الذين لامت أعمالهم · ولقد كان ذلك لهم بمثابة اعتراف شرعى من البابا وية التى كانت تتدبر ايراداتها من جميع أنحاء العالم المسيحى · وقد كان البابا وات بالطبع لا يجهلون طبيعة الأعمال التى كانت بنوكهم تعمل فيها ·

الفصل الخامس

التجارة العالمية حتى نهاية القرن الثالث عشر

١ ـ السلع ، واتجاهات التجارة العالمية (١)

من الغريب أن تنشــأ تجارة العصور الوســطى منذ بدايتها تحت تأثير التجارة الخارجية دون تأثير التجارة المحلية الداخلية • فـالتجارة الخارجيــة هي التى أنجبت وحــدها طبقــة التجــار المحترفين الذين كانوا العامل الرئيسى لنشاط القرنين الحادى عشر والثانى عشر الاقتصادى • وكانت القصة هي نفسها في كلا قسمي أوربا حيث بدأت ، في شمال ايطــاليا وفي الأراضى المنخفضــة • ولقد أعطت التجــارة ذات المسافات

---

(١) انظر أعمال هايد وشوب الواردة ضمن قائمة هذه المصادر وأعمال هابك Höpke ورنيولد

Bibliography :

— H. Simonfeld, Der Fondaco dei Tedeschi in Venedig und die deutsch-venetianischen Handelsbeziehungen (Stuttgart, 1887), 2 vols. W. Stein, Beitrage zur Geschichte der deutschen Hanse (Giessen, 1900). E. Daenell, Geschichte der deutschen Hanse in der Zweiten Halfte de XIV Jahrhunderts (Leipzig, 1897). Id., Die Blutezeit der deutschen Hanse (Berlin, 1905-6), 2 vols. — G. A. Kiesselbach. Die Wirtschaftlichen Grundlagen der deutschen Hanse und die Handelsstellung Hamburges bis in die zweite Hälfte des XIV Jahrhunderts (Berlin 1907). P.A. Meilink, De nederlandsche hanzesteden tot het laatste kwartaal der XIVe eeuw (La Haye, 1912). F. Rörig(Hansiche Beitrage zur deut chen Wirtschaftsgeschichte (Breslau, 1928). Id., La Hans in Annales d'histoire tconomique et sociale, t. II (1930). Id., Mittelaterliche Weltwirtschaft, Jena, 1933. A. Arndt, zur Geschichte und Theorie des Bergregals und der Bergbaufreiheit (Halle, 2nd ed., 1916). L. Blancard Documents inédits sur le commerce Marseille au Moyen Age (Marseille 1884-5, 2 vols.) A. Germain. Histoire du commerce de Montpellier (Montpellier, 1861), 2 vols. C. Port. Essai ur l'histoire du commerce maritime de Narbonne (Paris, 1852). — De Fréville. Mémoire sur le commerce martime de Rouen (Rouen, 1857). 2 vol-. L. Mirot, La colinie lucquoise à Paris. du XIIIe aux XVe siècle, in Bibliothèque de l'Ecole des Chartes (1927-8). Z.W. Sneller. De ontwikkeling van den handel tusschen Nodnederland en Frankryk tot het midden der XVe eeuw, in Bydragen voor Vaderl-Geschiedenis (1929). — A. Schaube. Die Wollausfuhr Englands vom Jahre 1273. in Vierteljahrschrift für social und Wirt chafts — geschichte, t VI (1909). — E.E. Power, The English Wool Trade in the Reign of Edward IV, in The Cambridge Historical Journal. t. II (1926). E. E. Power and Postan (ed.), Studies in English Trade in the Fifteenth Century (1933).

البعيدة الحركة الدافعة لهذا النشاط (١) · وسوف يتضح لنا ذلك بجلاء اذا ما تفحصنا طبيعة البضائع المنقولة ، التى كان جميعها ذات أصول أجنبية ، وبالطبع فقد تشابهت تجارة العصور الوسطى المبكرة مع تجارة المستعمرات ·

ولقد كانت التوابل أول مطالب هذه التجارة ، ولم تتوقف التوابل عن احراز المكانة الرئيسية بين سلع تلك التجارة حتى النهاية · ولقد تسببت هذه التوابل ليس فى ثراء البندقية فحسب ، ولكن فى ثراء وازدهار كل موانى غرب البحر المتوسط الكبرى · وخلال القرن الحادى عشر كانت الملاحة البحرية قد قامت مباشرة بين البحر التيرانى ، وأفريقيا ، وموانى الشرق ، ولقد حملت السفن التى كان يملكها التجار عبر هذا الطريق بالبضائع المرتفعة القيمة · والموانى السورية ، التى كانت تفد اليها كميات من هذه البضائع عبر القوافل من الجزيرة العربية ، والهند والصين، كانت المقصد الرئيسى للسفن الأوربية ، وقد استمر الأمر على هذا الحال حتى اكتشف البرتغاليون طريقا بحريا جديدا مكنهم من الحصول على هذه السلع بواسطتهم مباشرة · ولقد توافقت الظروف لاعطاء التوابل التفوق، فى السهولة التى يتم شحنها بها ، والأسعار المرتفعة التى يطلبها التجار فيها · وهكذا فان تجارة العصور الوسطى بدأت كتجارة فى السلع الكمالية المرتفعة القيمة ، بمعنى ، أنها تجارة تجلب ربحا كبيرا لحمولات خفيفة ، وقد ظل هذا مظهرها ، كما سوف نرى ، حتى نهاية تاريخها · ولم تعرف فى تلك الأيام رسالات البضائع من المواد الخام أو من أدوات الاستهلاك العام بأجرة شحنها المرتفعة وتزايد المبالغ المطلوبة لذلك ، وهنا نجد التناقض المذهل بين تجارة العصر الوسيط والتجارة الحديثة · ولقد كان تجهيز ميناء العصور الوسطى يتكون من أرصفة خشبية متواضعة ، مزودة برافعة أو رافعتين ، بجانبها تستطيع أن ترسو سفن حمولتها من ٢٠٠ الى ٦٠٠ طن · وهذا كل ما كانت تحتاجه عملية تفريغ حمولة بضع مئات الأطنان من الفلفل ، والدارصينى (القرفة) والقرنفل ، وجوز الطيب ، وقصب السكر ، وغيرها ، التى كانت تمثل أغلى السلع لتجار السفن ·

ولقد أقبلت الشعوب الغربية ، التى كانت قد توقفت عن استعمال التوابل منذ العصور الميروفينجى ، على استعمالها بشغف زائد · وسرعان ما استعادت هذه التوابل مكانتها فى وجبات طبقات المجتمع الراقية ، وكلما ازدادت الكمية المصدرة منها شمال الألب ، تزايد الطلب عليها · ومع سرعة وصول شحنات التوابل ، لم يكن هنالك تخوف من قلة المشترين للبضاعة ، ولم يكن أى مالك سفينة فى العصور الوسطى

---

(١) انظر ما سبق ·

يخشى من تراكم المخزون ، أو مخاطر تدهور الأسعار ، لأن كل مالك سفينة يرسو بسفينته فى أحد الموانى يجد فى سجلاتها زيادة أكيدة فى الربح ٠ الا أنه كانت هنالك أخطار كثيرة على هؤلاء التجار مواجهتها ، فهنالك غرق السفن الدائم وتحطمها فى وسط البحر ، كذلك القرصنة ، التى كان نشاطها قائما فى وضح النهار كعمل مشروع ، والحرب الدائمة بين المدن الايطالية ، وتصميم كل منها على تدمير تجارة منافستها ، لتستفيد من خرابها ٠ ولقد حاربت المدن الايطالية بعضها البعض خلال العصور الوسطى فى البحر المتوسط بشراسة وكان على أسبانيا ، وفرنسا وانجلترا أن تصارع فى الأطلنطى والباسفيك منذ القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر ٠ وبصعوبة بالغة بدأت جنوة وبيزا الاتجار مع الشرق قبل أن يصبح هدف البندقية طردهما من منطقة كانت تعتبر نفسها حتى ذلك الوقت سيدة لها ، سيادة مسلما بها ٠ ولقد أعطاها تأسيس امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، التى وجهت اليهـا كل نشاطها ومهارتها ، سيادة مؤقتة على منافسيها ٠ وقد فقدت هذه السيادة بعد الاصلاح البيزنطى (١٢٦١) ، الذى كانت أعمال جنوة جزءا منه ٠ ومنذ ذلك الوقت ، تقاسمت المدينتان التجاريتان الكبيرتان السيادة على البحر الايجى ، وكانت كل منهما تراقب الأخرى وتعمل على عرقلة تجارتها ٠ أما عن بيزا ، فانها توقفت عن أن تكون مصدر خوف وذعر بعد الهزيمة التى حاقت بأسطولها على يد الجنويين عند ميلوريا Meloria سنة ١٢٨٤ ٠ ومع ذلك فان طول هذه الصراعات وعناد أصحابها لم تعرقل ولو للحظة ثراء وازدهار المتنافسين ، وقد كان ذلك دليلا لافتا للنظر لهذا النشاط التجارى الكبير الذى كان قائما ، ولتلك الأرباح الطائلة التى حققوها من جراء هذا الصراع التجارى المرير ٠

ولقد أعطت التوابل الباعث والمحرك لتجارة البحر المتوسط ، لكنها لم تستوعبها جميعهـا ٠ ولما كانت العـلاقات بين الشرق والغرب ، بين المسلمين والمسيحيين ، صـارت وطيدة ومستمرة ، فان نوعيـات كبيرة ومتزايدة من السلع الخام والمصنعة تبودلت بينهما ٠ ومنذ بداية القرن الثالث عشر ، كانت الصادرات الى أوربا تتألف من : الأرز ، البرتقال ، المشمش ، التين ، الزبيب ، العطور ، العقاقير الطبية ، ومواد الصباغة ، مثل خشب البرازيل (الذى يأتى من الهند) ، والقرمزى أو الشب ٠ الى هـذه السلع يضاف القطن ، الذى كان البنادقة يسمونه (bombacinus) باسمه اليونانى والجنويون يسمونه (قطنا Cotone) باسمه العربى ، الذى اشتقت كل اللغات اسمه منه ٠ ولقد استوردت أوربا خام الحرير منـذ نهاية القرن الثـانى عشر ، ومثل القطن ، عندما تزايدت كمياته ، فان تصنيع القطن والحرير قد قام فى أوربا ، أولا فى ايطاليا ، ومنها بعد ذلك الى بقية قـارة أوربـا ٠ كذلك كان هنالك الطلب على الأقمشة الشرقية

المصنعة ، التى قلدت بعد ذلك مؤخـرا فى أوربا ، فجـاءها الدمقس من دمشق ، والبلدشين baldachins من بغداد ، والموسلين من الموصل والغزى gauzes من غزة • ولا تزال قواميس اللغـات الأوربية الحديثة مملوءة بكلمات عربية الأصل ، جلبت مع تجارة الشرق وتظل شاهدا على نشاطها وتنوعها آنذاك • فى الانجليزية ، لدينا مثلا كلمات من أصل عربى مثل : divan بمعـنى ديوان ،و bazaar سوق ، و artichoke خرشـوف ، Spinach سـبانخ ، و tarragon الطرخـون ، و orange برتقـال ، alcove مظلة فى حديقة ، و arsenal (دار صناعة السفن – ترسانة)، و jar جـرة ، و magazine مجلـة ، و Syrup شراب ، و taffetas التفتاه (نسيج حريرى رقيق) ، و tare طرح (نبات) ، و tariff تعريفة جمركية ، وفى الفرنسية : douane, darse, gabelle, goudron, jupe, quintal, recif وغيرها كثير ، جاءت من العربية بواسطة الايطالية •

وفى مقابل كل هذه الواردات الى أوربا ، التى بواسـطتها سرعان ما انتشر تدريجيا مستوى معيشى رفيع فى غرب أوربا ، فان الايطاليين أمدوا موانى الشرق البحرية بالخشب والأسلحة ، كذلك أمدتها البندقية لبعض الوقت بالرقيق • لكن سرعان ما أصبحت الملابس الصوفية هى أهم ما يسـتورد الى الشرق من أوربا ، أولا اسـتوردت الفسـاتين الصوفية المصنعة فى ايطاليا ، ثم منذ النصف الثانى للقرن الثانى عشر الملبوسات من اقليـم الفلاندرز وشـمال فرنسـا • وليس هنالك شك فى أن تردد التجار الايطاليين على أسواق شمبانيا قد نبههم الى القيمة العالية لهـذه الملابس وأوحت اليهم بامكانية التجارة المربحة فيها • ولقد كان ميناء جنوة فى وضع طيب يمكنه من تصديرها الى الشرق ، وسرعان ما قام الجنويون بدور كبير فى سرعة تقدم هذه التجارة • وتزودنـا المراسـيم الموثقة فى أرشيفات جنوة بمعلومات مفادها أن الجنويين قبل بداية القرن الثالث عشر قد اسـتوردوا ملبوسـات من أراس ، وليـل ، وغنت ، ويربيس ، ودواى ، واميـان ، وبوفيه ، وكمبراى ، وتورنـاى ، وبروفـانس ، ومونتربيل (١) ، وغيرهم • ومن الملاحظ أن هذه القائمة ، تحتوى على أسماء عدد من المدن الفرنسية • لكن خلال القرن الثالث عشر ، تركت هذه المدن مكانتها لمدن الفلاندرز البرابانت ، التى أصبحت آنذاك مناطق

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٨ •

الملابس الممتازة وملابس الطبقة الراقية فى أوربا (١) • ويرجع سبب تفوقهم الى دقة واتقان ملابسهم ، التى لا مثيل لمرونتها ، ونعومتها وجمال ألوانها • وكانت هذه الملبوسات منتجات ترف بمعنى الكلمة ، وكانت لها سمعتها التجارية الواسعة بسبب الأسعار العالية التى طلبت ثمنا لها • ولقد لعبت المنسوجات الدور الذى لعبته التوابل بين المواد الغذائية ، ومن القرن الثالث عشر ، تبعا لسيطرة رؤوس أموال الجنويين وحنكتهم التجارية صار لهم الاحتكار فى تصدير الملابس الفلمنكية الى الجنوب • وبعد تدهور أسواق شمبانيا ، أقامت الشركات الايطالية التجارية الكبرى « وكلاء » لهم فى بروجز ، مكلفين ببيع كل الملابس الفلمنكية والبرابانتية • وكانت هناك بطاقات من الرصاص مثبتة فى هذه الملابس تحدد أسعارها ونوعيتها وقت التصدير • ولقد طلبت فلورنسا كمية كبيرة من هذه الملابس على يد بيت كاليمالا الشهير للأزياء (٢) •

وهكذا فان الصناعة الفلمنكية والبرابانتية قد لعبت منذ وقت بعيد دورا حيويا فى تجارة البحر المتوسط ، وكانت هى نفسها على علاقة مستمرة وثابتة مع بروجز • ولقد أعطت هذه الحقيقة بروجز وضعا لم تستطع أن تفاخر به أى مدينة أخرى فى أوربا العصور الوسطى • ولقد أطلق على هذه المدينة اسم « بندقية الشمال » ، وهى تسمية غير صحيحة ، لأن البندقية لم تحرز الأهمية الدولية التى انفرد بها هذا الميناء الفلمنكى • ولقد ادخرت قوة البندقية الجوهرية فى شحن سفنها ، ولا تدين بشىء للأجانب، عدا الألمان الذين كان لهم متجر دائم هناك Fondaco dei Tedeschi الذى كان نشاطه محدودا فى ابتياع السلع التى تصل على سفن البندقية • أما بروجز ، فعلى العكس من ذلك ، فانها كانت تشبه الدور الذى لعبه ميناء أنتورب Antwerp فى القرن السادس عشر بطريقة مذهلة ، عاشت أولا وأخيرا على عملائها الأجانب • وكانت الغالبية العظمى من السفن التى ترددت على مينائها تخص ملاك سفن من الخارج ، وقد قام سكانها أنفسهم بدور محدود فى النشاط التجارى وانحصر فى قيامهم بدور الوسيط بين التجار الذين احتشدوا فيها من كل الأنحاء • ومن

---

(١) كانت ثمة ازدهار صناعة الملبوسات فى هذه المدن مع بداية القرن الرابع عشر • وفى ذلك الوقت لعبت الملابس الفلمنكية والبرابانتية دورا مهما فى التجارة الواسعة أكثر من تلك التى فى فرنسا أو انجلترا • وفى انجلترا ، كانت الشكوى أن الفلمنكيين والبرابانتيين باعوا أصباغا وأمشاطا وأقمشة داخل المملكة مما أضر بالحرفيين أهل البلاد • Lipson, op. cit., t. I, p. 399.

(٢) A. Sapori, Una compagnia di Calimala ai primi del trecento; A. Doren, Die Florentiner Wollentuchindustrie wom XIV bis zum XVI Jahrhundert (Stuttgart, 1901).

القرن الثالث عشر فصاعدا ، كان لكل من البنادقة ، والفلورنسيين ، والكتلان ، والأسبان ، والبيونيين ، والبريطانيين والهانز مخازن أو مكاتب محاسبة وعقد صفقات · ولقد كانوا هم الذين تكفلوا بالنشاط فى هذا الميناء الكبير ، الذى خلف أسواق شمبانيا كنقطة اتصال بين تجارة الشمال وتجارة الجنوب ، باختلاف مؤداه ، أن هذا الاتصال بدلا ما كان مؤقتا ، كما كان فى الأسواق ، فانه قد أصبح الآن دائما ·

ولم تقم كل من جنوة والبندقية بعمل علاقات بحرية مباشرة مع ميناء بروجز قبل بداية القرن الرابع عشر · وحتى ذلك التاريخ فقد كانوا على اتصال بايطاليا وجنوب فرنسا فقط بواسطة البر · ومن ناحية أخرى، كانت السفن الشمالية ، دائما ما تأتى الى بروجز وسرعان ما تجنب البحارة الاسكندنافيون الورود الى ميناء تايل Tiel بعدما تعودوا على وروده· وعندما تحولت سيادة بحر الشمال والبلطيق خلال القرن الثانى عشر الى المدن الألمانية ، أعطت نتيجة عودة النشاط دافعا جديدا لثراء بروجز (١)· ومن المحتمل جدا أن يكون انشاء مينائها الخارجى (دام) Damme قبل سنة ١١٨٠ ، ثم ميناء سليز Sluys عند مصب نهر زوين Zwyn ، قبل عام ١٢٩٣ ، لا يفسر على أنه نتيجة لتزايد تراكم الطمى عند ميناء بروجز ، ولكن بسبب أن المراكب الشراعية الاسكندناوية الخفيفة العدو حلت محل سفن الهانز الثقيلة (coggen) ، التى كانت تحتاج الى مرسى أعمق ، وكانت تحتاج الى مساحة أوسع فى الميناء بسبب قدومها بأعداد متزايدة · ومنذ مجىء هذه المراكب يمكن أن نؤرخ التدهور النهائى لتجارة الفلاندرز البحرية ، التى لم تكن ، بالفعل ، كبيرة · ولقد أكمل اختفاؤها العمليات، التى بواسطتها أصبحت بروجز ميناء سلبيا خالصا ·

ولقد كان تطور صناعة الملابس فى حوض الشيلد السبب الرئيسى الذى جعل الهانز يتركزون فى بروجز ، شأنهم فى ذلك شأن الايطاليين · ولكن بالنسبة للهانز ، فلقد كانت مزية وجودهم هم أنفسهم على اتصال مستمر مع الايطاليين كان من أقوى دوافع جذبهم لهذه المدينة · وسرعان ما قام كونتات الفلاندرز ــ دون دراية بمصالحهم ــ برعايتهم · ففى سنة ١٢٥٢ قامت الدوقة مارجريت ، بناء على طلب لوبيك Lubeck ، نيابة عن عدة مدن من مدن الامبراطورية ، بتعديل جمع المكوس عند دام Damme ومنذ النصف الثانى للقرن الثالث عشر ، فقد ظل الكونتور Kontor الذى جلبه الهانز الى بروجز أو الاسترلينى ، أصبح وظل حتى نهاية العصور الوسطى أهم العملات التى كانت فى حوزتهم خارج ألمانيا ·

---

(١) A. Bugge, Der Untergang der norweigischen Schiffahrt im Mittelalter, in Vierteljahrschrift für Social und Wirtschaftsgeschichte, t. XII (1914), p. 92 et seq.

ولقد احتل الهانز التيوتون مركزا فى شمال أوربا مساويا لنفس القدر الذى احتله الايطاليون فى حوض البحر المتوسط • ومثلهم ، فقد خدم ذلك المركز الوساطة بين غرب أوربا والشرق • لكن الشرق الايطالى كان مختلفا تماما عن الشرق الهانزى • ففى الأول ، أسس البيزنطيون والمسلمون تجارة قائمة على لوازم الترف وصناعة متقنة قامت على مدى آلاف السنين من الحضارة • لكن الشرق الذى انطلق فيه الهانز فى استغلال يعتمد على الأرض ، كانت الى عهد قريب مستعمرات يسكنها برابرة بدائيون ، كان عليهم أيضا أن يواجهوا فى هذه البلاد شدة مناخ الشمال وقسوته ، وتربة لازالت فى معظم أجزائها كانت مغطاة بالغابات وبحر جعل ثلج الشتاء اجتيازه من الصعوبة بمكان • وعلى طول شواطىء المدن البلطية برزت مستعمرات جرمانية تقدمت وراء الألب • وتحت اغراء ليوبيك الشديد ، بنيت على ضفاف التريف Trave مستعمرات ضمت اليها الجزر ومصبات النهر • وحوالى سنة ١١٦٠ ، بنيت ويزبى Wisby على جزيرة جوثلاند Gothland ، التى أخذت من الاسكندناويين• وأسست روستوك Rostock حوالى سنة ١٢١٨ ، كذلك أسست سترالسوند Stralsund ودانزج Dantzig حوالى سنة ١٢٣٠ ، وأنشئت ويسمار Wismar حوالى سنة ١٢٦٩ • وظهرت ريجا Riga عند بداية القرن الثالث عشر ، بينما ظهرت دوربا Dorpat مابين سنوات ١٢٢٤ ، و١٢٥٠، وأخيرا ، وبعد حوالى عشرين عاما كان ظهور ريفال Reval • وهكذا ، فان الطبقة الوسطى من التجار ركزوا أنفسهم على ساحل الأراضى السلافية واللتوانية واللتيشية حتى قبل أن تكتمل غزوتهم لها • ولم يكن فرسان التيوتون قد احتلوا كل بروسيا بعد أن أسسوا كونجزبرج Konigsberg • لكنهم كانوا على التو قد وضعوا أساسات مدينة ايلبنج Elbing • ولقد وضعوا أقدامهم فى نفس الوقت على ساحل السويد ، واستقروا فى ستوكهولم وتملكوا مصايد سمك سردين شبه جزيرة سكانيا •

ولقد كان بعض أنواع اتفاقيات الحماية العامة ضرورية فى هذه الموانى المتقدمة التى كانت داخل أقطار لا تزال نصف مغلوبة وتقع على شواطىء البحر وقد طرد الاسكندناويون منها حديثا ، واقتداء بلوبيك الذى أنجز فى حوالى سنة ١٢٣٠ معاهدة صداقة وحرية تجارة مع هامبورج، اتحدت مدن البلطيق الصغرى فى عصبة ، التى سرعان ما اتحدت مع موانى بحر الشمال وصارت تعرف بالهانز ، وهو اسم استخدم بشيوع لاتحادات التجار • ولقد أعطاهم اتحاد المدن البحرية الألمانية ، الذى شكل تناقضا ملفتا لحروب المدن الايطالية على حوض البحر المتوسط المستمرة ، الغلبة على كل مياه الشمال ، التى حافظوا عليها حتى نهاية العصور الوسطى •

وبسبب هذا الاتفاق ، نجحوا فى تماسك أنفسهم ضد الهجمات التى قادها ضدهم ملوك الدانمرك وفى تنمية مصالحهم الخاصة بالخارج ٠

ولقد كان ميزان لندن القبان هو أســاس تجارة الهانز فى غرب أوربا ، الذى تأسس فى منتصف القرن الثانى عشر ، وفوق ذلك كله كونتور Kontor بروجز ٠ وفى الشرق ، كان لهم ميزان آخر فى نوفجورود Novgorod ، الذى بواسطته صرفوا تجارة روسيا ٠ وعن طريق الويزر Weser والألب والأودر انتشرت تجارتهم الى داخل ألمانيا ، وعن طريق الفستولا سادوا بولندة ودفعوا عملياتهم الى حدود البلقان ٠ ومن ناحية أخرى ، فقد أغلق الطريق التجارى الكبير ، الذى بواسطته فى الماضى اتصل البلطيق بالقسطنطينية وبغداد عبر روســيا ، حتى انشــاء باتزيناكس Patzinaks على شواطىء البحر الأسود وبحر قزوين فى القرن الثانى عشر ، مما أعطى للبحر المتوسط احتكار العلاقات مع البيزنطيين والشرق الاسلامى ٠

وفى تناقض ملفت للنظر مع الموانى الايطالية ، نجد أن صادرات الهانز كانت من المحتم أن تتكون من منتجات طبيعية ، التى كانت كل ما تستطيع أن تقدمه المقاطعات الزراعية الخالصة النائية للتجارة ٠ ويأتى فى مقدمة تلك الحاصــلات ، القمح من بروســيا ، والفراء والعسل من روســيا ، والخشب ، والقطران ، والسمك المجفف والرنجة المملحة من مصايد أسماك سكانيــا ٠ ولكن اضافة الى ذلك فانهم أضافوا شحنات الصوف التى جلبتهــا سفنهم من انجلترا وملح بورجنيف Bourgneuf « مفــازة الملح » (Bay Salt) ، الذى حملوه فى خليج بســكاى ، حيث حملوا من هنالك أيضا حمولات من النبيذ الفرنسى ٠ وقد انجذبت كل هذه الحركة التجارية حول بروجز ، التى كانت الحلقة الرئيسية لتجارة الهانز ، فى منتصف الطريق بين البلطيق وخليج بسكاى حيث تتوقف هنالك ٠ ولقد كانت التوابل من ايطاليا والملابس من الفلاندرز وبارابانت تعرض على التجار الألمان وتحمل بواسطتهم بعيدا حتى نوجورود وجنوب بولندة ٠ وفى كل المدن البحرية كدست هذه السلع وفى دكاكين الملابس الراقيــة gewandschneider ، التى كانت تبيــع الملابس للبرجوازيين الأغنياء ٠ وكان حجم تجارة الهانز بالتأكيد مساويا ان لم يكن يزيد على حجم تجارة البحر المتوسط ، لكن من المؤكد أنها كانت تشتمل على رأس مال أصغر من رأسمالها ٠ ولم تكن قيمة بضائعها التى تعاملت معها تسمح بالأرباح الكبيرة كتلك التى حققتها مبيعات التوابل ، فلقد كان الصرف عليها كثيرا والعائد منها قليلا ٠ ولذلك فليس من المستغرب ألا تقابل فى

مدن الهانز هذه البيوتات المالية القوية التى أعطت ايطاليا العصور الوسطى السيطرة المالية على أوربا • ولقد كانت هنالك هوة سحيقة بين البيوت التجارية مثل بيت باردى Bardi أو بيروزى Peruzzi والتجار الأمناء مثل وتنبرج فى ليوبيك وجيلديرنسين Geldernsen فى هامبورج أو تولنير Tolner فى روستوك • وهذا التناقض كان أيضا كبيرا بين التقنية التجارية المتقنة للأولى وطرق الأخيرة الساذجة •

ولم تحرز أى منطقة أخرى فى ألمانيا نفس درجة حيوية الهانز الاقتصادية • وفى القرن الثالث عشر أخذت المدن البحرية أولوية مدن الراين ، التى أدخلت الحضارة المدنية الى الامبراطورية • وكانت كولونيا التى ظلت تحت حكم الهوهينشوفين Hohenstaufen سوق ألمانيا الأكبر، قد تغلبت عليها ليوبيك منذ حوالى سنة ١٢٥٠ ، ولكن لما كان الراين أحد الطرق الرئيسية ما بين ايطاليا والأراضى المنخفضة ، كما فعلت أوتريخت فى اتجاه النهر ومينز وسبايرز وورمز وستراسبورج وبازيل أعلى النهر • وكان هنالك تصدير ملحوظ للنبيذ من كروم الراين والموزل وصناعة مزدهرة فى كل المراكز الرئيسية ، لذلك كانت هذه المنطقة آنذاك منطقة محط الأنظار •

أما عن جنوب ألمانيا ، فبرغم أنه كانت له صلاته مع تجارة البحر المتوسط من خلال البندقية ، لكنه كان لا يزال بعيدا للغاية عن الازدهار الذى بلغه عند نهاية العصور الوسطى • فان فندق دى تيدشى Fondaco dei Tedeschi ، الذى أقامه التجار الألمان فى مدينة البحيرات ، لا يمكن أن يقارن بأية حال من الأحوال بكنتور الهانز القوى فى بروجز • وكان العمل فى مناجم التيرول وبوهيميا قد بدأ فى التو ، والتجارة فى ملح سالزكاميرجو Salzkammergut ولونبورج Luneburg كان لا يمكن أن يدخل فى منافسة مع ملح بورجنيف Bourgneuf الذى كان يحمل بحرا الى كل مكان • ولقد ظل المنفذ العظيم الذى فتحه الدانوب فى البحر الأسود غير مستعمل ، ويخدم فقط الترانزيت بين بافاريا والنمسا عن طريق أوكسبرج ، ريمينسبرج وفيينا ، لأن عدم ظهور دولة المجر واضطرابات البلقان التى لا تتوقف قد منعتا كل حركة تجارية له عند مجراه الأدنى • زيادة على ذلك ، فان تقسيمات ألمانيا السياسية الكثيرة ، وضعف الأباطرة ، وصراعات الأسر الحاكمة المنافسة ، كانت كلها عوامل غير موافقة لنمو النشاط الاقتصادى• وليس هذا بمقام لسهب فيه الحديث عن الفوائد التى حصلت عليها ايطاليا بسبب حضارتها المتقدمة وموقعها الجغرافى الذى مكن داخل بلادها فى كل مكان من الاتصال بالبحر بسهولة •

أما انجلترا ، فهى وحدها التى كانت فى أوربا لها حكومة قومية مكنتها من فرض سيطرتها على كل أطراف القطر ، بدون مواجهة عقبة أمراء الاقطاع ، وتمتعت بنظام اقتصادى عال بالنسبة لكل ولايات القارة الأوربية • لكن صناعتها وكذلك تجارتها لم تستفد من هذه الظروف المواتية • وحتى منتصف القرن الرابع عشر ، ظلت قطرا زراعيا رئيسيا • وباستثناء لندن ، التى تردد على مينائها تجار من القارة منذ القرن الحادى عشر ، فان كل المدن قبل حكم ادوارد الثالث كانت قانعة بالانتاج المحدود لمطالب مواطنيها ومطالب الريف المحيط بها • باستثناء ستراتفورد خلال خمسينات القرن الثالث عشر ، فلقد كانوا ينتجون صوفا جيدا منتجا فى المملكة كان ضروريا لاستهلاكهم الخاص ، ولزبائنهم المحليين • ويوجد سبب هذا الشذوذ الواضح فى تقدم الفلمنكيين غير العادى فى صنع الملابس منذ العصور الوسطى المبكرة • وبسبب تفوق جيرانهم فى الأراضى المنخفضة عليهم فى ذلك المجال ، اكتفى الانجليز بمدهم بالمادة الخام • فلقد كانوا لصناعة الملابس الفلمنكية مثل جمهورية الأرجنتين واستراليا لصناعة الملابس فى أوربا وأمريكا اليوم • وبدلا من المنافسة معهم ، كرسوا أنفسهم لانتاج المزيد والمزيد من الصوف ، حيث كان يجد سوقا لبيعه دائمة • ولقد أصبحت مواقع أديرة انجلترا المكان المفضل لمراعى الفلاحين • وتسببت تجارة الصوف فى ازدهار سوق سانت اييف St. Ives على الأوز Ouse ، وسوق سان جيلز St. Giles فى ونشستر Winschester وستوربريدج Stourbridge • وسوق سان بوتولف St. Botolph فى بوسطون ، ووستمنستر ، ونورثهامبتون وبريستول ، بينما ، فى نفس الوقت ، قدم للتاج جزءا كبيرا من دخله وأدى الى نشاط متجدد زائد فى الموانى (١) •

لكن ، الشيء الذى يبدو غريبا ، هو أن السفن الانجليزية لم تكن تنقل منتجاتها الصوفية • وفى البداية ، كانت أصوافهم تحمل على سفن أوربية ومنذ القرن الثالث عشر صار نقلها احتكارا على الهانزالتيوتون • ولم يبذل ملوك انجلترا أى محاولة لترقية نقل تجارة سلعهم قبل نهاية العصور الوسطى (٢) • بل على العكس من ذلك ، فلقد أظهروا رغبتهم التامة فى

(١) A. Schaube. Die wollausfuhr Englands vom Jahre 1273, in Vierlelijahr-ift fur Social — und Wirtschaft — Sgeschichte, t. VI, (1908).

(٢) فى سنة ١٣٨١ ، صدر مرسوم بقصر تجارة المملكة على السفن الانجليزية • لكن وجد أنه من المستحيل تنفيذه ، وأنه من الضرورى العودة لما سبق وهو النقل على سفن الهانز • ومع ذلك ، يجب أن يعتبر مرسوم ١٣٨١ كبداية سياسة جديدة ، تنذر بتدخل الدولة فى الاقتصاد • انظر : سالتر فى : F. R. Salter The Economic History Review (1931), p. 93.

جـــذب التجار الأجانب الى شواطئهم ، بمنحهم كل أنواع التسهيلات • ولقد كانت دوافع سياستهم أساسا بوضوح ، دوافع مالية ، لأن دخلهم كان يعتمد على الضرائب المحصلة من التجارة الخارجية ومن السلفيات التى حصل عليها التاج من الرأسمالية التى تأسست فى لندن • ومع القرن الثالث عشر توافد الايطاليون الى هناك بأعداد كبيرة ، وقاموا جنبا الى جنب ، بعمليات مالية واتجار فى الصوف ، الذى باعوه فى الفلاندرز ، أو أخذوه مباشرة الى مراكز صناعة الملابس وراء الألب ، وبخاصـــة الى فلورنســا •

وكان الشكل الاقتصادى لفرنسا أكثر تعقيدا منه لانجلترا • ولقد كانت فرنسا دون جدال وحدة اقتصاديه متكاملة قبل نهـاية العصـــور الوسطى • وكانت تتكون من عدد معين من الأقاليم المتجاورة ، التى ليس ما بينها وبين بعضها من علاقة بأكثر مما بينها وبين الأقاليم الأجنبية• ففى الجنوب ، مونتبلييه ، وايجوسمورت ونارون فى لانجيدوك Languedoc وفوق كل ذلك ، مرسيليا فى اقليم البروفانس ، التى لعبت دورها فى تجارة البحر المتوسط والتى فى خلال القرن الثالث عشر قامت بتصدير فعل للبوسات الفلاندرز واستيراد التوابل • ولكن قـــرب نهـاية القرن ، قلل فشـــل حمـــلة القـــديس الصـــليبية ومنافســـة جنـــوة لهـــا من انتعاشها ، الذى لم تستعده حتى القرن السابع عشر • ومنذ ذلك الوقت كانت تجارة مرسيليا محصورة عند جنوب فرنسا • ولقد كان تدهورها معاصرا ، تقريبا ، لتدهور أسواق شمبانيا . والتى ، كما رأينا ، كانت منذ بداية القرن الثانى عشر المركز التجارى الكبير لأوربا • ولقد استفادت باريس كثيرا من هذا التدهور ، وصـــارت هى وبروجز المكان الرئيسى للبيوت التجارية الايطالية شمال الألب • وهنالك تعرفوا على صناعة الحرير وكرسوا أنفسهم أساسا للأعمال المصرفية • لكن الدور الذى لعبته باريس فى تاريخ العصور الوسـطى الاقتصادى ليس له صـلة بمقام الحضارة الفرنسية وبسيادة فرنسا السياسية فى بداية حكم فيليب – أغسطس • وهى كمدينة عالمية بسبب جامعتها، لم تكن عالمية فى تجارتها أو صناعتها• ولم تجتذب أى أجانب سـوى الايطـاليين وبعض البرازين من الأراضى المنخفضة ، وبرغم سرعة تزايد عدد سكانها ، فان ذلك أساسا يعود الى وجود البلاط بها وبتقدم السياسة المركزية • وان عدد ال ٢٨٢ سلعة التى وجدت بها عند نهاية القرن الثالث عشر (١) كانت قد جلبت على يد عدد

---

(١) مجموع هذه السلع ال ٢٨٢ سلعة مختلفة قد أخذ من قائمة أعدها :
G. Fagniez, Etude sur l'industrie et la classe industrielle à Paris au XIIIe et au XIVe siècle, p. 7 et seq. (Paris, 1877).
محذوفا منها المتكرر كذلك الخدم والوصيفات •

قليل من الدكاكين ، كانت تمد المدينة بما تحتاجه ، دون محاولة أن يتوسعوا مع السوق الخارجي . ومن وجهة النظر الصناعية ، لم تكن فرنسا دولة مصدرة للمصنوعات مثلما كان الحال بالنسبة لايطاليا وللأراضي المنخفضة . ولقد نشر معماريوها ونحاتوها فنهم في أوربا ، لكن تقصيرها في الدور الذي لعبته في التجارة العالمية يرجع فقط الى استغنائها عنه بسبب وفرة غناها الطبيعي .

وبين تلك السلع ، احتل النبيـذ ، دون شك ، المكان الأول . وانه من المثير للدهشة والمؤسف حقا أن لا يدرس موضـوع الكروم وتجـارة النبيذ دراسة بطريقة تتوافق مع أهميتهما (١) . وان الدور الذي لعبه النبيذ في وجبة أهالي البلاد الذين لا ينتجون النبيذ تبدو كبيرة الأهميـة في العصـور الوسطى عما هي عليه في وقتنا الحاضر . ففي انجلترا ، وألمانيا ،والأراضي المنخفضة خاصة ، كان عادة مشروب الطبقة الغنية . وفي غينت ، كان الكييور Keure هم الذين يمثلون الطبقة البرجوازية ويشربون النبيـذ الفرنسي (٢) في القرن الثالث عشر ، طالما أن النبيـذ الايطالي كان لا يصلهم وأن انتاج الراين والموزيل كان محدودا . ولقد حقق النبيذ الفرنسي من القرن الثالث عشر سيادة لا تحتمل الشك في التجـارة العالمية للأقطـار الشمالية . ولقـد بدا أن نبيذ وادي السـين وبرجانديا كان يصدر فقط على سفن روان ، لكن نبيذ بوردو ، بسبب وفرته ، ونوعيته الجيدة وحقيقة أنها قريبة من البحر مما جعل تصديره سهلا ، أصبح متزايد الشهرة حين بدأت حركة النهضة الاقتصادية في القرن الثاني عشر . ومن مرسى أورليان وميناء لاروشيل (التي نسب اليها نبيذ لاروشيل) ، والذي عرف به في التجارة ، قامت سفن جاسكون ، وبريتون والسفن الانجليزية ، في المقدمة ، منذ منتصف القرن الرابـع عشر ، وقد حمله الهانز الى بحر الشمال والى أقاصي بحر البلطيق . ولقد نفذ الى داخل أوربا بواسطة النهر . وفي لييج Liége ، عند بداية القرن الرابع عشر ، وصلت كميات منه هناك وبيعت بأسعار أرخص من أسعار نبيذ ألمانيا ، رغم بعد المسافة (٣) . وفي انجلترا ، كانت غسقونيا تعتمد عليه حتى منتصف القرن الخامس عشر ، وزودهـم النبيذ بسوق دائم

---

(١) H. Pirenne, Un grand commerce d'exportation au Moyen Age : les vins de France, in Annales d'histoire economique et sociale, 1933, p. 225 et seq. — Z.W. Sneiler Wynvart en Wynh and el tusschen Frankryk en de Noordelike Nederlanden in de tweede sociale, 1933, p. 225 et seq. Z.W. Sneller, Wynvaart en Wynhandel helft der XVeeuw, in Bydragen voor Vaderl gescfiedenis (1924).

(٢) Warnkoenig — Gheldolf, Hist, de la Flandre, etc., t. III, p. 284.

Hocsem, Gesfa episcoporum, ed. G. Kurth, p. 252.

مفتوح • ولقد أرست تجارة النبيذ أساس ثروات معتبرة ، وحتى اليوم فان اشراف الانجليز ونبلاءهم مازالوا يضمون بينهم عائلات تدين بارتفاعها له (١) • ولقد كانت تجارة نبيذ بوردو المحمولة مهمة جدا ، لدرجة أن العرف التجارى فى سفن النبيذ أدى الى نشأة قانون شمال أوربا البحرى• وقد تكونت قوائم أوليرون Rolls of Oléron ، المصاغة حوالى نهاية القرن الثانى عشر ، من « أحكام » تتصل بسفن النبيذ ، وقد ترجمت هذه الأحكام ، منذ وقت مبكر ، الى الفلمنكية فى دام Damme ومنها انتشرت الى انجلترا حتى البلطيق ، حيث عرفت هنالك بقوانين وسبى البحرية Sea Laws of Wisby (٢) •

وبسبب مصادفة جغرافية سعيدة الحظ ، كانت مناجم ملح بورجنيف Bourgneuf ملاصقة تماما للاورشيل ، حتى ان تجار السفن كانوا يستطيعون أن يحملوا النبيذ والملح فى وقت واحد • وفى خلال القرن الرابع عشر ، صدرت سفن الهانز كميات كبيرة من ملح المفازات الى ساحل سكانيا Skaania ، حيث تقدمت هنالك عملية صيد أسماك الرنجة • وحتى فى ألمانيا سرعان ما نجحت منافستها فى ذلك مع لونبورج وسالزبورج (٣) •

جنبا الى جنب مع النبيذ والملح ، صدرت فرنسا الغلال من منطقة ارتوا Artois ونورمانديا • وكانت النيلة ، التى سميت فى العصور الوسطى « خضاب العصور الوسطى » ، تزرع فى بيكاردى Picardy حيث وصلت تجارتها الى أميان Amiens ولانجيدوك Languedoc ، حيث أسهمت بشكل واسع فى ازدهار تولوز ، ووجدت سوقا جاهزا لها فى مصانع ملابس الفلمنكيين والايطاليين •

وهكذا فان فرنسا العصور الوسطى ككل كان لها نفس طابع فرنسا اليوم وكانت صناعتها تكفيها وتكفى احتياجاتها ، ما عدا القليل من المنتجات الكمالية ، مثل الأوانى المطلية بالمينا ، فقد كان نصيبها قليلا

(١) على سبيل المثال دوقات بدفورد ، انظر :
G. Scott Thomson, Two Centuries of Family History (London, 1930).

(٢)
Th. Kiesselbach, Der Ursprung der rôle d'Oléron und des Seerchets von Damme, in Hansische Geschichtsblatter, 1906, p. I et seq.

(٣) A. Agats, Der hansische Baienhandel (Heidelberg, 1908).
Cf. H. Hau er, Le sel dans l'histoire, in Revue économique international (1927).

فى التجارة العالمية . ولقد كانت تجارة ملابس المدن الشمالية ، حقيقة ، نشطة للغاية طالما كانت أسواق شمبانيا مزدهرة ، لكن بعد تدهورها أخذت منتجات الفلاندرز والبرابانت مكانها فيها . وظلت تورنساى فى أقصى شمال المملكة وفالنسيا Valenciennes (التى ، مع ذلك ، تنتمى الى الامبراطورية) ظلتا بالتأكيد مراكز للملابس من الدرجة الأولى ، ولكنهما اتجهتا نحو بروجز وانتمتا لاقتصاد الأراضى المنخفضة المركزى . وتكونت ثروة فرنسا ، فوق كل شىء ، من وفرة ، وتنوع وتميز منتجات تربتها . وقد جعلها نبيذها على الخصوص ، الذى كان لابد من ظهوره على كل موائد المقتدرين جنبا الى جنب مع التوابل ، جعلها ، هى وايطاليا ، المتعهدين الوحيدين لتوريد الطعام الفاخر لأوربا . لكن يجب أن يلاحظ أن فرنسا على النقيض من ايطاليا لم تصدر بنفسها السلع التى كانت تنتجها للتجارة. وباستثناء سفن مرسيليا وموانى البروفنسال ، التى شاركت بنصيب فعال فى تجارة البحر المتوسط ، يمكن القول انها لم يكن لها أسطول تجارى . ولقد تنازلت عن الملاحة فى سواحل خليج غسقونيا ، وفى القنال وبحر الشمال تماما للأجانب ، من الباسك ، والبريتون ، والأسبانيارد ، والهانز . ولكن برغم أنه لم يكن عند فرنسا آنذاك تجارة كبرى ولا صناعة مربحة ، فانها تمتعت بما عوضها عن ذلك ، حتى كارثة حرب المائة عام ، بالرخاء والاقتصاد الثابت الذى لا يوجد فى مكان آخر ، والذى بدون شك كان له نصيب فى ازدهار وتألق الحضارة الفرنسية فى القرن الثالث عشر (١) .

وبمجرد ما طردت مملكة الأسبان الفاتحين العرب لبلادهم بدأت تلعب دورا كبيرا متزايدا فى التاريخ الاقتصادى . ولقد عرفت برشلونة فى اقليم أراجون منذ القرن الثالث عشر بروحها الجريئة وبملاحيها الشجعان . ويرجع الفضل لليهود الذين بقوا فى أسبانيا بعد (التحرير) ، والذين كانت لديهم مبالغ كافية للقيام بالتجارة البحرية ، والذين سرعان ما تعلموا فن ايطاليا التجارى . وبادىء الأمر ، مثلما فعل البنادقة فى الماضى ، انغمست برشلونة فى تجارة الرقيق ، لأن الحرب مع المسلمين زودتهم بعدد كاف من أسراهم من البربر . ومن الطبيعى أن تعطى وساطة ملوك أرجون فى صقلية باعثا جديدا لعلاقاتها بهذا القطر(٢) ، بينما حركت

---

(١) وفقا لما أورده لوت : F. Lot. L't'at des paroisses et de feux ......de 1328, in Bibliothèque de l'Ecole des Charets,, t. xc (1929), p. 405.
فان سكان فرنسا (داخل حدودها الحالية) وصلت سنة ١٣٢٨ الى أعلى رقم سكانى وهو ٢٣ ـ ٢٤ مليون نسمة .

(٢) انظر مقال Sayous الوارد فى قائمة المصادر ، ص ١١٨ ، حاشية ١ .

حملات الكتلان المخاطرة الى بلاد اليونـان ، وبعد ذلك بقليـل الى جزر بحر ايجة ، بالمثل مع التجارة مع الشرق ، حيث قام مواطنو برشلونة بالحرب والتجارة في وقت واحد · ومنذ بداية القرن الرابع عشر خاطرت سفنهم بالنزول الى أسفل جبل طارق · وعنـد بروجز التقوا بسـفن غاليسيا والبرتغال ، التى سارت على الساحل التجارى وحملت التجارة على شواطىء الأطلنطى ، مصدرة المعادن بصفة أساسية والأصواف الأسبانية التى حلت مكان الأصواف الانجليزية فى مصانع الأراضى المنخفضة عند نهاية العصور الوسطى ·

واذا ما وضعنا فى اعتبارنا السلع التى غذت التجارة العـالمية فى العصور الوسطى ، نلحظ أن المنتجات الصناعية كانت قليلة بشكل كبير عن المنتجات الزراعية والامدادات الغذائية ، والتوابل ، والنبيذ ، والقمح ، والملح والسمك والأصواف·وفقط الملابس المصنوعة ، أولا تلك التى كانت للأراضى المنخفضة ومؤخرا تلك التى كانت لفلورنسا ، هى التى كان لها نصيب كبير فى التصدير التجارى · ولقد كان استيراد المنسوجات الحريرية والمواد الكمالية فى ايطاليا محدودا بالنسبة لكل فروع الصناعة (الأوانى ، الأثاث ، الأحذية ، الملابس ، الآلات والأدوات بمختلف أنواعها) وظل داخل حدود المدن وكان احتكارا لصانعيهم ، ولا يغذى الا السوق المحلى ·

ولكن هنالك استثناءات قليلة ممكن أن نشير اليها · ففى ألمانيا ، فى هيلديشيم Hildesheim ونورمبرج ، فى وادى الميز ، وفى هاى Huy وقبـل ذلك فى فى دينـانت Dinant ، تقدمت الصناعة المعدنية الى حد المساهمة فى التجارة العالمية · ولقد تمتعت مصنوعات دينانت النحاسية ، المعروفة بديناندريس Dinanderies بشهرة أوربية · ومع ذلك ، فان أحد أكبر التناقضات بين اقتصاد العالم الحديث واقتصاد العصور الوسطى يوجد فى التطور الأساسى في صناعة استخراج المعادن فى العصور الوسطى· ولقد كان عمال المناجم فى التيرول ، وبوهيميا وكارنيثيا ليس بأقل من مجرد فلاحين ملتصقين بجبل ويعملون بأكثر الطرق بدائية · وليس قبل القرن الخامس عشر قام الرأسماليون للمدن المجاورة لهم بفرض سيطرتهم عليهم وبتطوير العمل فى المناجم ، التى كانت حتى ذلك الوقت لازالت قليلة القيمة · كذلك كانت العناية قليلة حتى ذلك الوقت فى صـناعة استخراج الفحم ، برغم أن الفحم كان يستخدم عند جيرانهم فى ليبيج من نهاية القرن الثانى عشر ، وفى القرن التالى اكتسب عمال المناجم فى ليبيج مهارة ملحوظة فى فن التنقيب فى باطن الأرض ، وفى حفـر آبار المنـاجم ونزح المياه من الحفر · ولكن لعدة قرون اسـتخدمت الأرض السوداء (الفحم) terra nigra فقط لأعمال منزلية فى المناطق التى كان بها

الكثير منها (١) . وليس قبل القرن الثامن عشر حين زاد الطلب عليه في صهر الحديد ، ليفتح بذلك مرحلة جديدة في التاريخ الاقتصادى .

وفي خلال القرن الثالث عشر ، انفتحت كل أوربا من البحر المترسط الى البلطيق ومن الأطلنطى حتى روسيا على التجارة العالمية . ومن مركزيها الرئيسيين ، الأراضى المنخفضة في الشمال وايطاليا في الجنوب ، وصلت الى سواحل البحر ، ومنه تقدمت باضطراد داخل القارة الأوربية . وفي مواجهة كل الصعاب التى كان عليها التغلب عليها ، من ظروف التداول والتوزيع التى كانت في حالة يرثى لها ، ووسائل النقل غير الوافية للغرض ، وعدم الأمان العام وعدم كفاية نظام التداول النقدى ، لا يسعنا الا أن نعجب بعظم النتائج المتحصل عليها . ولقد كانت كل هذه الصعاب مدركة لان الحكومات لم تفعل شيئا من أجل التجار سوى حمايتهم لدوافع مالية . ولا يوضح التقدم الذى أنجز في مجال التجارة العالمية سوى نشاط التجار أنفسهم وروحهم العالية وبراعتهم . ولقد تعلم الايطاليون ، الذين كانوا الرواد في هذا المجال لأوربا ، دون شك الكثير من البيزنطيين والمسلمين ، الذين كانوا أكثر حضارة منهم وكان لحضارتهم المتقدمة النفوذ عليهم مثلما كان لحضارة مصر وفارس النفوذ على بلاد اليونان القديمة . ولكنهم ، مثل الاغريق ، الذين تماثلوا أيضا في صراعهم الداخلى العنيف ، سرعان ما استوعبوا وارتفوا بما استعادوه منهم . فأسسوا مجتمعات تجارية ، وأنشأوا مصارف ، وأصلحوا العملة . ولقد كان انتشار أساليبهم الاقتصادية في شمال أوربا مثيرا للاعجاب مثلما فعلت الحركة الانسانية humanism في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وفي الختام ، يجب المرء أن يتمكن ، ببعض التدقيق ، من تقدير حجم هذه التجارة العالمية ، الذى نستطيع من خلاله رسم الخواص الرئيسية لها (٢) . ولسوء الحظ فان ندرة معلوماتنا في هذا الخصوص أجبرتنا على أن نفقد الأمل في الوصول الى مثل هذا التقدير . ولمقارنة هذه التجارة بالتجارة الحديثة ، يكون ذلك ، بالطبع ، من أعمال العبث . وليست هنالك مقارنة ممكنة بين تجارة العالم العالمية اليوم ، التى تحت يديها كل وسائل العلم الحديثة ميسرة ، وتلك التى كانت في العصور الوسطى ، المحدودة في

---

(١) وكان ذلك في غياب أعمال مناجم الفحم في العصور الوسطى ، في ذلك يمكن الرجوع الى :
J. A. Nef, The Rise of the British Coal Industry, 2 vols, (London, 1932).

(٢) بصدد هذا ، انظر : Kulischer. Op. cit., t. I, p. 263 et seq.

غرب أوربا والتي استخدمت فقط الأساليب البدائية • وعملاء الأولى كانوا يعدون بالمئات ، بينما عملاء الأخيرة بعشرات الملايين ، وحمولة سفينة واحدة من سفن القرن العشرين مساوية لحمولة كل سفن البنادقة والجنويين فى القرن الثالث عشر • ولا شيء نستطيع أن نحرزه بمحاولة تقدير أهمية تجارة العصور الوسطى بالنسبة للتجارة العالمية القريبة منها فى القرن الخامس عشر • ورغم أن الفرق الملحوظ قليل ، لكنه لازال معتبرا ، على الأقل بسبب كشف جزر الانديز وأمريكا • ولقد ظن أن تجارة العصور الوسطى ، قياسا لتجارة القرن السادس عشر أو السابع عشر بنسبة خمسة الى واحد ، لكن مع غياب الأرقام تكون المقارنة ليست ذات معنى • كل ما نحتاج اليه هو احصائيات هذه التجارة ، وهذه لا يمكن تخمين تقديرها • كل ما نستطيع أن نقوله ان حجم تجارة العصور الوسطى قد توافق مع النشاط الاقتصادى الذى شهدت عظمته بشكل كاف موانى : البندقية ، وجنوة • وبروجز ، والمستعمرات الايطالية فى الشرق ، وسفن مدن الهانز، وتقدم وازدهار أسواق شمبانيا •

٢ ـ خاصية رأسمالية التجارة العالمية (١)

لقد دافع الاقتصاديون ، الذين أكدوا قلة قيمة تجارة العصور الوسطى ناظرين اليها من الزاوية الخاطئة على ضوء القرن العشرين ، عن رأيهم مستشهدين فى ذلك بغياب طبقة التجار الرأسمالية فى أوربا قبل عصر النهضة • وربما عمل هؤلاء الاقتصاديون استثناء لصالح بيوت المال الايطالية القليلة التى قامت آنذاك ، لكن ذلك الاستثناء هو الذى أثبت حقيقة وجود الرأسمالية التجارية • ولقد تأكد بالبحث أن التوصيف الحقيقى لتاجر العصور الوسطى " من أنه تاجر صغير ، كل همه كسب معاشه ، وليست لديه طموحات للغنى أو الرغبة فى اثراء نفسه • وهذه الحقيقة لا يمكن انكارها ويؤكدها وجود أعداد من البائعين بالتجزئة من هذا النوع بين بورجوازية المدن الصغيرة ، وسيكون غريبا أن نقلل من

---

(١) Bibliography. G. von Below, Grosshandler und Kleinhandler imdeutschen Mittelalter, in Probleme der Wirtschaftge chichte (Tübingen, 2nd ed., 1926). F. Keutgen, Der Grosshandel im Mittelalter, in Hansische Geschichte sblatter (1901). H. Siveking, Die Kapitalische Entwickelung in den italianischen Stadten des Mittelalters, in in Viertel jahr chrift für Social und Wirtschaftsgeschichte, t. VII (1909). J. Strieder, Studien zur Geschichte Kapitalistischer Organi-ations formen (Munich, 2nd ed., 1925). G. Luzzatto, Piccoli e grandi mercanti nella citta italiane del Rinascimento, in Volume commemorativo in onore del prof. Giuseppe Prato (Turin, 1930). W. Sombart, Kapitalismus, see p. ix. H. Pirenne, Les étapes de d'histoire sociale du capitalisme, in Bulletin de la classe des loteres de l'Académie royale de Belgique, 1914.

شأن المصدرين والصيارفة ، الذين وصفنا عملياتهم وحددنا مستواهم ·
ولا ينكر أهمية نفوذ الرأسمالية التجارية منذ بداية حركة النهضة الاقتصادية الا أولئك الذين تحجب أنظارهم نظريات مسبقة تماما ·

وبالطبع فان الرأسمالية والتجارة الواسعة النطاق ، التى لا تعرف أسبابها ونتائجها فى الحال ، لا تظهر فى نفس التاريخ فى كل الأقطار ولا تنمو فى كل مكان بنفس القوة والنشاط · وفى هذه الحالة ، تتقدم ألمانيا وراء الراين دون تساؤل غرب أوربا ، ولا تسبقها فى ذلك الا ايطاليا· وليس هنالك شك اذا ماوضعنا خارج الاعتبار أن كثيرا جدا من الدارسين الألمان قد عمموا ، دون تمحيص ، النتائج الخاصة بهذا الأمر والتى كان بها جانب من الصحة فى الماضى · وقد كان الاهتمام الأول لهم من وراء أعمالهم هو قبول هذه التعميمات ، حتى لوحظ أنه لكى نصحح تجاوزاتهم هذه أنه من الضرورى علينا أن نطبق نفس الأساليب التى طبقت مع الأقطار التى كان التقدم فيها أسرع منه فى ألمانيا والتى حقق فيها الاقتصاد الوسيط أقصى تقدم له ــ ولقلة ما ذكرته مصادر العصور الوسطى عن الرأسمالية فى القرن الثانى عشر صار لذلك وجود الرأسمالية محل شك (١) · ومنذ ذلك الوقت أحرزت التجارة ذات المسافات البعيدة دون ريب ثروات ملحوظة · ولقد سبق أن ذكرنا فى هذا الخصوص قضية جودريك Godric وقد كانت الروح التى زرعت فيه النشاط روح الرأسمالية فى كل العصور· لقد تعقل ، وحسب حساباته وكان هدفه الأوحد هو جمع الأرباح (٢) · وقد كانت هذه ، مع ذلك ، خصائص الرأسمالية الأساسية ، التى تعتبرها بعض مدارس المؤرخين سرا غامضا ، لكن مع ذلك ، نجد درجات الرقى تختلف أساسا فى كل الفترات بعضها عن بعض وذلك يتناسب مع فطرة الانسان المكتسبة · ولا يمكن أن يكون جودريك فى هذا الأمر استثناء · وان الصدفة هى وحدها التى أظهرت لنا قصة هذا الاسكتلندى ، وربما تتاح لنا فرصة أخرى تكشف عن بنادقة أو جنويين قاموا بما قام بين وتبين لنا نفس التسهيلات التى انتشرت فى بيئته على نحو استثنائى صالحة لانتشارها · والأهمية الحقيقية فى موضوع جودريك تنحصر فى نفسيته ، التى كانت تحمل روح مغامرة تجار عصره (كما تقرر ذلك فى ترجمة حياته) · ولقد كان من طراز أولئك الأثرياء الجدد الذين أثرتهم التجارة ، أول الأمر على سواحل البحر وانتشروا بأعداد متزايدة داخل القارة · ولقد وجدنا عددا كبيرا منهم ماثلا فى كل من ايطاليا والفلاندرز قبل نهاية القرن

---

(١) انظر ما سبق ص ٤٧ وما بعدها ·

(٢) The Libellus, p. 47.

الثـــانى عشر (١) ، ولم يكن هنالك حينئذ اثبـات ملفت للنظر لأهميـة الرأسمالية التجارية فى ذلك التاريخ ، وكل ما نتذكر وجوده فقط قلة من الوكلاء الممثنين للتجار المعروفين لنا ٠

وكما سبق أن بينا ، فان هؤلاء الرأسماليين ، والجانب الأعظم منهم ، قد انبثقوا من حثالة المجتمع ، déracines من القاع ، وهم الذين بمجرد أن انتعشت التجارة سارعوا اليها دون أن يكون فى حوزتهم ممتلكات سوى نشاطهم وذكائهم ، وحبهم للمغامرة ، وكذلك روح الاقدام ٠ وبمساعدة الحظ ، كون الكثير منهم الثروات وجمعها كما فعل كثير من المستعمرين وقطاع الطريق نفس الشيء فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠ ولم يكن هنالك فى الأسواق المحلية أكثر من هؤلاء المغامرين البائعين بالتجزئة٠ ولقـد كان الهـدف الوحيـد لتنظيمات تجـار العصـور الأولى ، التى تجمعوا فيها ، هو الوفاء باحتياجات التجارة الطويلة المسـافة ٠ ومنذ البداية كانت أرباح هذه التجارة بالتأكيد ملحوظة تماما ٠ وقد كان بيع كمية من التوابل بمئات قليلة من الجنيهات أو بيع كمية قليلة من الملابس الجيدة كان مبلغا مربحا ، ولم تكن فى بيع هذه الأشياء أدنى منافسة أو سعر محدد فى السوق ، فى الوقت الذى كان الطلب على القديم كان أكثر من المعروض ٠ فى هذه الظروف ، فان تكلفة النقل والمكوس الكثيرة ، مهما كانت مرتفعة ، لم تمنع حقيقة الأرباح المعقولة ٠ ولكى تصير غنيا ، فكل ما يهم هو أن تكون شركة مع رفاق عازمين على أخذك معهم فى طريقهم الى البلاد التى تنتج سلع التصدير رخيصة ، ثم تأخذ هذه السلع لتبيعها فى أماكن البيع ٠ والمجاعات ، التى كانت مرضا متوطنا فى منطقة وأحيانا فى منطقة أخرى ، هى أيضا تتيح فرصة مؤكدة بكسب مبالغ كبيرة من بضائع قليلة (١) فالناس الذين يموتون من الجوع لا يساومون على جوال من القمح والتجار لا يضعون أثناءها خسارتهم فى الحسبان (٢) ٠ ومنذ بداية القرن الثانى عشر لا تترك المصادر شكا لنشاط هؤلاء البائعين بالتجزئة فى جمع الحبوب فى أوقات الشدة ٠

وللاستفادة من الفرص العديدة التى قدمتها التجارة فى تلك الفترة ، لم يكن المطلوب شيئا سوى الرغبة فى العمل ، مدعمة بالنشاط والذكاء ٠ وليس هنالك مبرر فى الاعتقاد بأن رواد تجار العصور الوسطى الكبار

(١) F. Gurschman, Hungersnote im Mittelater, p. 132 et eq. (Leipzig, 1900).

(٢) انظر الجملة عن البضائع والتى وردت فى النقطة السابقة ، صفحات ١٦٣ - ١٦٤ ، حاشية رقم ٢ ٠

بدءوا حياتهم معتمدين على أنفسهم · ويجب أن نكف عن التفكير من أنهم كانوا ملاك أراضى خاطروا بمدخراتهم فى التجارة ، أو باعوا أراضيهم من أجل أن يكونوا رأسمالهم الأولى · ولقد بنى معظمهم رأسماله الأول باشتغالهم كبحارة ، أو عاملين فى الميناء ، أو مساعدين فى القوافل التجارية · وربما اشتغل بعضهم بالاقتراض ، فاقترضوا قليلا من المال من بعض الأديرة أو اللوردات الذين فى جوارهم · والبعض الآخر ، ربما بدأ كأجراء مرتزقة ثم وضعوا فى التجارة ما تحصلوا عليه من السلب والنهب· وتقدم لنا قصص الثروات الكبرى فى أيامنا هذه أمثلة كثيرة عن الدور الذى لعبه الحظ فى بداية تكوينها ، مما يجعلنا أن نقول باطمئنان ان نفس الشيء قد حدث فى عصر كانت الحياة الاجتماعية فيه تدين بشيء كبير لتدخل الحظ فيها · وعلى سبيل المثال ، فان كونسيدر كان مثلا للشراء الذى تحقق بفعل حملات القرصنة التى قام بها أسلاف تجار بيزا وجنوة · وأخيرا ، فان التفوق يجب أن يحسب للدور الكبير الذى لعبه التضامن فى تكوين هذا الرأسمال التجارى المبكر · وفى هذه المؤسسات كان البيع والشراء يتم على المشاع وفى الموانى وكانت السفن قد رخصت لعدد من الشركاء · على أية حال ، رغم أننا ربما جهلنا الطريقة الدقيقة التى بدأ التجار المحترمون بها حياتهم الأولى وبداية تكوين ثرواتهم ، فاننا على الأقل نعرف بكل تأكيد أن نزوعهم للثروة كان سريعا للغاية · وان عددا كبيرا منهم ، قد أحرز أرباحا كافية ، فى القرن الحادى عشر ، جعلتهم قادرين على أن يقدموا مبالغ كبيرة للأمراء ، وأن يبنوا كنائس على حسابهم الخاص فى مدنهم وأن يتحرروا من مكوس اللوردات · وفى عدد من الكوميونات كانت هنالك اعتمادات مالية أسست وتكفلت بنمو الطبقة الوسطى · ولقد شكلت رابطتهم نوعا من الادارة البلدية الرسمية · وفى سان أومير Saint Omer، جعلت الرابطة التجارية نفسها مسئولة ، بموافقة القشتاليين (١٠٧٢ ـ ١٠٨٣) ، عن بعض تكلفة رصف الشوارع وتشييد الحصون (١) · وفى بلاد أخرى ، مثل ليل ، وأودينيرو Audenarde وتورناى ، وبروجز ، ساهموا فى التنظيم البلدى المالى (٢)· فضلا عن ذلك ، فان الأرباح التى حققها التجار قد استغلت بالقطع كلها فى تجارة البضائع والسلع · وجنبا الى جنب مع هذه التجارة الأخيرة تاجر الكثير من التجار فى المال · وليس من الضرورى أن نعيد ما قد قيل فى مكان آخر عن العمليات المالية ، التى تعامل خلالها الأغنياء منهم من القرن الثانى عشر فصاعدا ، فى كل من ايطاليا والأراضى المنخفضة ، والتى

---

(١) G. Espinas and H. Pirenne, Les coutumes de la gilde marchande de Saint-Omer, in Le Moyen Age, 1901.

(٢) H. Pirenne, Les periores de l'histoire sociale du capitalisme. p. 282 et seq.

أظهرتهم بمظهر مجموعة معتبرة عالية القدر للملوك وللأمراء ، الاقطاعيين • اضافة الى ذلك ، واصل كل التجار استغلال فائض أموالهم فى الأرض ، وهى أسهل وأسلم كل الاستثمارات • وفى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر تملكوا معظم الأراضى فى المدن (١) • وان التزايد المطرد للسكان ، وبتحويلهم أراضيهم الى أرض بناء ، ضاعفت من ايجارها ، حتى انه بداية من النصـف الثانى للقرن الثالث عشر أبطل معظمهم العمـل بالتجارة وصاروا مؤجرين : (rentiers, otiosi, huiseux, lediggangers) وهـكذا ، بتزايد رأسمال الأرض المملوكة تكونت وتاسست ثروات رجال الطبقـة الوسـطى (٢) •

وكما يحدث دائما ، فسرعان ما تجمع الأغنياء الجدد فى مجموعات مترابطة • ولقد منع النظام الأساسى للهانز الفلمنكيين فى لندن (قبل سنة ١١٨٧) دخول تجار التجزئة فى جمعيتهم ، كذلك أولئك « أصحاب الأظافر الزرقاء » (٣) ، والمقصـود بهم العاملون فى صـناعة الملابس • ودخول التجارة فى نطاق واسع اعتمد الآن على المجاميع التى احتكرتها • وفى المدن تركزت فى أيدى النبلاء المتعجرفين ، الذين عملوا على طـرد « العامة » وحصرهم فى الأعمال اليدوية أو تجارة التجزئة • وفى كل تلك المناطق التى أخذت مكان القيادة فى اقتصـاد عصر النهضة كان هنـالك تناقض شاسع مذهل بين التجارة الصغيرة والتجارة الكبيرة • وكانت صفة الرأسمالية للتجار الكبار صفة محققة لا تقبل الجدل (٤) • وماذا نسمى أولئـك الذين قاموا بتصـدير الصوف الخام الى المدن الفلمنكية والباربانتية ، وتجار الملابس الذين بـاعوا دفعة واحدة مئات القطـع ، البنادقة ، والجنويين ملاك السفن وملاك السفن البيزيين الذين تاجروا فى موانى الشرق ، بيوت المال اللمباردية أو الفلورنسية الذين امتدت فروعهم داخل كل أوربا وقاموا بالاتجار أو الصيرفة فى نفس الوقت ، ماذا نسمى

(١) انظر ما سبق ، ص ٨٦ ، و H. Pirenne : Les villes du Moyen Age, p. 163 et seq.

(٢) G. Des Marez La propriété dans le villes de Moyen Age, p. II et seq. G. Espinas, La vie urbine de Douai, t. III, p. 578, and IV, 4

كذلك قوائم البيت المستأجرة فى المدن لاثنين من البزازين وهما : Jehans de France and Jakemes li Blons.

(٣) H. Pirenne, Le hanse Flamande de Londres, p. 81.

(٤) فى الوثائق الايطالية التى ترجع الى القرن الثالث عشر كانت كلمة رأسمالية capitale تستخدم باطراد للدلالة على الأموال المستخدمة فى الأعمال التجارية •

كل أولئك غير رأسماليين ؟ (١) حقيقة أن الفرق بين تاجر الجملة وتاجر التجزئة لم يكن تاما • وكثير من التجار اشتغل فى الاثنين • فى ألمانيا ، خاصة ، فان جماعة الجوراندشنيدر Gewandschneider ، الذين استوردوا ملابس من الفلاندرز باعوها بالتجزئة فى دكاكينهم (٢) ، وفعل فى فلورنسا نفس الشيء وكلاء كثيرون لجماعة الكاليمالا Arte di calimala (٣) ودون شك أيضا فان التخصص التجارى لم يكن قد اتضح بعد ، فالتجار يستوردون ، حسب الظروف » السلع التى تعرض عليهم ، بعد أن يتأكد الواحد منهم أنها سوف تحقق الربح المناسب • لكن كل ذلك لا يبين سوى أن الرأسمالية التجارية قد وامت نفسها مع الظروف المفروضة عليها من السوق ومن ظروف العصر الاجتماعية •

---

(١) ولكى نلقى نظرة خاطفة على ثروة زكريا الجنوى فى القرن الثالث عشر ، انظر : Bratiann, op. cit., p. 133 ey seq., Roberto Lopez, Genova marinara nel duecento Benadetto zaccaria, ammiraglio e mercante, Messina Milan, 1933.

(٢) انظر ما سبق ص ١٢٤ ـ ١٢٥ •

(٣) A Sapori, Una compagnia di Calimala.

الفصل السادس

الاقتصاد الحضري وتنظيم الصناعة

١ ـ المـدن كمراكز اقتصادية

تموين وتزويد المدن (١)

منـذ بداية وأثنـاء القرن الخامس عشر ، كانت المدن هى المراكز الوحيدة للتجارة والصناعة ، الى حد أنه لم يسمح لواحدة منها بالهروب والتسرب الى الريف الشاسع • ولقد كان بين المدن والريف فاصل حاد فى العمل ، فالأخير يحترف الزراعة فقط ، والأولى تحترف التجارة والأعمال اليدوية• ولذلك كانت المدن مهمة فى نسبة نصف قطر نفوذها الاقتصادى• وهنالك استثناءات قليلة لهذه الحالة ، فى مدن روما وباريس ولنـدن ، حيث يقيم فى الأولى راعى الكنيسـة ، وبسـبب كون المدينتين الأخريين عواصم لممالك عظيمة ، فقد أبدوا نفوذا فاق كل نفوذ تمتعوا به خلافا لذلك • وفى العصور الوسطى لم تكن المدن قد حصرت بعد بقدر كاف ، ذلك فان الحكومات والادارات لم تكن حددت بما فيه الكفاية مما يسمح بتكوين التراكم المدنى كما هو الحال فى عواصمنا الحالية ، أو فى مدن العالم القديم • وهنالك قلة من المدن الأسقفية ، أحرزت مكاسب متزايدة لكونها مراكز أسقفية • وهذه أصلا مجتمعات اكليريكية استطاعت أن تكفى نفسها بنفسها ، فى انجاز تقدم كبير لحياة بلدية • ومهمة الأماكن التى بها تجمع سكانى الوحيدة هى تزويد احتياجات الكاتدرائية أو الدير فهى مجرد مدن ريفية من الدرجة الثانية • ويكف أن نذكر فى هذا الصدد

Bibliography G. Espinas, La vie urbaine, Paris (1913), 4 vols.
W. S. Unger, De levensmiddelen Voorziening der Hollandsche steden in de middeleeuwen (Amsterdam, 1906). J. G. Van Dillen, Het economisch karakter der middeleeuwsche stad (Amsterdam, 1914) P. Sander, Die reichsstactische Haushaltung Nurnbergs, 1931-40. (Leipzig, 1902, 2 vols). K. Bücher, Die Bevölkerung von Frankfurt am Main in XIV und XV Jahrundert (Tübingen, 1886). J. Jastraw, Die Volkszahl Deutscher Städte zu Ende des Mittelaters (Berlin, 1886). H. Pirenne Les dénombrements de la population d'Ypres au XVe siècle, in Vierteljahrschrift für Social — und Wirtschaftsgeschichte, t. I. (1903). J. Cuvelier, Les dénombrements de foyers en Brabant, XIV-XVI siècles (Brussels, 1912. G. Pardi, Disegno della storia demografica di Firenze in Archivio Storico italiano (1915). Add the bibliography of Kulischer. op. cit , t. I, pp. 164-5,

مثال مدن فولدا Fulda وكوربى Corbie فى ألمانيا ، ومدن ستافيلوت Stavelot وتيروان Térouanne فى الأراضى المنخفضة ، ومدينة ايلى Ely فى انجلترا ، ومدينة لوكسييل Luxeuil وفيزيلاى Vézelai ومدن صغيرة كثيرة فى جنوب فرنسا. والحقيقة المعروفة المعتادة هى أن رجال الاكليروس كانوا عناصر أجنبية فى مدن العصور الوسطى. ولقد استثنتهم امتيازاتهم من مشاركة أهل المدينة . وكان دورهم ما بين التجار من السكان والصناع مجرد دور المستهلك والمستفيد . أما عن طبقة النبلاء ، فقد عاش بعض أفرادها فى المدن فقط فى منطقة البحر المتوسط ، فى ايطاليا ، وجنوب فرنسا وأسبانيا . هذه الحقيقة ترجع ، دون شك ، الى احتفاظ هذه البلاد بالتقاليد الموروثة ، لدرجة معينة ، وللطـــابع البلدى الذى طبعتهم به الامبراطورية الرومانية بشكل كبير. ولم تجعلهم نبالتهم يبتعدون بالمرة عن مواقع المدن القديمة ، حتى فى فترة انحدارهم الكبرى ، وواصلوا العيش هناك عندما بدأت حياة المدن فى الانتعاش . وأعلى أسطح منازلهم العالية ابتنوا أبراجا لا زالت باقية صورتها فى مدن تسكانيا القديمة . وبالطبع ، فانهم غالبا ما كانوا يتدخلون فى العمليات التجارية ويستثمرون جزءا من دخلهم فيها ، وفى البندقية وجنوة لعبوا دورا ملحوظا فى التجارة البحرية ، وليس من الضرورى فى هذا المقام أن نذكر الدور البارز الذى لعبوه فى صراع المدن الايطالية السياسى والاجتماعى . وعلى الجانب الآخر ، فقد ترك النبلاء فى شمال أوربا العيش فى المدن وعاشوا فى قلاعهم فى الريف . وفى ظروف استثنائية كانت عائلات الفرسان تتواجد هنا أو هناك فى المدن ، معزولين ، وكما لو كانوا ، تائهين وسط المجتمع البرجوازى . وليس قبل نهاية العصور الوسطى ، تبدأ الأرستقراطية ، فى الوقت الذى ساد فيه السلام وطلبا للراحة ، فى بناء مساكن فخمة لها .

وهكذا كانت مدن العصور الوسطى أساسا موطنا للبرجوازيين ، فقد قامت فقط من أجلهم وبسببهم . ولقد كانت لمصلحتهم الخاصـــة ، ومصلحتهم الخاصـــة فقط ، لأنهم هم الذين صـنعوا مجتمعاتها ونظموا اقتصـــادها . وقد كان ذلك الاقتصـــاد ، بالطبع ، متقدما بدرجة كبيرة أو قليلة وفقا لعدد السكان المتواجد بها زاد أم قل ، أو كانوا نشيطين فى تجارتهم وصناعتهم أو لم يكونوا . وكان من الخطأ الذى كان يتكرر دائما هو وصف هذه المدن بأنها جميعها كانت على شاكلة واحدة ، ووسمها بشكل واحد منفرد ، كما كانت مدن فرانكفورت على المين والبندقية وفلورنسا وبروجز . ولقد اعتمدت التصميمات التى جاءت فى كتابات « اقتصاديات البلدان » Stadtwirtschaft والتى أفاضـــت فيها المدرسة الألمانية بذكاء ومعرفة ، بدون شك ، اعتمدت على بعض ملامح الحقيقة ، ولكنها

أهملت الكثير منها ، مما جعل من المستحيل أن نعترف بالنتائج التى توصلوا اليها دون اجراء تصحيح ملحوظ ٠ ولقد صب مؤلفوها أفكارهم كلية على ألمانيا وعمموا بتعسف على كل أوربا نتائج لا تنطبق فقط الا على بعض البلاد شرق الراين ٠ ولكى نكون رأيا سديدا عن الاقتصاد المدنى ، يجب ، على العكس من ذلك ، أن نفحص ما جاور هذه المدن حين بلغت أعلى تقدم لها ٠

وكانت الحاجة الماسة لهذا الاقتصاد بوضوح هى تأمين الطعام للسكان ولسوء الحظ فانه من المستحيل تقدير حجم هذا التأمين بأية درجة بدقة واتقان ٠ ونحن ليست لدينا أية تقارير عنها حتى القرن الخامس عشر ، وحتى تلك التى لدينا جاءت لنا من تلك الفترة كانت غير وافية للغرض وبعيدة عن الصحة ٠ ومع ذلك ، فان الأبحاث الجادة والكاملة التى اعتمدت عليها أكدت لنا الإستنتاج بأن مدن العصور الوسطى كانت قليلة السكان ٠ وربما بدا ذلك أمرا غريبا ، لكن ثبت أن مدينة نورمنبرج سنة ١٤٥٠ كان عدد سكانها ٨ر٧١٩ ساكنا ، وبازيل حوالى ١٤٥٠ ، وراوند حوالى ٨٠٠٠ ، وفريبورج فى سويسرا سنة ١٤٤٤ فقط ٢٠٠ر٥ ، وستراسبورج ، حوالى سنة ١٤٧٥ : ١٩٨ر٢٦ فقط ، ولوفان وبروكسل فى منتصف القرن الخامس عشر كان حوالى ما بين ٠٠٠ر٢٥ و ٠٠٠ر٤٠ على أكثر تقدير ٠

وقد جاءت هذه الأرقام مغايرة لكل الأرقام الوهمية المذكورة فى السابق ، وهى التى احتمال القطع بها لا زال قائما ٠ ولذلك ، فاننا ما لم نفترض أن أوربا منذ القرن الثانى عشر وحتى القرن الخامس عشر كانت قادرة على أن تغذى سكانها الكبيرى العدد مثل العدد الذى فى القرن العشرين ، فيكون من المسلم به فى الحال استحالة استخراج توازن بين سكان المدينة حينئذ وسكانها فى الوقت الحاضر ٠ وهذه البيانات ، أيضا، غالبا ماتنتشر معتمدة على قوة التراث الموروث المكون من معلومات خالية من الدقة العددية ، لكنها بسبب احترام كل ما هو موروث من معلومات لاتحتمل النقد ٠ وفى فترة أحد عشر عاما (١٢٤٧ ــ ١٢٥٨) هنالك وثيقتان تتعلقان بسكان يبريس pres ؛ احداهما تذكر أن عدد سكانها ٠٠٠ر٢٠٠ والأخرى ٠٠٠ر٤٠ ، لكن من المشكوك فيه أن عدد سكانها آنذاك قد وصل الى نصف الرقم الثانى (أى ٠٠٠ر٢٠) ٠ وهنالك احصاء سكانى حقيقى لا شك فيه يفيدنا بأن عدد سكان هذه المدينة آنذاك ، أى فى سنة ١٤١٢ كان ٧٣٦ر١٠ نفسا لا غير ٠ وأنه أخذ فى النقصان فى تلك الفترة حتى اننا نستطيع أن نؤيد افتراضنا أنها فى قمة انتعاشها الصناعى فى نهاية القرن الثالث عشر ، ربما وصل عدد سكانها الى ٠٠٠ر٢٠ نسمة ٠ أما غينت Ghent ، حيث كان يعمل بها ٤٠٠٠ نساج سنة ١٣٤٦ ربما كان

عدد سكانها ، على وجه التقريب ، ٥٠٫٠٠٠ نسمة ، اذا ما افترضنا أن عمال النسيج وعائلاتهم كانوا يشكلون ربع سكان المدينة (١) • ولم تكن بروجز بأقل أهمية عن تلك المدن • وفي ايطاليا ، كانت البندقية ، دون منازع ، أكبر مدن الغرب ، ولم يقل عدد سكانها عن ١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ومن المحتمل أنها لم تكن أكبر بكثير من مدن فلورنسا، وميلان، وجنوة(٢) • وكل ما نضعه في اعتبارنا ، هو أنه من المحتمل أنه عند بداية القرن الرابع عشر أن كان أكبر تكدس سكاني في المدن يتراوح ما بين ٥٠٫٠٠٠ و ١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، وأن المدينة التي عدد سكانها ٢٠٫٠٠٠ تدخل في نطاق المدن الكثيفة السكان ، وأن المدينة القليلة السكان يتراوح عدد سكانها ما بين ٥٠٠٠ و ١٠٫٠٠٠ نسمة •

واذا كنا قد أخذنا مطلع القرن الرابع عشر نقطة بداية لرحلتنا في هذه التقديرات السكانية ، فان ذلك لأن بداية هذا القرن تعتبر محطة توقف في ديموغرافية السكان • وحتى ذلك التاريخ ، بدأ التزايد السكاني في المدن في الاضطراد • ولقد نمت ، دون شك ، بسرعة المراكز الأولى للحياة المدنية ، كما يظهر ذلك بوضوح من التوسع المضطرد للحدود البلدية • فمثلا نرى غينت ، توسعت وامتدت في سنوات ١١٦٣ و١٢١٣ و١٢٥٤ ، و١٢٦٩ ، و١٢٩٩ ، وضمت اليها كل ما حولها من ضواح ، واستمر هذا التوسع مع الوقت ، حتى ان الأسوار التي بنيت مؤخرا صارت تعد سطحا فسيحا بما فيه الكفاية يكفي لمدة طويلة لتأسيس أحياء جديدة ، لكن هذه الأحياء لم تقم بعد • حيث ان الوضع الديمغرافي قد استقر آنذاك • وعلينا أن ننتظر حتى القرن السادس عشر قبل أن يواصل هذا التوسع مسيرته •

ومن أجل حصول المدن على مؤنتها من الطعام ، كان عليها أن تلجأ الى كل من الريف المجاور لها وللتجارة الواسعة النطاق • ولقد كانوا هم

---

(١) G. Espinas and H. Pirenne, Recueil de documents relatifs à l'histoire de l'industrie en Flandre, t. II, p. 637.

(٢) وفقا لما ذكره دافيدسون : Davidsohn, Forschungen sur Geschichte von Florens, t. II, 2nd part, p. 171.

فان عدد سكان فلورنسا كان حوالي ٤٥٫٠٠٠ نسمة في سنة ١٢٨٠ ، وحوالي ٩٠٫٠٠٠ سنة ١٣٣٩ • ووفقا لما أورده لوت F. Lot, L'état des paroisses et des feux, loc. cit., p. 300.

في بداية القرن الرابع عشر ، فانه لم تصل مدينة في فرنسا لعدد أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ • أما عن باريس ، ربما كان بها ٢٠٠٫٠٠٠ نفس اذا ما اعتبرنا أنه كان بها ٦١٫٠٠٠ عائلة رقما صحيحا •

أنفسهم غير قادرين على أن يساهموا بأكثر من قدر قليل حيال مؤنتهم . ولم يتميز عن ذلك سوى بعض المحليات القليلة التى تمتعت بامتيازات بلدية فى النصف الثانى للعصور الوسطى ، والتى احتفظت على الدوام باستقلال شبه ذاتى ، وهى التى كانت قادرة على أن تعيش دون مساعدة خارجية . ولكن من الخطأ الزائد مقارنة هذه المحليات بمناطق التكدس التجارية التى كانت مهد الطبقة الوسطى . ومنذ البداية ، اضطرت هذه المدن لاستيراد طعامها . وكانت تلك حقيقة واضحة تماما وغير منكرة ويؤيدها وجود زرائب الأبقار وزرائب الخنازير التى انتشرت فى المدن فى فترة قمة ارتقائها ، وحيث وجدت فى كل المدن حتى القرن الثامن عشر وهى لم تختف كلية حتى اليوم . وقد كان هدفهم الوحيد هو تزويد أصحابها بالطعام ، وبالقطع تزويد العامة به .

ولقد كان مزارعو الضواحى المحيطة هم أول وأسبق المصدرين للبرجوازيين . وبمجرد أن عثر أول مجتمع مدنى عن منفذ لمنتجاته ، التى كانت آنذاك لا تملك سوى أسواق المدن المحلية الصغيرة ، أصبح كساد هذا الاقليم الاقتصادى شيئا من الماضى . ولقد قامت علاقة بين المدن الزراعية والمدن الناشئة ، أرضت على الفور حاجات الأخيرة واهتمامات الأولى . ولقد زود كل ريف المدينة المركزية فيه ، وما أن ظهر نمو هذه المدن وظهرت حاجاتها الكبيرة ، حتى أخذ الريف مقاييس ليكفيها حاجتها ، ولمواجهة أية زيادة ثابتة فى الاستهلاك بزيادة فى فائض انتاجها .

ومن البداية وجدت حكومة المدينة نفسها مجبرة على تنظيم وارداتها من المؤن الغذائية . ولم يكن عليها مجرد جلبها فحسب ، ولكن أيضا كان عليها حراستها ضد أخطار الاحتكار ومن زيادة الأسعار الجائرة. ولكى يؤمنوا لسكان المدن حاجاتهم الضرورية بأرخص ما يستطيعون استخدموا فى ذلك أمرين ، الأمر الأول هو اشاعة الصفقات والثانى منع الوسطاء ، الذين من خلالهم تمر السلع ما بين المنتج والمستهلك . وكان غرضهم من ذلك أن يواجه بائع الريف ومشترى المدينة بعضهم وجها لوجه ، تحت رقابة عامة . وان المراسيم والتشريعات ، التى ، لسوء الحظ، وصل الى أيدينا القليل منها ، والتى صدرت من القرن الثانى عشر فصاعدا والقرن الثالث عشر ، مليئة بتنظيمات دقيقة تعطينا صورة واضحة للنهج الذى اتبع لتحقيق هذه الغاية . ولقد كان احتكار السلع الغذائية وشراؤها من الفلاحين خارج الأسواق قبل أن يصلوا بها الى المدينة كان ممنوعا ، فكل السلع تؤخذ مباشرة الى السوق وتعرض هنالك لوقت محدد ، خلاله فقط يتم البيع للبرجوازيين . وكان ممنوعا على الجزارين أن يحتفظوا باللحوم فى مخازنهم ، كذلك ممنوعا على الخبازين أن يحصلوا

على قمح يزيد عن حاجة أفرانهم ، ولا يسمح للمواطن بشراء أكثر مما يحتاج اليه هو وأسرته • ولقد اتخذت تلك المحاذير الدقيقة والصارمة لمنع أى زيادة غير طبيعية فى سعر الطعام • وغالبا ما كان السعر الأعلى محددا ، كذلك فان وزن الرغيف كان متناسبا مع قيمة الغلة ، وكان يتولى النظام فى السوق موظفون عموميون كانت أعدادهم تتزايد باستمرار • ولقد كانت المدن محمية من الغش ، كذلك كانت محمية من الافراط فى المضاربة والاحتكار • ولقد كانت كل السلع فى الأسواق تحت المراقبة التامة ، وتلك التى لم تكن تعاب فى نوعيتها ، أو كانت ، حسبما ورد عنها من الوثائق ، خالصة ، كانت تصادر أو تتلف ، اضافة الى الجزاءات التى كانت توقع على أصحابها وتوجب عليهم العقوبة • وكان يحكم كل هذه الاشتراطات (التى ربما تكون قد تزايد عددها) ، روح المراقبة ومبدأ التعامل المباشر لصالح المستهلك (١) • وقد اتضح هذا المبدأ مرارا وتأكد تحت صيغ كثيرة حتى ان بعض الكتاب قد علقوا عليه (مع بعض المبالغة) على أنه الطابع الأساسى للاقتصاد المدنى ، على أية حال فانه من المؤكد تطبيق هذا التعامل بتوسع من أجل تحقيق (الصالح العام) للمواطنين ، حيث كان المثال المرغوب ولصالح معظم المقاييس الجائرة التى كانت مستخدمة • ولقد كانت حرية الفرد قد اقتضبت بهدوء ، وخضع بيع السلع الغذائية لتنظيم جائر وفضولى فى معظمه ، مثل ذلك التنظيم المطبق فى النطاق الصناعى الصغير ، كما سوف نرى فيما بعد •

ولا يجب الاعتقاد فى أن الريف المجاور للمدينة هو فقط المسئول عن تمويل المدن • فالتجارة أيضا لعبت دورها فى ذلك الخصوص • وبهاتين الوسيلتين زودت المدن الكبرى بحاجتها الاستهلاكية من الطعام (والمدينة التى كان عدد سكانها ٢٠٫٠٠٠ كانت تعتبر آنذاك مدينة كبرى) • ولقد كان ذلك ماثلا فى ذهن جى دى دامبيير Gui de Dampierre حين لاحظ ، فى سنة ١٢٩٧ ، أن « الفلاندرز لا تستطيع أن تكفى نفسها دون امدادات من الخارج » (٢) • أما عن باقى المدن ، فان هنالك بضائع كثيرة كبيرة الفائدة كان من الضرورى استيرادها من الخارج ، مثل التوابل ، والسمك المملح من أقطار داخل

---

(١) من الطبيعى أن يكون تجار التجزئة قد تواجدوا بأعداد قلت أم كثرت ، كلاهما تاجر فى الطعام والادوات والسلع الاستهلاكية التى أحضرها التجار • ولقد كان التعامل المباشر أساسا وضعا يسمح باستثناءات عديدة ، انظر على سبيل المثال أبحاث :

B. Mendel Breslau zu Beginn des XV Jahrnnrert⁻, in Zeilschrift des Vereins für die Geschichte Schlesiens (1929).

(٢) H. Pierenne, Histoire de Belgique, t. I, 5th ed., p. 263.

القارة ، أو النبيذ من الشمال • هنا ، لا يمكن التعامل دون تدخل التجار ، الذين يشترون هذه السلع اما من الأسواق الخارجية أو مناطق الانتاج • وفي أوقات الشدة والمجاعات ، يدين أهالى المدن للتجار بالبضاعة المستوردة اليهم حين تحرم هذه المدن من موارد جيرانها ، وتنجح هذه البضائع في اطعام سكانها • ولا يمكن أن تخضع تجارة الاستيراد هذه للتنظيم المجمل سابقا الذى لا يتضمن كل الاقتصاد المدنى • فهو معمول فقط للسوق البلدى ، الذى يستطيع أن يسود لأنه يؤدى وظيفته خلال فلك أسوار المدينة ، لكنه لا يؤديها مع التجارة الواسعة • ولقد نجح هذا التنظيم تماما فى منع الخباز من أن يكدس سرا فى شونة غلاله عددا قليلا من أجولة القمح ، ليبيعها عند أول ارتفاع للسعر ، وارجاع المخبأ منها ، أو احباط حيل الوسطاء وتواطؤهم السرى مع قلة من المزارعين ، ولكن هذا التنظيم لم تكن له قوته قبل أن يقوم تاجر الجملة ، بتفريغ بضاعة سفنه على أرصفة الموانى والمحملة بنبات الجودار ، والجبن ، أو براميل النبيذ • وما هو النفوذ الذى يستطيع أن يفرضه فى هذه الحالة على الأسعار ، وكيف يشرع فى اخضاع مبيعات الجملة لنظام عمل من أجل البيع بالقطاعى ؟ وهنا يبدو بوضوح أنه يواجه وجها لوجه مظهرا اقتصاديا لم يكن موافقا له • وبمجرد أن ظهر رأس المال فى الصورة قام باحباط التنظيم البلدى ، عديم الجدوى له • وكل ما كانت تستطيع حكومة المدينة أن تفعله هو أن ترى أن للبرجوازيين نصيبا فى أرباح المستوردين وهى تدفع ثمنا للخدمات التى يقدمونها لهم • وبالطبع ، فان التاجر ، كأجنبى ، من الخارج كان من الضرورى له أن يلجأ الى السكان المحليين • ومن خلال وكالتهم يشترى أو يبيع للناس الذين لا معرفة له بهم •

فى البداية ، دون شك ، فهو يتخذ صاحب المسكن الذى ينزل فيه مرشدا ومساعدا • وبالطبع فان مجتمع السماسرة متعود على التدخل • وبسبب الظروف صار ذلك لهم حقا شرعيا ، ووجد التاجر نفسه مجبرا على أن يجرى كل تعاقداته مع البرجوازيين من خلال وساطة سمسار حكومى • وقد بدت البندقية رائدة فى ذلك ، شأنها فى ذلك شأن باقى الأمور ، ومن القرن الثانى عشر فصاعدا وجد سماسرة حقيقيون هنالك ، تحت اسم Sensales المقتبسة من البيزنطيين • وفى القرن الثالث عشر ظهر هؤلاء الوسطاء السماسرة فى كل مكان ، فظهروا تحت اسم Unterkaufer فى ألمانيا ، واسم makelaeren فى الفلاندرز ، و brokers فى انجلترا • ومن حين لحين كانوا أيضا يحتفظون

(١) L. Goldschmidt, Universalgeschichte des Handelsrechts, p. 230 et seq.

بتسميتهم الأولى كمؤجرين (Gasten) • ولقد تمتعوا فى كل مدينة ببعض الحقوق المكتسبة أتاحت لكثير منهم جمع ثروات طائلة واحراز مراتب عالية والوصول الى قمة طبقة البرجوازيين •

ومع ذلك لم يزل هنالك حذر يتخذ ضد غزو الرأسماليين الأجانب بابعادهم عن تجارة التجزئة • ولقد ظلت هذه التجارة احتكـــارا على البرجوازيين ، فأبقوها لأنفسهم ودافعوا عنها أمام كل المنافسات • ولذلك فان التشريع البلدى للتجارة الواسعة ألزم أولئك الوسطاء بالتجارة ومنعهم عن تجارة التجزئة • وتفسر لنا مصلحة البرجوازيين هذا التناقض الواضح• ورغم ما نتج عن ذلك من زيادة فى أسعار السلع المستوردة ، الا أنه فى النهاية شجع التجارة الداخلية • ومن الضرورى أن نضيف بأن توسط السماسرة ومنع البيع بالتجزئة قد طبق فقط على « الأجانب » • لكن تجار المدينة الكبار أنفسهم استثنوا من ذلك •

٢ ـ الصـــناعة المدنية (١) :

تظهــر الخصائص التى لاحظناها ، على التو ، فى حقــل امداد المدن بالطعام ثانية ، لكن بشــكل متغير تمــاما وواضح للغـــاية فى التنظيم الصناعى • وهنا يختلف الأسلوب أيضا وفقا لأمر البيع ، البيع بالجملة

---

(١) Bibliography. L. M. Hartmann, zur Geschichte der Zünfte im frühen Mittelater, in Zeischrift für social und Wirtschaftschichte, t. III (1896). R. Eberstadt, Der Ursprung des Zunftwesens (Leipzig, 2d ed., 1915). — G. von Below, Handwerk und Hofrecht, in Vierteljahrschrift für Social und wirtschaftschichte, t. XII (1914). F. Keutgen, Aemter und Zunfte (Jena, 1903). G. Selliger, Handwerk und Hofrecht, in Historische Vierteljahrschrift, t. XVI (1913). For the German bibliography, cf. Kulischer, op. cit., t. I, p. 165. G. Des Marez, La première étape de la formation corporative. L'entr'aide, in Bull. de la Classe des Lettres de l'acd. royale de Belgeique (1021). E. Martin Saint Léon, Histoire de corporations de métiers (Paris, 3rd ed., 1922). G. Fagniez., Etudes sur l'industrie et la classe industrielle à Pari , au XIIIe et au XIVe siècles (Paris, 1877), P. Boissonnade étude sur l'organisation du travail en Poitou (Paris, 1899), G. Des Marez, L'érganisation du travail à Bruxelles, au XVe siécle (Brusseles, 1904) (Mém. Acad. de Belgique). E. Lipson, op. cit., p. VIII. A. Doren Das Florentiner Zunftwesen vom XIV bis zum XVI Jahrhundert (Stuttgart-Berlin, 1908). Id., Die Florentiner Wollentuchindustrie (stuttgart, 1901). E. Rodocanchi, les corpcration ouvrières à Rome (Paris, 1894), 2 vols. H. Pirenne. Les anc. démocr, des Pays Bas, p. 33, n. I. G. Espinas and H. Pirenne, Recuel de documents relatifs à l'histoire de l'industrie draigines du Flandre (Brussels, 1906-24), 4 vol. G. Espinas, Les origines du capitalisme, t. I. Sir Jean Boinebroke (Lille, 1930). Id., L'industrie

أو البيع بالقطاعي • ولقد كان العمال الذين يمولون السوق الداخلي يعاملون معاملة تختلف تماما عن تلك التي يتعامل بها العمال الذين يعملون للتصدير • ولنبدأ قولنا بالعمال الأول •

من المعروف أن لكل مدينة كبرت أم صغرت عددا ونوعية من الحرفيين متناسبة مع حجمها ، حيث لا يستطيع سكان المدن العمل دون تواجد أدوات الصناعة • ورغم أن الحرفيين الأثرياء يتواجدون فقط في الأماكن الكبيرة المكدسة بالسكان ، فان الحرفيين ضرورة لازمة للحياة اليومية ، فمنهم الخبازون والجزارون والحائكون والنحاسون والنجارون والخزافون، وغيرهم ، وهم يتواجدون في كل مكان • وكما أن الولايات الكبرى ، في فترة العصور الوسطى الزراعية ، قد اضطرت لانتاج كل أنواع الغلال ، حتى توفر كل مدينة لسكانها وللأقاليم المجاورة لها حاجتها الضرورية منها • ورتبت بيع انتاجها للمناطق التي جردت من طعامها • ولقد أخذ المزارعون الذين زودوا هذه المدن باحتياجاتها من الطعام في المقابل منها منتجات صناعية ، وبذلك استدرج زبائن ورش المدن الصغيرة من كل من عامة البرجوازية ومن سكان الريف المجاور •

ولقد كان التشريع الصناعي بالضرورة أكثر تعقيدا من التشريع الخاص بالطعام • فلقد اعتبر الأخير البرجوازي مجرد مستهلك ، بينما اعتبره الأول في نفس الوقت منتجا • ولذلك كان من الضروري وضع نظام يحمي كل من الحرفي الذي يصنع ويبيع والمستهلك الذي يشتري • ولقد وضع تنظيم لضمان ذلك ، وبرغم الاختلافات العديدة في التفاصيل ، الا أنه وضع في كل الأماكن على نفس المبدأ : مبدأ النقابات الحرفية • وبرغم اختلاف المسميات ، فلقد سمي في اللاتينية ministerium و officium ، وفي الفرنسية : métier أو jurande ، وفي الايطالية : arte • وفي لغة الأراضي المنخفضة neering أو ambacht ، وفي الألمانية : Handwerk أو Amt, Innung, Zunft ، وفي الانجليزية : craft-gild أو mistery ، فان التنظيم في كل مكان هو نفس التنظيم ،

=

drapière dans la Flandre Française au Moyen Age (Paris, 1926), E. Coornaert, Un centre industriel d'autrefois. La draperie — sayetterie d'Hondsohoote, XIV-XVIIIe soècles (Paris, 1930). Id., L'industrie de la laine à Bergue — Saint — Winoc (Paris, 1930. N. W. Posthumus, De geschiedenis van de Leidsche lakenindustrie, t. I. (The Hague, 1908). Brogliod, Ajano, Die Venetianer Seidenindustrie und ihre Organisation bis zum Ausgang des Mittelalters (Stuttgart, 1893). E. Wege, Die Zünfteals Trager wirtschatlicher Kolle-ktivmaasnahmen (Stuttgart, 1932). — F. Rörig, Mittelalterliche Weltwirt schaft (Jena, 1933).

لأنه وضع فى كل مكان لسد نفس الاحتياجات الأساسية • وفى هذا التنظيم وجد اقتصاد المدينة شكله المميز والعام •

ولقد كان أصل الطوائف الحرفية ومازال محل جدل كبير • ولقد اعتقد فى بادىء الأمر ، بموافقة اتجاه العلماء فى بداية القرن التاسع عشر أنه فى collegia و artes ، حيث تجمع فيهما حرفيو المدن داخل الامبراطورية الرومانية • وكان من المفترض أنهم خلفوا الغزو الجرمانى وأن حركة نهضة القرن الثانى عشر الاقتصادية قد أحيتهم ثانية • ولكن ليس هنالك ما يثبت قيام هذه الحياة شمال الألب ، وأن ما نعرفه عن التلاشى الكامل للحياة البلدية من القرن التاسع كان كله ضد ذلك • ولم يحتفظ ببقايا آثار لهذه التجمعات القديمة collegia الا فى تلك الأنحاء من ايطاليا التى كانت تحت الادارة البيزنطية فى العصور الوسطى • لكن مظهرها الطبيعى كان مظهرا محليا للغاية وقليلا للغاية فى الأهمية حتى يكون أصلا لتنظيم كان عاما فى ذلك الوقت مثل تنظيم هذه النقابات المهنية •

وان محاولة ايجاد أصل فى الوحدة الادارية فى التنظيم القديم للأرياف الانجليزية أصبحت محاولة غير ناجحة • حقيقة أننا وجدنا فى قلب الولايات الكبرى ، أثناء وبعد الفترة الكارولنجية ، حرفيين من مختلف الأنواع جندوا من بين أقنان اللورد ويعملون فى خدمته وتحت اشراف ملاحظين (١) • ولكن لسوء الحظ ، لم يستطع أحد أن يثبت أن فى تلك الفترة فى تكوين المدن أن هؤلاء المواطنين المدنيين الحرفيين كانوا مخولين ليعملوا للعامة ، وأنه قد انضم اليهم عدد من الرجال الأحرار ، وأنه بالتدريج ، أصبحت هذه المجموعات المستعبدة أصلا جمعيات ذات استقلال ذاتى • وان غالبية العلماء المحدثين محقين فى اعتبارهم أن الجمعيات الحرة تقدم لنا حلا مقبولا للمشكلة • ومنذ نهاية القرن الحادى عشر نرى بكل تأكيد الحرفيين الريفيين يشكلون جماعات منظمة (fraternitates, caritates) على أساس حرفهم • وبالنسبة لهم كانت النقابات التجارية هى المثل وكذلك الجماعات الدينية الملتفة حول الكنائس والأديرة • ولقد تميزت الجماعات الأولى للحرفيين بتدينها وميولها للخير ، لكنها فى نفس الوقت أنجزت حاجتهم من الحماية الاقتصادية • ولقد أحسوا بحاجتهم الملحة لوقوفهم الى جانب بعضهم البعض ، لمقاومة منافسة القادمين الجدد ، منذ بداية الحياة الصناعية •

ولكن ، من الأهمية بمكان معرفة ، أن الجمعيات وحدها لم تكن كافية لقيام تكوين الحرفيين • فهنالك دور كبير فى ذلك لعبته السلطة العامة

---

(١) انظر ما سبق فى هذا الخصوص •

أو السلطات . ولم يختف الشكل المنتظم الذى ساد كل التشريع الاقتصادى للامبراطورية الرومانية مع سقوط الامبراطورية . فلقد ظل ذلك الشكل ملحوظا وقائما ، حتى فى فترة العصور الوسطى الزراعية ، فى الهيمنة التى مارسها الملوك أو القوى الاقطاعية على الموازين والمقاييس ، والعملة ، والمكوس والأسواق . وعندما بدأ الصناع يرتحلون الى المدن الناشئة ، كان رؤساء البلديات أو العمد الذين أقاموا هناك قد احتاجوهم بالطبع ليخضعوا لسلطتهم . ولدينا ما يكفى لندرك أنهم منذ النصف الأول للقرن الحادى عشر ، اكتسبوا بعض الحقوق للهيمنة على بيع السلع وعلى ممارسة كل الحرف . وفى المدن الأسقفية ، قام الأساقفة ، اضافة ، لما يتصل بتطبيق المثل والقيم الكاثوليكية ، بالزام البائعين بتحرى العدالة فى الأسعار وعدم التجاوز فيها مما يعرضهم للوقوع فى الذنب . ومن المحتم أن هذا التنظيم الصناعى المبكر قد ازداد باضطراد واكتمل على يد سلطات الكوميونات ، وقت تكوين المجتمعات المدنية . وفى اقليم الفلاندرز ، منذ النصف الثانى للقرن الثانى عشر ، نشر شيوخ البلد échevins مراسيم لا تحتوى فقط على مواد غذائية ، ولكن أيضا سلع أخرى (in pane et vino et caeteris mercibus) ومن ثم منتجات صناعية . ووقتئذ اتضح أنه من المستحيل سن قوانين وتشريعات تتصل بالمنتجات دون أن تشمل المنتجين ، طالما أن الوسيلة الوحيدة لضمان النوعية الجيدة للمنتج هى عدم مناظرته بالمنتجين . وكانت أكثر الطرق فعالية لعمل ذلك هو فى تصنيفهم فى مجاميع وفقا لحرفهم واخضاعهم لهيمنة السلطة البلدية . وهكذا فان الاتجاه التلقائى الذى ألجأ الصناع الى النقابات قد قواه اهتمام السلطة الادارية . وربما أكد ذلك انقسام صناع المدينة منذ منتصف القرن الثانى عشر الى جماعات حرفية معترف بها وتقرها السلطة المحلية ، وقد كانت تلك من قبل حقيقة قد أنجزت فى عدد كبير من المدن . وينطبق ذلك فى تلك الفترة على مدن Pontoise (١١٦٢) ، و Hagenau (١١٦٤) ، و Swindratzheim, Hochfelden (قبل سنة ١١٦٤) (١) ، وربما قد أنجز ذلك مسبقا فى كثير من مناطق التكتلس السكانى المهمة . زيادة على ذلك ، فنحن فى حوزتنا عدد من الوثائق تظهر أن هنالك حرفا كانت قائمة بالفعل فى فترة مبكرة : فهنالك كان يوجد النساجون فى مينز سنة ١٠٩٩ ، وفى سنة ١١٠٦ كان يوجد بائعو السمك فى وورمز ، والاسكافيون سنة ١١٢٨ فى فرتزبورج Wurtzburg ، وفى سنة ١١٤٩ كان يوجد حائكو الأغطية فى كولون ، وكان كل من هؤلاء يشكل مجموعة رسمية قانونية . وفى روان ، عند

(١) F. Keutgen, Urkunden zur städtischen Verfassungsgeschichte, p. 136, (Berlin, 1899).

بداية القرن الثانى عشر ، شكل دابغو الجلود رابطة لهم كان يكتتب بها كل من يرغب فى مزاولة هذه الحرفة · وفى انجلترا ، ذكرت الروابط الحرفية فى عهد الملك هنرى الأول (١١٠٠ ــ ١١٣٥) فى أكسفورد ، وهنتينجتون Huntington ، وونشستر Winchester ، ولندن ، ولنكولن ، وسرعان ما انتشرت فى كل المدن ·

من ذلك نستطيع أن نستنتج أنه من القرن الحادى عشر فصاعدا قامت السلطات العامة بتنظيم صناعة المدن بتقسيم الصناع الى مجاميع كثيرة حيث كانت تسود فيها حرف ظاهرة · وكان لكل مجموعة منهم الحق فى أن تحفظ لأعضائها حق تنظيم الحرفة التى كرست نفسها لها · ولقد كانوا لذلك أساسا جماعات مميزة ، بعيدة قدر امكانها عن الليبرالية الصناعية · وقد قامت هذه الجماعات على حماية القصر · ولقد عرفت هذه الشركة المحتكرة فى انجلترا باسم gild ، وفى ألمانيا باسم Zunftzwang أو Innung ·

وليس هنالك شك فى أن تلك التنظيمات الصارمة للصناع كانت موضوعة أساسا لصالح العمال أنفسهم · ولحماية المستهلك ضد الغش والتزييف كان يكفى تنظيم الجماعات الصناعية ومراقبة البيع · ولقد كان الاحتكار الحرفى الذى تمتعت به هذه الروابط كان بالأحرى خطرا على المشترين ، الذين كانوا تحت رحمتهم تماما · لكنها بالنسبة للمنتجين فقد قدمت لهم فوائد لا حصر لها بتحريرها من المنافسة ، ولقد كانت دون شك رخصة تحت أيديهم قدمتها السلطات الشرعية لهم · ولكن هذه الروابط التطوعية التى كونها الصناع من نهاية القرن الحادى عشر لم تمتلك ، بالطبع ، حقا شرعيا يسمح لها أن تمنع غيرها من العمل فى الصناعة · وكان سلاحهم الوحيد ضد أولئك الذين لم يكونوا ينتسبون اليهم هو سلاح المقاطعة ، ولكن كان سلاحا غير ثابت وغير واف بالغرض · ولذلك فكرت هذه الروابط منذ وقت مبكر فى أن يكون لها الحق فى الزام كل صانع في صفهم أو يغلقوا دكاكينهم · ولم تجد السلطات أية صعوبة فى الاستجابة الى طلبهم ، الذى كان فى صالح الأمن العام ، ويعمل على تسهيل انضباط الصناعة · وغالبا ما كانت الحرف عرضة لفرض المكوس عليها من قبل الحكومة مقابل هذه الرخصة القيمة ، ففى انجلترا دفعوا للتاج ضريبة سنوية نظير الاحتكار الذى تمتعوا به ، وهذا يفسر أيضا المكوس التى فرضت على مختلف الحرف فى مدن فرنسا ، وألمانيا ، والأراضى المنخفضة ·

وهكذا فان أصـــل النقابات الحرفية يرجع الى تأثير أحد عاملين : السلطة الشرعية أو الجمعيات الاختيارية • والعامل الأول توسط على أكتاف العـــامة ، أعنى المستهلكين ، والثانى هو نتيجـة فكرة الصناعة أنفسهم ، أى المنتجين • وهكذا كانا فى البداية حركتين متضادتين تماما • واتحدتا منذ اللحظة التى اعترفت فيها السلطات الرســمية باتحادات العمال كاتحادات تجارية اضطرارية (١) • وفى جوهرها ، من الممكن أن تعرف حــرف العصــور الوسطى على أنها تجمع صناعى تمتع باحتكار ممارسة حرف معينة ، بموافقة القوانين المعتمدة من السلطة العامة • وسوف يكون من الخطأ التام أن نتصور أن للحكم الذاتى حقا ملازم فى طبيعته الروابط الحرفية • وفى عدد كبير من المدن لم تحاول هذه الاتحادات زعزعة السلطة البلدية فيها وظلت مجرد عضو عامل تحت سيطرتها (٢) • بهذا المعنى ، فان كلمة Amt ، التى تعنى (عمل) ، تستوعب صفتهم تماما • وفى مركز نشط مثل نوريمبرج ، على سبيل المثال ، فانهم لم يتوقفوا عن أن يكونوا خاضعين تماما للراث (Rath) ، المجلس البلدى ، الذى حرمهم حتى من حق الاجتماع دون موافقته وتمــادى فى أن يفرض عليهم برفع مراسلاتهم مع صناع المدن الأجنبية اليه •

ومن ناحية أخرى ، فقد بدا الاتجـــاه النقابى قويا فى غالبية مدن غرب أوربا • ففى الأراضى المنخفضة وشمال فرنسا ، وعلى ضفاف الراين، وفى ايطاليا ، يمكن القول ، ان فى هذه المناطق حيث كانت حياة المدينة قد شهدت قيامها القديم وارتقاءها الكامل ، طالبت الجمعيات الصناعية بحكم ذاتى ، مما أدخلهم فى صراع ليس فقط مع السلطة الحاكمة ولكن أيضا مع بعضهم البعض • ومنذ النصف الأول للقرن الثالث عشر ، طالبوا بحق الحكم الذاتى ، وفى حق الاجتماع لمناقشة قضاياهم ، وفى حق أن يكون لهم صوت وضمان ، كذلك حق مشاركة حكومة المدينة مع التجار الأغنياء

---

(١) يشرح اتيين بوالو Etienne Boileau الدوافع التى دفعته لجمع التنظيمات الحرفية فى باريس بقوله :

"Pour ce que nous avons veu à Paris en nostre tans mont de plais, de contens par la delloiat envie qui est mère de plais et defferenée convoitise qui gaste soy même et par la non sens as jones et as poi sachrans, entre les estranges gens et cens de la vile, qui aucun mestier usent et hantent, pour la raison de ce qu'il avoient vendu as estranges aucunes choses qui n'estoient par si bones ne si loi ans que elle deussent ..." Etienne Boileau, Le livre des métiers, ed. S. Depping (Paris, 1837), p. I.

(٢) انظر على سبيل المثال :

J. Billioud, De la confrérie à la corporation : les classes industrielles en Provence aux XIVe, XVc et XVI siècles (Marseilles, 1929).

ولقد كانت الصناعة أقل الأشياء مراقبة من قبل « قناصل » المدينة •

الذين كانوا يستحوذون على السلطة في أيديهم • ولقد أصبحت محاولاتهم محاولات هائلة حتى انه فى سنة ١٩٨٩ ، منعت جمعيات العمال وعطلت، وحدث نفس الشيء فى دينانت Dinant سنة ١٢٥٥ ، وفى معظم المدن الفلمنكية وفى تورناى Tournai سنة ١٢٨٠ وفى بروكسل سنة ١٢٩٠ • لكن المقاومة لم تثنهم عن عزمهم • وفى خلال القرن الرابع عشر ، نجحوا فى بعض الأماكن ، فى الحصــول على حقهم فى ترشيح قضاتهم doyens ومحلفيهم jurés ، وفى أن يعترف بهم كمؤسسة سياسية وليتقاسموا السلطة مع طبقة كبار البرجوازيين •

وبرغم أن الحرف اختلفت بشــكل ملحوظ من مكـــان لآخر فى حجم الاستقلال الذاتي والنفوذ السياسى الذى تمتعت به ، فان تنظيمهم الاقتصادى كان متشابها داخل كل أوربا • وكانت خصائصه الأساسية واحدة • وهنا تكشف روح الحماية الموروثة فى اقتصاد مدن العصور الوسطى عن نفسها بقوة بالغة • ولقد كان هدفها الأساسى هو حماية الصانع ، ليس من المنافسة الخارجية فحسب ، ولكن أيضا من منافسة زملائه • ولقد استبقت سوق المدينة مقصورا عليه ، وأغلقته أمام الانتاج الأجنبى ، وفى نفس الوقت ارتأت وراعت ألا يغتنى أحد من أهل الحرفة على حساب الآخرين • وبسبب ذلك فان تنظيمات دقيقة متعددة حكمت تلك الأمور التى كانت تنطبق على الجميع من : ساعات محـددة للعمل ، تثبيت الأسعار والأجور ، منع أى نوع من الاعلان ، تحديد عدد الأدوات والعمال فى المصنع ، تعيين ملاحظين مخولين بشدة التحقيق فى البحث – قصــارى القول ، فان هذه التنظيمات قد استنبطت لضمان الحماية لكل أفرادها وفى نفس الوقت العدالة المطلقة بقدر الامكان • وقد كانت النتيجة احاطة استقلال كل منها بدعائم قوية • وكان الجـانب المكمل لصـورة الامتياز والاحتكار الذى تمتعت به الروابط الحرفية هو لفظ كل المظاهر الأولية • فلم يسمح بايذاء الآخرين باتخـــاذه طرقا قد تمكنه أن ينتج أسرع وأرخص من غيره • واعتبر التقدم التقنى فى العمل على أنه مظهر من مظاهر عدم الولاء للجماعة • ولقد كان الأمر الأمثل آنذاك هو استقرار الظروف فى صناعة مستقرة •

ولقد استخدم النظام الذى فرض على الصانع فى تأمين نوعية منتجات مصـنوعة لا تعاب لفـــائدة ومصلحة المستهلك • وأصبح من المستحيل على غير المتقن لعمله الحصـــول على مصنعيته ، وأصبح الاهمـــال فى الصناعة والتلاعب فيها خطرا يماثل خطر الغش فى الطعام • ولقد كانت شــدة العقوبات على الغش والاهمال مثيرة للاهتمام • ولم يكن الصـانع

عرضة فقط لرقابة دائمة من الملاحظين البلديين ، الذين كان لهم الحق فى مداهمة ورشته ليلا أو نهارا ، ولكن أيضا عرضة لرقابة العامة ، الذين كانت عيونهم تراقب عمله من خلف نوافذ ورشته ٠

وقد انقسم أعضاء كل نقابة حرفية الى طبقات تابع بعضها البعض معلمون ، وصبيان (Lehringen) وعمال باليومية (أجراء و Knechten companons ٠ ولقد كان المعلمون هم طبقة السادة التى تعتمد عليها الطبقتان الأخريان ٠ ولقد كانوا ملاكا لورش صغيرة بها مواد خام وأدوات صناعية من عدد وخلافه ٠ ولذلك فقد كانت المادة المصنعة ملكا لهم ، وكل ما يحصل من أرباح بيعها ٠ أما الصبيان فقد دربوا فى الصنعة تحت اشرافهم ، لأنه كان من غير المسموح به لأحد أن يحترف صنعة ما دون أن يكون ماهرا فيها ٠ وأخيرا تأتى طبقة الأجراء وهم عمال يحصلون على أجورهم مقابل انجازاتهم ، وقد أكملوا فترة الصبيان فى الصنعة ، ولكنهم لم يرتقوا الى مرتبة المعلمين ٠ ولقد كان عدد المعلمين ، بالطبع ، محصورا ، ومحكوما بحاجة السوق المحلى ، واحراز مرتبة المعلم كانت خاضعة لشروط معينة (دخل معقول ، ميلاد شرعى وتملك مواطنة المدينة) ، وكان تقديم هذه الأشياء أمرا صعبا ٠ وكان زبون كل ورشة محددا بعدد سكان المدينة وما جاورها ٠ وكل ورشة كانت عبارة عن دكان حيث يواجه البائع المنتج وجها لوجه ٠ وهنا ، مثلما الأمر فى تجارة الطعام بالتجزئة ، نزل الوسيط الى مكانه الصحيح ٠

وهكذا ، فان معلم الحرفة ، كان بكل مدلول الكلمة ، مقاولا صغيرا مستقلا ٠ ورأسماله الوحيد فى منزله وفى الأدوات اللازمة لصنعته ٠ وقد تحددت دائرة مستخدميه تحديدا دقيقا من قبل التنظيم ، وهى تتكون من صبى أو صبيين وعدد من الأجراء ، لايزيدون فى النادر عن خمسة أشخاص٠ واذا حدث مصادفة أن أحرز بعض المعلمين بعامل الزواج أو الميراث ثروة تزيد عن ثروة أقرانه من المعلمين ، فانه من المستحيل عليه أن يزيد فى حجم أعماله مما يسبب الضرر لهم ، وبذلك لم يترك النظام الصناعى لهم أى مجال للمنافسة ٠ ولكن عدم التساوى فى الثروة كان نادرا للغاية بين أفراد هذه الطبقة البرجوازية الصغيرة ٠ لأنه ، التنظيم الاقتصادى لهم جميعا كان يعنى الكيان الواحد للجميع ونفس الموارد المتساوية ٠ فهو أعطاهم وضعا آمنا ومنعهم من تجاوزه ٠ ومن الممكن أن يوصف ذلك الوضع ، حقيقة ، بنظام « اللارأسمالية » ٠

لكن الصناعة المدنية لم تكن متشابهة فى كل مكان ٠ ففى مدن كثيرة ، وبخاصة تلك المدن الأكثر نموا ، فانه جنبا الى جنب مع المقاولين

الحرفيين الذين يعيشون بالقرب من السوق المحلى ، توجد مجموعات مختلفة تماما ، كانت تعمل فى التصدير . فبدلا من الانتاج لمجرد زبائن المدينة المحدودين وما جاورهم فى الأنحـــاء ، نراهم المتعهدين الموردين لبضائع الجملة للتجار العاملين فى التجارة الدولية . وكانوا يتسلمون من هؤلاء التجار موادهم الخام ، التى يصنعونها لهم ، ويسلمونها لهم فى شكل سلع مصنعة . وكانوا على هذا النحو ، فيما يتعلق بمؤجريهم مجرد أجراء . ولقد تمثل هذا الوضع فى عمال الحرير فى لوكا Lucca (١) ، وطارقى النحاس فى دينانت ، والنساجين والمقصرين للنسيج والصباغين فى غينت Ghent ، ويبريس Ypres ، ودواى Douai ، وبروكسل ، ولوفان ، وفلورنسا ، وباختصار ، فى كل مراكز صناعة القماش ، التى كانت تنتج أنواعه فى العصـــور الوسـطى . وبالفعل فقد قسم العمـــال الى نقابات ، مثل باقى الصناع . لكن اذا كان شكل النقابات فى الاثنين واحدا ، فان وضع الأعضاء فيها كان مختلفا تماما . ففى الحرف التى تتعامل مع التجارة الداخلية ، فان الخبازين ، والنحاسين ، والاسكافيين ، وغيرهم ، وأدوات الصناعة ، والورش ، والمادة الخام كل ذلك يخص العامل ، وكذلك السلعة المصنعة ، التى يبيعها مباشرة لعملائه . لكن فى الصناعات الكبيرة ، فعلى العكس من ذلك ، فان رأس المال والعمل كانا مفترقين . فالعامل ، بعيدا عن السوق ، لا يعرف الا المقاول الذى يدفع له ، وخلال وكالة هذا المقاول تباع منتجات هذا العامل ، بعد أن تمر خـــلال أياد كثـيرة ، فى موانى الشرق أو فى أسـواق نوفجوروود Novgorod . وهنا يغيب تماما التعامل المباشر ، الذى طالما اعتبره المؤرخون الطابع الأساسى لاقتصاد المدينة .

أما عن أعدادهم ، فان عمال التصدير تتناقض أعدادهم بشدة مع حرف المدن الصغيرة . وقد كان السوق المتنامى الذى يخدم التجارة الدولية فى حاجة لتزايد عدد العمال . وفى منتصف القرن الرابع عشر ، كان فى غينت أكثر من ٤٠٠٠ نساج وأكثر من ١٢٠٠ مقصر للملابس ، وهو عدد هائل اذا ما تذكرنا أن مجموع عدد السكان بها كان لا يزيد عن الخمسين

---

(١) عن شكل الرأسمالية فى صناعة لوكا ، يعد ق.م ايدلر F. M. Elder بحثا ظهر ملخص له « لدائرة خاصة » ، فى :

Abstracts of Theses of the University of Chicago : Humanistic Series, t. VIII (1920-1930).

أما عن صناعة دينانت ، انظر :

H. Pirenne, Les marchands-batteurs de Dinant au Xive et Xve siècles, in Viertljahrschritt für Social-und Wirtschaftsgeschichte t. II (1904), p. 442 et seq.

ألفا • وان التوازن الذى استقر فى بعض العصور الوسطى بالشكل العادى بين الصناعات المختلفة تلاشى هنا تماما لصالح أحدهم وواجهنا هنا موقفا مشابها لذلك الموقف لمراكزنا الصناعية فى هذه الأيام • وحقيقة واحدة سوف تكون كافية لاثبات ذلك • ففى يبريس Ypres فى سنة ١٤٣١ ، بمعنى القول ، انه فى خلال الفترة التى تقلصت فيها صناعة القماش بسرعة ، ظلت هذه الصناعة تمثل ٦ر٥١٪ من مجموع صناعاتها ، بينما فى نفس التاريخ فى مدينة فرانكفورت على نهر المين ، وهى مدينة الصناعة الداخلية ، كان عمال الملابس يمثلون فقط ١٦٪ من عدد سكانها •

ولقد كانت الجماعات العاملة فى المدن الصناعية الكبرى تحت رحمة الكوارث والتعطيل • حين ، تتوقف المواد الخام عن الورود نتيجة للحرب أو حظر التصدير ، تتوقف الأنوال عن العمل وتملأ جماعات المتعطلين الشوارع ، وتتسكع فى البلاد تتسول خبزها • وبعيدا عن تلك الفترات فترات البؤس المحتوم ، فان ظروف المعلمين وملاك الورش أو مستأجريها كانت مرضية ، ولكنها كانت أبعد من ذلك مع عمال اليومية الأجراء الذين يعملون عندهم • لأن معظمهم كانوا يعيشون فى حارات فى حجرات مستأجرة أسبوعيا ولا يمتلكون سوى الملابس التى عليهم • ولقد تنقلوا من مدينة لأخرى مؤجرين أنفسهم لأصحاب العمل • ولقد كانوا يتجمعون صباح كل يوم اثنين ويلتقون فى الميادين أمام الكنائس ، ينتظرون فى قلق أى معلم (أسطى) يستأجرهم لمدة أسبوع • ويبدأ يوم العامل مع الفجر وينتهى عند منتصف الليل • وتدفع الأجور مساء كل يوم سبت ، ولقد نص التنظيم البلدى ، على أن يكون الدفع نقدا ، لأن تجاوزات نظام دفع الأجور سلعا لا عملة كانت عديدة • وهكذا كون الصناع فى الصناعة الكبرى طبقة منفصلة بين سائر الصناع وحملوا تشابها قريبا للغاية من طبقة البروليتاريا الحديثة • ولقد تميزوا « بأظافرهم الزرقاء » ، وملابسهم الرثة وأخلاقهم السيئة • ولقد كان المعلمون لا يخشون معاملتهم بخشونة ، لأنهم كانوا يعرفون أنه سرعان ما سيمتلىء مكان أولئك الذين يطردون منهم • ولم يكن من المفاجىء آنذاك أن نجدهم ، منذ منتصف القرن الثالث عشر ، ينظمون الاضراب عن العمل • وأقدم هذه الاضرابات وقعت فى دواى Douai فى سنة ١٢٤٥ ، تحت اسم Takehan (١) • وفى سنة ١٢٧٤ تمادى نساجو ومقصرو القماش فى غينيت فى اضرابهم وعزموا على ترك المدينة والذهاب الى برابانت ، لكن رؤساء مدينة برابانت حذروهم من

---

(١) G. Espinas and H. Pierenne. Recueil de documents relatifs à l'histoire de l'industrie drapières en Flandre, t. II, p. ...

ذلك ، ورفضوا استقبالهم (١) • وفى الأراضى المنخفضة بدأت معاهدات المدن تتشكل ابتداء من سنة ١٢٤٥ ، لتسليم العمال الهاربين الى الحكومة والمشتبه فيهم والمشاركين فى المؤامرات • وكانت كل محاولة للثورة تجابه بالنفى والابعاد أو بعقوبة الموت •

ولقد اختلف العمال العاملون فى صناعات التصدير ، فى خاصية أساسية وحيدة تختلف عن العاملين بالأجر فى أيامنا هذه • فبدلا من تجمعهم فى مصانع كبيرة فلقد وزعوا على عدد من الورش الصغيرة • ولقد كان معلم النساجين أو المقصرين للملابس ، سواء أكان مالكا للأدوات التى يستعملها أم كان مستأجرا لها ، فقد كان عاملا أهليا ، يعمل لحساب رأسمالية تجارية كبرى • ولقد كان الاشراف المفروض من قبل السلطة البلدية على الصناعة يعطى حماية أقل للعمال ، طالما كانت السلطة فى يد كبار البرجوازيين الذين من بينهم تجند سلطات المدينة • ومن الضرورى فى هذا المقام أن نلقى نظرة خاطفة من خلال الصكوك المتصلة بميراث تاجر الأجواخ والملابس الثرى ، السير يوحنا بوانبروك Sire Jehan Boinebroke (٢) (الذى توفى سنة ١٢٨٥ ـ ١٢٨٦) لنلاحظ المدى الذى كان لايزال يسخر فيه صناع الصناعات الكبرى حتى بداية القرن الرابع عشر • فلقد كان هؤلاء الصناع مطحونين من قبل مستخدميهم ، وكان معلموهم بدورهم مجبرين على اضطهاد الصبيان وعمال اليومية الأجراء • ولقد ضغط تفوق رأس المال ، الذى استطاع الاقتصاد المدنى من خلاله تحرير بعض الحرف ، ضغط بكل ثقله على أولئك المنتجين لصناعات الجملة التى كان لها التفوق والسيادة •

---

(١) Ibid., p. 379 et seq.

(٢) G. Espinas, Les origines du capitalisme, Sire Jehan Boinbroke. Patricien et drapier douaisien, Lille, 1933.

الفصل السابع

التغيرات الاقتصادية
فى القرنين الرابع عشر
والخامس عشر

١ ـ الكوارث والاضطرابات الاجتماعية (١) :

من الممكن اعتبار بداية القرن الخامس عشر نهاية مرحلة اتساع اقتصاد العصر الوسيط · وحتى ذلك التاريخ كان التقدم مستمرا فى كل المجالات · ولقد سار التحرير المتزايد لطبقات الفلاحين يدا بيد فى حجة اصلاح الأراضى غير المزروعة أو الأراضى البور واصلاح صرفها واعمارها ، مع استيطان القبائل الجرمانية للأراضى وراء الألب · ولقد غير قيام الصناعة والتجارة شكل المجتمع وكيانه بالفعل تغييرا تاما · بينما أصبح البحر المتوسط والبحر الأسود من جانب وبحر الشمال والبلطيق من جانب آخر مسارح لتجارة كبرى ، وانبثقت الموانى والمراكز التجارية على طول سواحلها وفى جزرها ، وتغطت أوربا بمدن لمع نور نشاط طبقتها الوسطى الجديدة فى كل اتجاه · وفى ظل هذه الحياة الجديدة ، كان التعامل المالى تعاملا متكاملا ، واستخدمت أشكال التسليف والائتمان وتقدم اقراض رؤوس المال ، وأخيرا ، بدا النمو السكانى اشارة لا تخطىء لصحة ونشاط المجتمع (٢) ·

---

(١) Bibliography. H. S. Lucas, The Great European Famine of 1315, 1316 and 1317, in Speculum (Medieval academy of America, 1930). F.A. Gasquet, The Black Death of 1348 and 1349 (London 1908) H. Pirenne, le soulèvement de la Flandre maritime de 1323-1328 (Brussels, 1900). A. Réville, le soulèvement des travailleurs d'Angleterre en 1381 (Paris, 1898). Ch. Oman, The Great Revolt of 1391 (Oxford, 1906). G. M. Trevelyan, England in the Age of Wycliffe (London 3rd ed., 1900). S. Luce, Histoire de la Jacquerie Paris, 1895). G. Franz, Die agrarischen Unruhen des ansgehenden Mittelalters (Marburg, 1930). H. Denifle, La désolation des églises, monastères et hôpitaux en France pendant la guerre de Cent Ans (Paris, 1898-9), 2 vols. G. Schanz, Zur Ge chichte der deutschen Gesellenverbande (Leipzig, 1877). E. Martin SainttLéon, Le com(pagnonnage (Paris, 1901). H. Pirenne, Histoire de Belgique, t. II (Brussels, 3rd ed., 1922). S. Salvemini, Magnati e populani in Firenze dal 1280 al 1295 (Florence, 1899). C. Falletti-Fossati, /I tumulto dei Ciompi (Florence, 1882). L. Mirot, Les insurrections urbaines au début du régne de Charles VI, 1380-1383 (Paris, 1906).

(٢) ليس هنالك ما هو أساسى لفهم تاريخ الاقتصاد الوسيط من معرفة الكثافة السكانية لأوربا فى تلك الفترة · ولسوء الحظ ، فان البيانات التى تحت أيدينا تسمح فقط باعطائنا تقديرات تخمينية لا فائدة منها · ولقد ذكر لوت فى بحثه الحديث :

M. F. Lot, L'état des paroisses et de feux de 1328, in Bibliothèque de l'Ecole de Chartes, t. xc (1929). =

والآن خلال السنوات الأولى للقرن الرابع عشر هنالك اعادة نظر في كل هذه الاتجاهات ولم يكن من المحتمل حدوث تدهور بقدر ما حدث من جمود لكل ما قد سبق • فلقد عاشت أوربا ، كما يمكن القول ، على ما كانت قد اكتسبته ، بعد ان استقرت جبهتها الاقتصادية • حقا لقد كان هنالك حتى ذلك الوقت بعض الأقطار لم تتأثر بالحركة الاقتصادية العامة ، مثل بولندة وخاصة بوهيميا ، التي كانت قد بدأت تأخذ دورا فعالا فيها • لكن صحوة هذه البلاد المتاخرة لم تستوجب نتائج ذات أهمية كافية في التأثير على كل غرب أوربا لأى حد معقول • واذا وضعنا الأقطار الأخيرة في الاعتبار على حدة ، فانه يتضح لنا أننا ندخل فترة بقاء لا فترة خلق ، عندما بدا الاستياء الاجتماعي يثبت أن كلا من الرغبة والعجز لن يصلحا الوضع الذي تناسب بعد وقت قصير تماما مع حاجات الناس • والدليل على هذا الانقطاع في النمو الاقتصادي نجده فجأة في حقيقة وقف حجم التجارة الخارجية عن الاتساع • وحتى زمن الكشوف الجغرافية العظيمة في منتصف القرن الخامس عشر ، فان النمو الاقتصادي لم يتجاوز على الاطلاق النقاط القصوى التي وصل اليها على يد البحارة الايطاليين في الجنوب وعلى يد الهانز في الشمال ، ونعني بذلك ، موانى بحر ايجه والبحر الأسود من جانب ومن الجانب الآخر سوق نوفجورود الروسى • ولقد ظلت التجارة ، بالطبع ، نشطة للغاية • وفي أحوال معينة يمكن القول بأنها زادت • ومنذ سنة ١٣١٤ بدأت حقيقة علاقات جنوة البحرية والبندقية مع بروجز ولندن ، عبر مضيق جبل طارق ، وبدا أن انتصار الهانز على والديمار Waldemar الدانمركي سنة ١٣٨٠ قد أمن تماما سيطرتهم على البلطيق • ولكن الحقيقة التي تظل باقية هي أن التجار الايطاليين ظلوا يعيشون على الماضي دون اعطاء أى دفعة للأمام •

=

ان عدد سكان فرنسا (بحدودها الحالية ـ كان في ذلك الوقت يتراوح ما بين ٢٣ و ٢٤ مليون نسمة ، شاملة فروضا تخمينية لعدد كل البيوت والاستدلال بالدرجة التى سوف يتكاثرون بها • وليس قبل بداية القرن الخامس عشر نستطيع أن نبدأ في الحصول على وثائق نستطيع أن نأخذ منها بقدر الامكان الأعداد الصحيحة ولا ينطبق ذلك على كل المدن بل ينطبق على بعضها • وان الأعداد السكانية القليلة لهذه المدن انذاك ، مقارنة لما هى عليه الآن تجعلنا نعتقد أن هذه البلاد كانت ضعيفة في تزايد أعداد سكانها • ولقد توصل J. Cuvelier الى معلومات طيبة عن عدد سكان برابانت سنة ١٤٣٧ ، حيث ذكر أنهم كانوا حوالى ٤٥٠٫٠٠٠ نسمة • واليوم في هذه البلدة الآن في نفس المنطقة حوالى اثنين ونصف مليون نسمة • أى وصلت الى خمسة أضعاف العدد الأول •

(J. Cuvelier, Les dénombrements des foyers en Brabant, p. cccxxvii).

ولكن المرء يتردد في ان يعمم ويستنتج أن المجموع الكلى لسكان أوربا عند نهاية العصور الوسطى كان خمس ما عليه أوروبا الآن من تعداد سكانى • وانى أظن انها كانت أقل من ذلك •

ونفس الشيء ينطبق على القارة الأوربية ، فلقد توقف الاستيطان الألماني تجاه الشرق ، وبدا مجهدا على حدود لتوانيا ولاتفيا • ولم يجر أى تقدم لا فى بوهيميا ولا بولندة والمجر • ولقد ظلت صناعة الملابس فى الفلاندرز وبرابانت ، تحتفظ بازدهارها التقليدى ، دونما ازدياد ، حتى منتصف القرن ، حيث انهارت وتقلصت سريعا • فى ايطاليا ، غرقت غالبية البنوك الكبرى ، التى سادت الاتجار فى المال طويلا ، فى سلسلة من الافلاسات المحزنة : ففى سنة ١٣٢٧ أفلس بنك سكالى Scali ، وفى سنة ١٣٤١ أفلست بنـــوك بوناكورسى Bonnaccorci وأوزانى Usani وكورزينى Corsini وكثير غيرهم ، وفى ســـنة ١٣٤٣ أفلس بنـــك باردى Bardi وبيروزى Peruzzi واكسياجولى Acciajoli وبدأ تدهور أسواق كمبانيا مع السنوات الأولى للقرن (١) • وحينئذ توقف ، أيضا ، ازدياد عدد السكان ، وقد كان هذا التوقف أكبر دليل على استقرار المجتمع وتطوره الذى بلغ أقصى حد له (٢) •

ومن العدالة أن نشـــير ، أن القرن الرابع عشر لم يواصل تقدمه ، بسبب الكوارث التى اكتنفته وكانت مسئولة عن ذلك • ولقـــد بدا أن المجاعة المخيفة التى ألقت الخراب على كل أوربا من ١٣١٥ الى ١٣١٧ قد سببت خرابا عظيما أكثر من أى مجاعة سبقتها • وان الأرقام التى ذكرت حول مدينة يبريس تجعلنا نقدر اتساع هذه المجاعة • ولقد عرفنا أن حكومة المدينة كانت قد أمرت بدفن ٢٧٩٤ر٢ جثة من بداية مايـــو حتى منتصف أكتوبر ١٣١٦ ، وهو عـــدد كبير ، اذا ما وضعنا فى اعتبارنا حقيقـــة أن عدد سكان هذه المدينة كان آنذاك لايزيد عن ٠٠٠ر٢٠ نسمة • وبعد ذلك بثلاث ســـنوات ، حدثت كارثة أكبر ، وهى انتشـــار الطاعون (الموت الأسود) ، فى العالم الذى لم يكن قد فاق بعد من ضربته الأولى • ولقد كان هذا الوباء من أكثر الأوبئة التي ذكرت فى التاريخ فظاعة دون نزاع • ولقد قدر أنه من سنة ١٣٤٧ حتى سنة ١٣٥٠ من المتوقع أن يكون قد أباد

---

(١) A. Sapori, La crisi delle compagnie mercantili dei Bardi e dei dei Peruzzi (Florence, 1926) ; E. Méanges P. Fabre (Paris, 1902). Peruzzi (Florence, 1236) ; E. Jordan, La Faillite des Euonsignori, in Méanges p. Fabre (Paris, 1902).

(٢) فى غياب عدد كاف من العمل الدقيق حول الدراسة السكانية للعصور الوسطى ، يعطى فقط انطباع عام • ومن الواضح أنه ليس اكثر من تدقيق تقريبى • عموما من الممكن اعتبار الموت الاسود كعلامة ليست فقط للتوقف ، ولكن أيضا تقلص فى النمو السكانى • ومع ذلك ، فانه حتى قبل هذه الكارثة ، فلقد استقر العدد السكانى فى كل مكان فى غرب أوربا • ومن ناحية أخرى ، فان النصف الأول من القرن الرابع عشر يشهد نموا سكانيا كبيرا فى الأقطار السلافية فى شرق أوربا ، وبخاصة فى بوهيميا •

ثلث سكان أوربا وقد تبعته فترة غلاء شديد ، سوف نناقش آثارها مؤخرا (١) .

واضافة لهذه الكوارث الطبيعية أضيفت كوارث سياسية ليست أقل منها . فلقد تمزقت ايطاليا من خلال الحروب الأهلية طوال كل القرن . أما ألمانيا فكانت نهبا لفوضى سياسية دائمة . وأخيرا ، فان حرب المائة عام دمرت فرنسا وأجهدت انجلترا . كل ذلك كان اثقالا لكاهل الحياة الاقتصادية . فقد تقلص عدد المستهلكين وفقد السوق جزءا من قوة تماسكه .

ولقد زادت هذه النوائب بالتأكيد من حدة المشاكل الاقتصادية التى جعلت القرن الرابع عشر أعنف من القرن الثالث عشر ، ولكن يجب أن نفكر فى تأثير هذه النوائب الرئيسى على التنظيم الاقتصادى نفسه ، الذى كان قد وصل الى حد أثارت فيه عملياته الاستياء فى كل من سكان المدينة والريف على حد سواء .

وبرغم أن تحرير الفلاحين قد وقع عموما خلال الحقبة السابقة الا أنه خلف وراءه تقريبا جذورا عميقة للعبودية . ففى أقطار كثيرة استمرت السخرة تثقل كاهل الفلاحين وقد جعلهم اختفاء نظام الجفالك لا يزالون فى بلاء شديد . لأن السيد الاقطاعى توقف عن اعتبار نفسه حاميا لرجال مقاطعته . وأصبح وضعه فى العلاقة بمستأجريه ليس ذلك الوضع للزعيم الوراثى الذى تقبل سلطته على أساس طابعها الكنسى ، بل أصبحت علاقتهم بمالك ومحصل للديون (٢) . وطالما أن أراضى المقاطعات الكبيرة الخالية قد أشغلت ، لم تعد تؤسس مدن جديدة ولم يعد هنالك أى دافع لاعطاء الأقنان حريتهم ، التى بدلا من أن كانت مربحة للسيد ، صارت تحرمه من الايجارات والخدمات التى كانت تستخلص منهم . ودون شك ، فان الحاجة للمال غالبا ما كانت تدفع هؤلاء اللوردات لبيع تراخيص تحرير للأقنان بأسعار معقولة ، أو حتى تحرير قرية بأكملها مقابل التنازل عن جزء من الأراضى العامة . لكن الحقيقة التى ظلت قائمة هى أن فترة التحرير هذه التى شملت الفلاح لم تعد تعطيه أملا فى تحسين وضعه بالهجرة الى

---

(١) من هنا جاء ظهور قانون العمال فى انجلترا وفرنسا بمرسوم ملكى سنة ١٣٥١ ، وكلاهما قام بتنظيم الأجور بقصد خفض الأسعار .

R. Vivier, La grande ordonnance de février 1351, les mesures anticorporatives et la liberté du travail, in Revue historique, t. cxxxviii (1921), p. 201 et seq.

(٢) عن كل ذلك ، انظر :

M. Bloch, Les caractères originaux de l'histoire rurale française, p. 112 et seq.

أراض بكر . وفى كل مكان ظلت فيه عبودية الأرض ، فانهـا أصبحت ممقوتة جميعها ، وأصبحت الآن استثناء ، ذات مظهر مهين . ولقد كان الفلاحون المحررون من جانبهم ضجرين من اختصاصات محاكم الجفالك ، التى بسببها حملوا التزامات اقطاعيه ومن خلالها ظلوا خاضعين للاستغلال الاقتصادى للأسياد الاقطاعيين أسيادهم فى السابق . ومنذ ذلك الوقت ، وخلال القرن الثالث عشر ، فقـد الرهبـان حماسهم ، وبفقدانه فقدوا مكانتهم ، وفقدوا العشور التى كان معظمها يدفع لهم كرها . ولقد أصبحت المزارع الواسعة التى أقاموها على أراض شاسعة عمتا طاحنا على الفلاحين . ولقد طالبوا بالجزء الأكبر من الأراضى العامة كمراع لقطعانهم ، وأحاطوا حدود مزارعهم بأسوار بأيدى الفلاحين ، ولقد كان من السهل عليهم أن يجوروا على الفلاحين لأنهم كانوا فى الغالب فى حماية حجاب اللوردات أو رؤساء المجلس البلدى ، ولهذا كانوا مخولين لارغام عدد من السكان للعمل لهم كعمال زراعيين . ولكل أسباب القلق هذه تضاف المتاعب الناتجة عن الحروب المستمرة ، ولقد حولت حروب المائة عام على وجه الخصوص ، التى خلالها واصل المرتزقة العيش فى البـلاد بعـد صرفهم ، منـاطق كثيرة فى فرنسا الى صحراوات « حيث لم يعد يسمع ديك يصيح أو دجاجة تقرق » (١) .

ولقد كان هذا الخراب ، فى حقيقته ، مظهرا خاصا لفرنسا ، وسوف يكون دون شك من الخطأ أن نثبت أن موقف الفلاحين فى باقى أوربـا كان أسوأ مما كان فيها خلال القرن الرابع عشر . ولقـد أثبت الاستياء الاجتماعى الذى كانوا عليه أن هذا الاستياء لم يكن فى كل مكان بدرجة واحدة . وربما حدث هذا الاستياء نتيجة البؤس المتزايد والرغبة فى وضع حد لهذه الأشياء المسببة له واعتقاد الرجال فى مقدرتهم على الخلاص منها . واذا كانت ثورة سكان جزيرة فرنسا سنة ١٣٥٧ (Jacquerie) كانت ثورة شعبية أثارها الحقد والكراهية للنبلاء الذين يتحملون مسئوليتها ، فانه على العكس من ذلك تماما بصدد الثورة التى وقعت فى غرب الفلاندرز من سنة ١٣٢٣ حتى سنة ١٣٢٨ والتمرد الذى وقع فى انجلترا سنة ١٣٨١ .

ولقد كان طول مدة الثورة الأولى التى وقعت فى غرب الفلاندرز ، كافيا تماما لاثبات أنها لم تكن من عمل المواطنين البائسين والمستضعفين . ولكنها كانت ، فى حقيقتها ، محاولة خالصة لثورة اجتماعية ، موجهة ضد النبلاء لاغتصاب السلطة التشريعية والمالية منهم . ولقد تسبب الشـدة التى كان النبلاء يستخدمونها فى جمع المكوس وفرض الغرامات الثقيلة فى

(١) M. Bloch, Op. cit., p. 118.

اقليم الفلاندرز لصالح ملك فرنسا ، في القيام بشغب بعد الحرب التى بدأت بمعركة كورتراى Courtrai ، والتى سرعان ما تحولت الى ثورة علنية ضد النظام القائم • ولم يستغرق اخماد هذه الفتن وقتا طويلا ، ولكن الروح الاستقلالية لفلاحى هذه المنطقة الأقوياء والعنيدين ، سلائل الهوتيس hôtes ، الذين أصلحوا أرض المستنقعات هناك وزرعوها في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أيقظت فيهم روح الصراع لدرجة جعلتهم ينظرون للأغنياء وللكنيسة نفسها كأعداء طبيعيين لهم • وكان يكفي آنذاك ليشك في أى شخص يعيش على دخل الأرض (١) • ولقد رفض الفلاحون دفع العشور وطالبوا الأديرة بتوزيع غلانها على الناس • ولم يستطع القسس أن يفلتوا من الكراهية التى استولت على العامة حيالهم ، ولذلك أعلن أحد قواد حركة التمرد أنه يتمنى أن يرى آخر واحد منهم معلقا على المقصلة • وبمزيد من القسوة ، اضطر النبلاء والأغنياء الى قتل أقاربهم أمام العامة • ولم نعد نرى ثانية خلال ثورة الجاكيرى Jacquerie أو خلال ثورة الإنجليز سنة ١٣٨١ ، أعمال عنف مخيفة كتلك التى وقعت في ثورة غرب الفلاندرز • ويقول كاتب معاصر لتلك الأحداث في ذلك : « ان بلاء التمرد وصل لدرجة كره فيها الناس الحياة » • وللقضاء على هؤلاء الثوار ، « الذين كانوا كالوحوش المجردة من الشعور والعقل » ، والذين هددوا بالاطاحة بالنظام الاجتماعى ، كان من الضرورى لملك فرنسا أن يتدخل في الأمر بنفسه • ولقد تقدم الفلاحون ، المعتدون بأنفسهم ، لمقابلته وفرضوا عليه الدخول في معركة معهم على منحدرات مونت كاسيل Mount Cassel (٢٣ أغسطس ١٢٢٨) • ولقد كانت هذه المعركة قصيرة كما كانت معركة دموية • ولقد قام الفرسان دون رحمة بوضع السيف في الدهماء الذين تجرءوا على مقاومتهم وعدوهم خارجين على القانون • ورفض الملك أن يستمع الى البارونات ، الذين حرضوه على سحق جيش الفلاندرز وذبح الرجال والنساء والأطفال ، واكتفى بمصادرة ممتلكات المتمردين الذين حاربوه • ولقد سحقت الثورة الاجتماعية ، التى كانت قد انتصرت لوقت قصير • والتى لا تعتبر اتجاهاتها الحقيقية ، بالطبع ، أكثر من سخط وقتى لتذمر سيرته الظروف الى أقصى مدى له • ويعزى شدة عناد هذه الثورة وطولها الى حقيقة أن الثوار كانوا قد ساندهم الحرفيون في يبرس وبروجز ، وقد أعطوا بانضمامهم للفلاحين الثائرين روح ثورة المدن •

---

(١) "Dicebant enim Alicui diviti : Tu plus diliggis dominos quam communitates de quibus vivis ; et nulla alia causa in coreperta, talem exponebant morti" Chronicon comitum Flandrensium, in Corpus Chron, Flandr., t. I., p. 202.

كذلك فان ثورة الانجليز سنة ١٣٨١ ، كانت مثـــل ثورة غرب الفلاندرز ، كانت ثورة شعبية قام بها سكان المدن وسكان الريف ، ومثلها ، أيضا ، من الممكن أن تعتبر كتعبير عنيف وخـارج عن الشـعور بسبب التناقض القائم بين العمال والرجال الذين يعيشون على كدهم · ولم تكن ثورة الانجليز ، مثل ثورة الفلاندرز ، نتيجة لبؤس طبقات الفلاحين · ولم يكن لها تشـابه مع ثورة الجاكريين (Jacquerie) ، فان ظروف الفلاحين الانجليز كانت قد تحسنت خلال القرن الثالث عشر ، مع نمو فائض أموال الايجارات لخدمة العمال · لكن في كل الجفالك ظلت هنالك تقريبا بقايا من عبودية الأرض ، ووجد الفلاحون نصف الأحرار في النظـام الاقطاعى كل ما هو غير محتمل بسبب الارتفـاع في الأسعار والأجـور الذى تلا الطاعون وتسبب في سـوء أحوالهم · وليس هنالك ما يثبت أن سبب ثورتهم هي محاولة من جانب مالكي الأرض زيادة مطالب وخدمات العمل · ومن ثم بدت هذه الثورة كمحاولة لزعزعة ما تبقى من نظـام الجفالك ، لصلحة الشعب · ومن المحتمل أيضا أن أفكار تصوف اللورالدين (أتباع لولارد وهو أحد أتباع المصلح الديني ويكلف) قد ساعدت في أن تثير فيهم كراهية « الأسياد » الذين لم يكن لهم وجود « حين خلق آدم وحواء » · ومثلما حدث في الفلاندرز قبل خمسين سنة ، ملأت أذهان الثوار طموحات شيوعية غامضة ، وأعطت ثورتهم مظهر حركة موجهة ضد النظام الاجتماعى القائم · لكن الرعب الذى انبثق عنها كان قصير العمر · ولقد كان التفاوت كبيرا بين قوى المحافظين والفلاحين ، الذين ، في تعطشهم للانتقام وأملهم في اليوتوبيا ، أنشأوا صورة أزلية للعالم مبنية على العدالة والمساواة · وبعد انقضاء أشهر قليلة استقر الأمر وعاد الى ما كان عليه · وقد كان يكفى أن يظهر الملك نفسه وأن يصطف الفرسان لانهاء مثل هذا الموقف الذى كان بمثابة قعقعة أكثر منه حربا ·

وتدين ثورات الفلاحين في القرن الرابع عشر حقيقة بمظهرها الخطير لوحشية الفـلاحين · ولم يكن الفـلاحون يستطيعون النجاح في ثوراتهم باعتمادهم فقط على أنفسهم · وبرغم أن طبقات المزارعين شكلت بالفعل الجزء الأكبر من المجتمع ، الا أنها كانت لا تزال عاجزة عن أى تفكير في اقامة عالم جديد ، وكل ما اعتبر هو ، أن هذه التحركات لم تكن سوى تفجرات داخلية قصيرة الأمد ، انفجرت بدافع الغضب الوقتى ، وبرغم أن التناقض الاقتصادى بين الفلاحين الذين يحرثون الأرض ويزرعونها والنبلاء الذين يمتلكونها ، كان كذلك الذى كان بين العمـال ورأسمالية المدينة ، الا أن الاحساس به كان أقل ، بسبب الظروف التى جعلت فلاح الريف المقيد بقيود كثيرة الى الأرض التى يزرعها ، والتى تركته ، رغم كل شىء ، في درجة أكبر من الاستقلال الذاتى عن العامل الأجير في الصناعة الكبرى · ولذلك

فليس من المستغرب أن تكون مدة المعاناة ونتائجها فى المدينة مناقضة تماما عن تلك المعاناة التى كانت بين سكان الريف فى القرن الرابع عشر.

وفى كل أنحاء غرب أوربا احتكرت طبقة البرجوازية العليا haute bourgeoisie حكم المدينة. ومن ناحية أخرى، اذا ما تذكرنا أن حياة المدينة كانت قائمة أساسا على التجارة والصناعة، صار من المحتم أن تكون القيادة فى هذا المجتمع للتجار على الصناع وهم فى الأصل أصحاب السبق فى القيادة. ولذلك خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، جندت أرستقراطية من بين مشاهير التجار، قاموا فى كل مكان بأعمال الحكومة البلدية. ولقد كانت حكوماتهم حكومة طبقية بمعنى الكلمة، ولوقت طويل كان لديها مزايا كل هذه الطبقة من، نشاط، وحدة الذهن، والتفرغ لخدمة المصلحة العامة، التى كانت بالطبع متطابقة مع مصلحتهم الخاصة والضمان الرئيسى لهم. ولقد حمل العمل الذى أنجزته شاهدا كبيرا على هذه المزايا. وتحت هذه الطبقة اتخذت حضارة المدينة خصائص ظلت مميزة لها حتى النهاية. ولقد أسست كل أجهزة الادارة البلدية، ونظمت خدماتها المختلفة، وأسست الأمور المالية والائتمانية المدنية، وبنت ونظمت الأسواق، ووفرت المال اللازم لبناء أسوار متينة وفتح مدارس، وبالاختصار، لسد كل احتياجات البرجوازية. ولكن شيئا فشيئا تكشفت أخطاء التنظيم الذى عهد بالتنظيم الاقتصادى للصناعة الكبرى لنفس الناس الذين عاشوا على أرباحها، والذين دفعوا طبيعيا لانقاص نصيب العمال الى الحد الأدنى.

ولقد رأينا على التو أن مدن عالم العصور الوسطى الصناعية الكبرى، فى المدن الفلمنكية، أن صانعى الملابس قد بدءوا يظهرون العداوة للعمد البطارقة échevins، التى ظهرت بوضوح فى ثوراتهم (١). ويضاف الى عدم رضاهم تزايد عدد البرجوازيين الأغنياء. بذلك، فى نفس الوقت، أصبح النظام الارستقراطى فى مدن كثيرة حكم الأوليجاركية البلوتوقراطية (حكم الأقلية الغنية)، الحريصة على منع السلطة عن كل من هو ليس بعضو من أعضاء الأسر القليلة الغنية، والمستغلة لها بشكل متزايد واضح لصالحها الخاص. وهكذا نمت معارضة اجتماعية وسياسية ضد حكومة المدينة ولقد كانت المقاومة الاجتماعية، بوضوح، الأكثر عنفا، وقد أعطت الاشارة للثورة، التى بتغيرات دموية، واصلت مسيرتها فى القرن الخامس عشر.

---

(١) انظر ما سبق، ص ١٨٩-١٩٠.

ولقد دعيت ثورة الحرفيين ضد الأرستقراطية فى معظم الأحيان بثورة ديمقراطية • ولم يكن التعبير تماما منطبقا على اللفظ ، اذا ما قارناه بمحتواه اليوم • فلم يكن قصد الساخطين قيام حكومات شعبية ، ولقد كان أفقهم محصورا بأسوار مدينتهم ومحدودا باطار رابطتهم • وبرغم أن أصحاب كل حرفة قد طالبوا بنصيب من السلطة لكنها مطالبة لم تكن تهتم بمطالب جيرانها وكان عملها محدودا بظروف الأرستقراطية • وقد حدث ، فى بعض الأحيان ، بالطبع ، أن تتحد روابط عدة من مدينة واحدة ضد العدو العام المشترك ، وهى الأقلية الحاكمة Oligarcy of échevins لكنهم سرعان ما يديرون ظهورهم لبعضهم البعض بعد احراز النصر • ويجب ألا ننسى أن أشباه الديمقراطيين هؤلاء كانوا جميعهم أعضاء فى المجموعات الصناعية الذين كان فى يدهم امتياز الاحتكار الأكبر • والديمقراطية ، كما فهموها ، لم تكن سوى ديمقراطية أصحاب الامتياز •

ولم تكن كل المدن يسودها الاضطراب بسبب مطالب الحرفيين • فلم تظهر مدينة البندقية ولا مدن الهانز ، ولا المدن الانجليزية أى آثار لهياج • ولا شك فى أن السبب فى ذلك أن حكومة البرجوازية العليا لم تنحط هنالك فى أوليجاركية أنانية ومغلقة ، فان ، الرجال الجدد ، الذين أغنتهم التجارة ، كانوا دائما يجددون حكمهم لهذه المدن • وذلك يفسر كيف أن الارستقراطية هنالك نجحت فى الاحتفاظ بالسلطة التى جعلتهم قادرين على أن يحتالوا على الجميع بواسطة سيطرتهم المزدوجة على التجارة وعلى الحكومة المدنية ، ولعدة قرون ، أعطت الأرستقراطية البندقانية أمثلة عالية للوطنية ، والنشاط والمهارة ، واليسر الذى حصلت عليه للجمهورية وعاد بالنفع على الجميع بالتساوى ، لدرجة أن الناس لم يحلموا أبدا أن يطرحوا عنهم خضوعهم لهم • ولقد بدا أن هنالك أسبابا مماثلة أبقت على النظام الارستقراطى فى مدن الهانز • وفى انجلترا ، كانت السيطرة المبذولة من قبل السلطات الملكية على المدن قوية بدرجة كافية لكبح جهود العامة ، اذا دعت الضرورة لذلك • ونفس الشىء ينطبق على مدن فرنسا ، التى منذ نهاية القرن الثالث عشر ، تزايدت تبعيتها لسلطة وكلاء التاج ، baillis ، أو القهرمان (وكيل الأمير الاقطاعى) • وحيثما كان ، وعلى سبيل المثال فى برابانت، فقد اعتبر أمير المقاطعة نفسه حاميا للبرجوازية العظمى •

وفوق كل ذلك فلقد اندلعت الثورات البلدية فى أكبر مدن الأراضى المنخفضة الصناعية ، وعلى ضفاف الراين وفى ايطاليا • ونستطيع هنا أن نحاول اعطاء رسم لملامحها الأساسية ، غاضين النظر عن الاختلافات العديدة التى عادت بسبب ظروف مختلفة ، وبسبب مطالبها وجوانب

أحداثها • والمعتقد أن سببها الأول يجب أن يكون هو تعسف الأوليجاركية الحاكمة • وحيث ان سلطة الأمراء كانت ضعيفة للغاية لتمنع هذه الثورات أو لتسيطر عليها ، فلم يعد يبقى سوى الاطاحة بها ، أو على الأقل اجبارها على اقتسام السلطة التى فكرت فى احتكارها • وبالنسبة لذلك ، كان الجميع متفقين ، أغنياء وفقراء على السواء ، ولم يكن التجار الذين كانت بأيديهم الأعمال التجارية فى ذلك بأقل من الحرفيين والعمال الأجراء فى الصناعات الكبيرة • ووصلت الحركة ، التى بدأت فى النصف الثانى للقرن الثالث عشر ، الى نهايتها خلال القرن الرابع عشر • ونتيجة للشغب ، الذى كان دائما ما يرقى الى صراع مسلح ، يضطر « الكبار » أن يتنازلوا « للصغار » عن زهاء قدر كبير فى الادارة البلدية • وطالما أن غالبية السكان كانت تنتظم فى حرف ، فان الاصلاح الضرورى كان قد تلخص فى اشراك أصحاب هذه الحرف مع الحكومة • وفى بعض الأحيان كان لديهم الحق فى الاستحواذ على قليل من المقاعد فى هيئته العمودية أو مجلس المدينة ، وفى بعض الأحيان الأخرى تنتخب جماعة أخرى من الحكام بواسطتهم الى جانب الجماعة القديمة ، كذلك كانت كل المقاييس المتصلة بالأمور المالية أو تنظيمات المدينة السياسية فى بعض الأحيان تخضع لموافقة مندوبيهم فى اجتماع عام • وفى بعض الأحيان نجحوا فى الهيمنة على كل السلطة التى أبعدهم عنها الأرستقراطيون طويلا • ففى لييج Liége ، على سبيل المثال ، فى سنة ١٣٨٤ ، حين لم يستطع « الكبار » الاستمرار فى المقاومة التى استمرت لأكثر من قرن ، انتهوا بقبول شروط التسليم ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، حكم الحرفيون المدينة تماما • ولم يتمتع بالحقوق السياسية سوى أولئك الذين نقشت أسماؤهم على قوائمهم • وصار المجمع الكنسى ، والمحلفون الذين يعينون بواسطتهم كل عام ويرأسهم « حكامهم » ، مجرد آلة يديرونها حسب رغبتهم • أما السيدان two mastres (سادة البرجوازية) ، فقد جندوا من هذا المجمع ، لتنفيذ أوامرهم ، أما عن المسائل المهمة فانها ترفع للنظر الى الاثنتين والثلاثين حرفة ويبت فى كل منها بأغلبية الأصوات • ونجد أنظمة مشابهة فى النمسا وكولونيا تجعل من اتحادات الصناع وسطاء للحكومة البلدية •

ولكن ما كان ممكنا فى المدن ، حيث لاتحرز صناعة فوائد على حساب صناعة أخرى ، أصبح مستحيلا بعد أن مال الميزان بجلاء لصالح واحدة منهن • ففى مدن الفلاندرز الصناعية الكبرى ، حيث كان يتألف بها اعداد كبرى من النساجين والمقصرين للنسيج ، وحيث كان حرفيوهم يعدون بآلاف كثيرة من الأعضاء ، منعهم ذلك من أن يرتضوا بالدور المحدد

للاتحادات الصغيرة التي لا تتضمن أكثر من مكاسب قليلة • ولقد كان جميعهم قلقين على وضعهم المميز لأن ظروفهم كأصحاب أجور تختلف تماما عن أولئك الحرفيين الذين يخدمون في السوق العام • وبالنسبة لهم ، لم يكن اسقاط الأرستقراطية مسألة سياسية فحسب ، بل هي في المقام الأول مشكلة اجتماعية ، ومن خلالها تطلعوا لنهاية تبعيتهم الاقتصادية ، آملين في أنهم حين يصبح في أيديهم تنظيم ظروف العمل ومعدلات الأجور ، أن تنتهي الظروف غير الثابتة التي خضعوا لها بسبب حرفتهم • ولقد انهمك الكثيرون منهم في كوابيس المساواة ، في عالم : « يجب أن يأخذ فيه كل شخص أكثر مما يأخذه الآخرون » (١) • ولقد كان هؤلاء ، في كل المدن الكبرى ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، قد أعطوا الاشارة للثورة وأيدوا الصراع الخطير الذي أوصلهم الى النفوذ المؤقت بعد النصر في كورتراي Courtai لكن سرعان ما أثارت سيطرتهم باقي البرجوازيين ضدهم • وان تباين ، أو بالأحرى ، تناقض مصالحهم مع أولئك التجـــار والصناع كان كبيرا وبالنسبة للآخرين (الصنــاع) فقد سلموا بأن يكونوا تابعين لصــانعي المــلابس •

ولقد اتحدت رأسمالية كبار التجار والسماسرة أو المنشوردين ، مع صغار المقاولين المستقلين في الصـــناعة المحليـــة ، ضـــد الأجراء والبروليتاريا • وحتى يرضوا جميع الأطراف حـــاولوا أن يقيموا حكومة بلدية يحفظ من خلالها نصيب لكل المجموعات الكبيرة التي تقســم اليها السكان ، طبقة البرجوازية العليا (poorlerie) ، وكتلة صـــغار الحرفيين ، وصانعي الملابس • ولكن التوازن الذي كان يؤمل في احرازه في هـــذه الطريقة لم يكن ، وما كان ســوى توازن عاجـــز • وفي نظـــر النساجين ومقصري الثياب ، لم يكن سوى تدليس ، طالما حكم عليهم بالفعل أن يكونوا دائما أقلية في علاقتهم بأفراد المدن الآخرين • ولاحراز مطالبهم ، لم يكن أمامهم سوى احرازها بالقوة • وبالفعل لم يفشلوا في استخدام القوة • وخلال القرن الرابع عشر ، تراهم في ثورة دائمة ، محرزين لنسلطة ورافضين التخلي عنها ماعدا حين يعانون الجوع من حصار أو تبيدهم مذبحة ، فيضطرون للاستسلام الى حزب زعمائهم •

ولم يكن هنالك شيء محزن أكثر من وضع المدن الفلمنكية ، التي ثار الغضب الاجتماعي فيها مع نوبات الجنون • ففي سنوات ١٣٢٠ — ١٣٢٢ ناشد « أهل يبرس الميسوري الحال » الملك بألا يسمح لمعاقل المدينة

---

(١) L. Verriest, Le registre de la Loi de Tournai de 1302, in Bulletin de la commission royale d'histoire, t. LXXX (1911), p. 445.

الداخلية التى يعيشون فيها والتى تحميهم من « العامة » أن تهدم (١) • ولقد اشتمل تاريخ هذه المدينة ، مثل مدن غينت وبروجز ، على صراعات دموية ، ما بين صناع الملابس « وأولئك الذين يمتلكون أشـياء يخشون فقدانها » • ولقد اتخذ الصراع مرارا وتكرارا مظهر حرب طبقيـة بين الأغنياء والفقراء • ولكن ذلك كان فى الظاهر فقط • فلم يكن هنالك فهم عام بين طبقات العمال عن الثورة • ولقد عامل مقصرو الثياب ، الذين طالب النساجون بتحديد اجورهم أو انقاصها ، عاملوا النساجين على أنهم أعداء لهم ، وحتى يهربوا من اسـتغلالهم ، وقفوا الى جـانب « الناس الميسـورين » أما عن أرباب الحرف الصـغيرة ، فقد كرهـوا جـانب « النسـاجين المكروهين » (٢) • الذين تداخـلوا فى أعمالهـم وأضروا بمصالحهم ، والذين أفزعتهم طموحاتهم الشيوعية أكثر مما أفزعهم الحاكم والنبلاء • لكن على الدوام فى كل حالات الثورة حيث كانوا ، ازداد سخط هؤلاء الناس ، حين أدركوا أنه ، رغم كل جهودهم وحتى حينما كانوا فى السلطة ، فان وضعهم لم يتحسن • ولقد كانوا عاجزين عن فهم ان طبيعة التجارة الكبرى والصناعة الرأسمالية قد حتمت عليهم خطر طبقة الأجراء وأنزلت بهم بؤس الكوارث والبطالة ، فاعتقدوا بأنهم ضحايا « الأغنياء » الذين يعملون لحسابهم وليس قبل أن يضطرهم خراب صناعة الملابس للهجرة للبحث عن عيش لهم ينتهى هذا الصراع المرير الذى اشتبكوا فيه •

أساسا ، فلقد كان الموقف فى مراكز الصناعة الكبرى فى اقليم الفلاندرز مماثلا للموقف فى كل المدن التى رجحت فيهـا كفة الصـادرات الصناعية عن الصناعة المحلية • وفى دينانت أحرز النحاسون نفوذا زائدا مثـــل ذلك النفوذ الذى أحرزه نســاجو ومقصرو الملابس فى غينت أو يبريس • وفلورنسا ، التى أصبحت فجأة مدينة الصيارفة والحرايرين، أيضا شهدت كتلة العمال تحرز السلطة بالقوة من الطبقة الرأسمالية • ولقد أشـــعل ثـورة سيومبى Ciompi (١٣٧٩ ـ ١٣٨٢) وقادهـا صناع الملابس ، وشكلت ذيلا للاضطرابات الثـورية فى شمال أوربا فى نفس الوقت • وليس من المبالغة أن نقول انه على ضفاف نهر الشيلد مثلما

---

(١) « لقد قام عامة يبرس بخلع أبواب المدينة الخارجية ، وارتكبوا جرائم ومكائد كثيرة وأثاروا الرعب والفزع على أبوابها ••• واذا كانت هذه الأبواب قوية بما فيه الكفاية لما حدث القتل فى المدينة ليلا ولما حققوا أغراضهم » •

Bulletin de la Commission royale d'histoire, 5e série, t. VII (1987), p. 28.

(٢) Chronique rimte des troubles de Flandre en 1379-1380, ed. H. Pirenne, p. 38 (Ghent, 1902).

على نهر الأرنو فكر الثــوار فى فرض ديكتاتــورية البروليتــاريا على خصومهم ٠

زيادة على ذلك ، فعند حوالى نهاية القرن بدأت البروليتاريا تظهــر فى الحرف الصغيرة ، رغم الحقيقة المعروفة من أن تنظيمهم قد صمم لحماية الاستقلال الاقتصادى لأفرادها ٠ ولقد استمر خلو الرجل قائما بين رؤساء الحرف وبين صبيانهم أو عمال اليومية الأجراء ، طالما كان للأخيرين حق الوصول الى مكانة أسيادهم ٠ لكن منذ اللحظة التى توقف فيها السكان عن الزيادة ووجهت الحرف بضرورة ثبات الانتاج ، وصار الوصول الى الرئاسة صعب المنــال للغاية ٠ ولقــد صار أمر بقاء الحرفة عائلية يتحفظ بكل المقاييس ، فعلى سبيل المثال ، أصبح الحرفى يستغرق مددا طويلة كصبى تحت التمرين ، كذلك كان عليه دفع الرسوم المطلوبة للحصول على لقب المعلم فى الصنعة وسحب نموذج العمل الذى يقدم الى نقابة الصناع كدليل على أهلية الصانع لرتبة معلم فى الصنعة ، كضمان البراعة فى أولئك الذين يتطلعون اليها ٠ وباختصار ، فان كل نقابة للصناع تحولت تدريجيا الى عصبة مستخدمين محبة لذاتها ، ومصرة على أن تورث أبناءها أو أصهارها مجموعة العمال الثابتين لدكاكينهم الصغيرة ٠

ولهذا ، فليس من المستغرب أن نلحظ من منتصف القرن الرابع عشر ، بين الصبيان وخصوصا بين عمال اليوميــة الأجراء ، الذين رأوا كل آمال تقدم ظروفهم قد تلاشت ، أنهم أصبحوا فى حالة استياء وتذمر ، أظهر نفسه فى بادىء الأمر فى شكل اضرابات ، ومطالب برفع الأجــور وانتهت بدعاوى بالمناصفة ومساواتهم مع معلميهم فى نقابة الحرفة ٠ وفى لييج قال جــاك دى همريكوت Jacques de Hemricounrt (١٣٣٣ ـ ١٤٠٣) : « أما بعد ٠٠٠٠ فقد اجتمع المعلمون من أجل أداء وظائفهم ، وكان الخدم والصبيان متفقين فى الرأى ويتصرفون على أنهم شركاء المعلمين فى الرئاسة » (١) ٠

ولايضاح الأمر فقد كان العامل باليومية ، مساعد المعلم متوافقا فى حيــاته وهو غالبا ما يميل الى آن يتزوج من خــلال عائلته وأن يخلفه أبنه فى حــرفته . وبالتــدريج يتحول الى مجرد أجــير ٠ ولقــد عرفت الحرفة بدورها معارضة العمل ورأس المال ٠ وبسبب الطابع العائلى الذى ساد لمدة طويلة صار ذلك بديلا للصراع بين المستخدم وصاحب العمل ٠ وبين الأجراء أدت وحدة المصالح والمطالب الى ميلاد اتحادات تساعد وتدافع

---

(١) J. de Hemricourt, Le patron de la temporalité des évéques de liége, p. 56, in t. III of the Oeuvres de J. de Hemicouri, tdited by C. de Borman, A. Bayot and E. Poncel et (Brussels, 1931).

عن حقوق العمـــال امتــدت الى عـــدة مدن · مثل : اتحـــاد الصـحبة Compagnonnages أو gesellenverbande وهي اتحادات للأجراء غير مترابطة ظهرت لفترة قصيرة مبكرة فى فرنسا ولفترة قصيرة متـأخرة فى ألمانيا ، بهدف ايجاد عمل لأعضائها وحمايتهم ضد استغلال رؤسائهم · وعلى هذه الاتحادات الكريهة أجاب المعلمون من جانبهم بايجاد حدود رابطة بين المدن للدفاع عنهم · وفى سنة ١٣٨٣ ، تجمع الحدادون فى مينز ، وورمز ، وسبير ، وفرانكفورت ، وأشافنبرج Aschaffenberg ، وبنجن Bingen وأوبنهايم Oppenheim ، وكريزناتش Kreuznach فى اتحاد ضد مجلس رؤساء حرفهم (Knechten) وبدءوا هياجهم ضده (١) ·

وهكذا ، فلقد ظهر بين المدن مقـاومة اقتصادية واجتماعية عنيفة ، واسعة مما يثبت أنها انبثقت من دوافع عميقة ومتأصلة ولكن ، برغم قوتها، فانها لم تنجح فى الاطاحة بالنظام القائم ، الذى كان قويا بدرجة لا يؤثر فيها عليه خطر الحرفيين والعمال · ولقد بحث سـكان المدن الساخطون هنا وهناك لجذب أهل الضواحى الى حركتهم · ولقد فصلت سكان المدن عن الفلاحين فوارق عديدة فى الروح ، وفى الاحتياجات والمصالح باعدت بينهم وبين الفلاحين فى تواجد أى تفاهم ممكن بين اناس ينتمون بالفعل الى عالمين مختلفين · وهكذا حكم على محاولات المدن الثورية بالفشل الأكيد· ولقد قامت المقاطعات والنبلاء بانقاذ كل أولئك الذين كان يتهدد منهم ، من كبار التجار ، وكبار البرجوازيين ورؤساء الحرف · وخـلال القرن الخامس عشر فان الموج الذى ثار فى القرن السابق له ، تراجع على نفسه ، ليهدم تحالف كل المصالح الذى كان قد تلاحم ضدها ·

٢ ـ الحمائية (الانتاج الوطنى) ، والرأسمالية ، والمركنتلية (٢) :

ان الفترة التى سادت فيها النقابات الحرفية النظام الاقتصادى فى المدن هى ذات الفترة التى بلغ الانتاج الوطنى للمدينة أقصى علو له · وأيا

---

(١) Kulischer, Op. cit., t. I, p. 214.

(٢) راجع كذلك ما سبق فى هذا الخصوص ·

Bibliography. W. Schmidt Rimpler, Geschichte des Kommissionsgeschäfts in Deuschland, t. I Halle, 1915). A. Schulte, Geschichte der grossen Ravensburger Hanrelsgesellschaft, 1380-1530 (Stuttgart, 1923, 3 vols.) W. Stieda, Briefwechsel eines deutschen Kaufmanns im XV Jahrhundert (Leipzig, 1921). A. Grunzweig, Correspondance de la filial de Bruges des Medici, I (Brussels, 1931). H. Prutz,

كان تباعد مصالحهم الحرفية ، فان كل التجمعات الصناعية اتفقت فى تصميمها على القضاء على الاحتكار الذى تمتع به كل منهم الى أقصى حد ولسحق كل تفكير فردى أنانى والقضاء على كل مجالات المنافسة بينهم • ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أصبح المستهلك ضحية تماما للمنتج • ولقد كان هدف العمال الأكبر فى التصدير الصناعى هو رفع الأجور ، وجعل أولئك الذين يمونون السوق المحلى أن يرفعوا الأسعار ، أو يعملوا على الأقل على ثباتها • ولقد كانت رؤيتهم محصورة ومحدودة بأسوار المدينة ، وكانوا جميعهم مقتنعين بأن رخاءهم من الممكن أن يتحقق بالوسيلة البسيطة وهى منع أى منافسة قد تأتى من الخارج • ولقد أصبحت تخصصيتهم أكثر سرعة ، ولم يكن فى تصورها أن كل حرفة هى ملكية مطلقة لجماعة منفصلة أكرهت على مثل هذه الاجراءات الصارمة كتلك التى كانت فى حرف العصور الوسطى هذه • وفى نظرهم أنه ليست هنالك حقوق سوى تلك التى أحرزت ، وأنه لكل مجموعة يكون رأى الجماعة له الأسبقية عن مصالحها الخاصة •

وتوجد لهذا المظهر شواهد على كل الجهات • ولعل أبرزها ضوابط اكتساب حق المواطنة ، التى كانت لازمة فى كل مكان • وقد رغبت كل مدينة فى الاحتفاظ لمواطنيها بالفوائد التى تستطيع أن توفرها لهم ، وأعظمها الامتيازات ، التى كان المواطنون أقل رغبة فى مقاسمتها مع الآخرين • وذلك يفسر التزايد المستمر فى الرسوم المدفوعة للدخول فى الامتيازات والحصول على الأهليات المطلوبة ، مثل اثبات الميلاد الشرعى ، والحصول على شهادات الأصل ، أو حسن الخلق ، وما شاكل ذلك • ولهذا ، أيضا ، فان السياسة التى اتبعتها كل حرفة فى ابعاد « الأجانب » وتزايد الاتجاه لخلق فراغ حول أسوار المدن ، كان لتأكيد تفوقها الاقتصادى • وتحت حجة الامتياز ، أو بتأثير اغتصابه من الحاكم بالثورة أو الرشوة ، صار من الممنوع فتح دكان أو ورشة خارج حدود المدينة ، أو البيع فى المدينة (وقت انعقاد الأسواق) سلعة لم تصنع هناك • ولقد ازدادت حدة هذه التدابير مع نمو الحكومة « الديمقراطية » • وفى غينت سنة ١٢٩٧ كان ادخال الملابس الصوفية من خارج المدينة لازال مسموحا به ، شريطة أن تقصر فى الداخل ، ولكن فى سنة ١٣٠٢ سحبت هذه الرخصة ومن

= Jacques Coeur (Berlin, 1911). L. Guiraud, Recherches sur le prétendu rôle de Jacques Coeur, in Mémoires de la société archéologique de Montpellier (1900). H. Pirenne, Les étapes de l'histoire sociale du capitalisme, p. 133, n. 19. J. Strieder, Studien zur Geschichte hapitalistischer Organisations formen. Monopole, Kartelle und Aktiengesellschaften im Mittelater und zum Beginn der Neuzeil, 2nd ed. (Munich, 1925).

سنة ١٣١٤ فصاعدا صار ممنوعا دخول ملابس مصنعة الى المدينة خلال نصف قطر قدره ثلاثة أميال حول سور المدينة • ولم يكن ذلك وعيدا لا قيمة له • فخلال القرن الرابع عشر كله شهد هذا القرن حملات عسكرية منظمة ترسل ضد القرى المجاورة ، يتم بواسطتها تحطيم المناول والمناسج فيها وتحطيم الجرار الكبيرة أو الاستيلاء عليها (١) • ومن ناحية أخرى ، قامت كل مدينة صناعية كبرى بتشغيل نســاء الريف فى غزل خيوط الصوف واحتفظت بعملهن لحاجتها المطلقة • ففى فلورنسا ، مثلما فى الفلاندرز ، استخدمت النسوة فى خـدمة ورش المدينة وأجبرن على أن يحضرن غزلهن الى مخازن أقيمت لهذا الغرض • وقد شاعت هـذه السنة فى كل مكان • ولقد أخذت المدن الكبرى على عاتقها حق منع جيرانها من تصنيع أقمشـة يكون عليهـا طلب زائد ، أو شـكاية من تزييف هـذه الخصوصية أو تلك منعا للمنافسة • ولقد أخضعت مدن يبرس ، وغينت ، وبروجز كل صـناعة المراكز الثـانوية فى الاقليم لسـيطرتها ، بحجة « الامتيازات » ، التى لم يرها أحد ، ولكن مجرد اعلانها كان كافيا عندهم لاثبات وجودها • وان الدعوة القضائية التى رفعتها بوبيرين Poperingh ضد يبريس سنة ١٣٧٣ ألقت ضوءا ساطعا على الموقف • وحين توسل البزازون فى هذه المدينة باسم الحق الطبيعى لكل انسان فى أن يكسب عيشه » ، أنكرت يبريس « الحق المدنى » الذى يؤيد امتيازهم (٢) • ولقد كان موقف الحرفيين المتشدد تجاه الرأسمالية واحدا من أكبر عوامل الارتياب والشك • وقد أجبر التجار الكبار الذين نظموا صناعة الملابس ليسجلوا أنفسهم فى نقابة النساجين وأن يخضعوا لتنظيمات أنزلتهم الى مجرد مركز رؤساء الورش • وبالطبع فان طبيعة « الصناعة الكبرى » من المحتم أنها حفظت هذه التنظيمات داخل حدود لا تتجاوز احداث خراب سريع • ولقد كان من المستحيل منع هؤلاء الرؤساء الأغنياء من الدخول فى أعمال لها علاقة بالجماعات الايطالية أو تجار الهانز ، الذين أخذوا مكانهم فى كل المدن الفلمنكية كمصدرين للصوف ومستوردين للملابس • وحقيقة أنهم أجانب حمتهم هذه الحقيقة من القوانين التى يخضع المواطنون تحت طائلتها• ومع ذلك تعلقت الصناعة تدريجيـا ، نتيجة للارتفـاع المستمر للأجور ، والمطالب المتزايدة للعمال ، والعدوان الدائم للنساجين والمقصرين ، والمحافظة المتشددة للعمليات التقنية التى لا يمكن لها أن تتغير بدون نقض الامتياز• وحوالى سنة ١٣٥٠ بدأ العمال يهاجرون الى فلورنسا ، وقد أغرتهم ، دون

---

(١) G. Espinas and H. Pirenne, Recueil de documents relatifs à l'histoire de l'industrie en Flandre, t. II, p. 606 et seq.

(٢) G. Espinas and H. Pirenne, Recueil de documents relatifs à l'histoire de l'industrie en Flandre, t. III, p. 168 et seq.

شك ، وعود وسطاء التجار الايطاليين ، أو يهاجرون فى أعداد كبيرة أيضا الى انجلترا ، التى استفاد مليكها بمهارة وحذق من الوضع القائم لترويج صناعة الملابس الوطنية (١) . وبدأت الجزيرة التى كانت لقرون طويلة تزود اقليم الفلاندرز بالمادة الخام ، بدأت الآن تنافس بها ومع بداية القرن الخامس عشر أصبحت المنافسة لا تقاوم . وفى برابانت ، أيضا ، جاءت الأسباب المشابهة بنفس النتائج . وحين أخذت بعض الملاحظات مؤخرا عما يحدث ، كان ذلك قد جاء متأخرا وفى سنة ١٤٣٥ عبثا حاولت بروكسل أن تحرر بائعى ملابسها بالجملة من اجبـــارهم على الانضمام الى رابطة النساجين (٢) .

ولقد قادت الاقليمية المدنية المدن الى عرقلة التجارة الواسعة بنفس الطريقة تماما التى عرقلت بها الصناعة الواسعة . ولم يكن لتدهور الأسواق العالمية خلال القرن الرابع عشر أدنى صلة بكراهية الصناع لمجتمع غير متناقض تماما مع حماية انتاجه الوطنى . اضافة الى ذلك ، فان « الحق الأساسى » الذى بموجبه أجبرت مدن عديدة التجارة بالمرور عبرها لتفريغ وعرض حمولتها للبيع للبرجوازيين قبل الاقلاع ، كان عائقا خطيرا للنقل العالمى . وفى كل مكان طالب ملاحو المراكب بحقهم فى قطر كل المراكب الغادية والرائحة فى المياه المجاورة للمدينة وفى بعض الأحيان حتى فى تفريغ حمولتها من البضائع وتحميلها فى قواربهم (٣) .

ولقد كان هنالك بالطبع استثناء للقاعدة . فلم يكن نمو المدن فى كل مكان بنفس السرعة فى مكان آخر ، كذلك لم يكن تسلط وسيطرة الحرفيين قائمة فى كل مكان بحدة متساوية ، فلقد كانت هنالك فوارق دقيقة فى درجة الحمائية المدنية . فمثلا ، فانها كانت تلاحظ بدرجـة ضئيلة فى جنوب ألمانيا ، حيث لم تكد الصناعة الواسعة والتجارة تبدأ

---

(١) عن هجرة العمال الفلمنكيين والبرابانتيين الى فلورنسا ، انظر :

A. Doren, Deutsche Handwerker und Handwertrüder-schaften im mittelaterlichen Italien (Berlin, 1903). M. Battistini, La confrtrie de Sainte-Barbe des Flamands à Florence (Brussel-, 1931). M. Grunzweig, Les soi-disant statuts de la conférie de Sainte-Barbe de Florence, in Bulletin de la Commission royale d'histoire, t. XCVI (1932), p. 333 et seq.

أما عن هجرتهم لانجلترا :

E. Lipson, English Economic History, t. I, pp. 309, 399. H. de Sagher, L'immigration des tisserands fiamands et barbancons en Angletterre sous Edouard III., in Mélanges ..., Pirenne (Brussel , 1926).

(٢) G. des Marez, L'organisation du travail à Bruxelles, p. 484.

(٣) G. Bigwood, Gand et la circulation des grains en Flandre du XIVe au XVIIIe siècle, in Vierteljahrscrift für Social - und Wirtscfaftsgeschichte, t. IV (1906), p. 307 et seq.

فى الانتعاش فيها خلال القرن الرابع عشر ، عنها فى الأراضى المنخفضة أو فى أراضى الراين ، ذات التاريخ الاقتصادى الطويل • وفى فرنسا وانجلترا منعت السلطات الملكية نتائجها من النمو والوصول الى كمالها(١)• بالاضافة الى ذلك ، فان قوة رأس المال فى ايطاليا كانت دائما كافية تماما فى فرض قيود عليها • وكل ما نستطيع قوله بدون تحفظ ، انه فى القرن الرابع عشر ، بالمقارنة بالقرن الثالث عشر ، فان الصناعة قد دفعت الى أقصى حد لها روح الحق المحلى فى بيع سلعة معينة فى منطقة معينة كانت على الدوام موروثة فيها •

ولكن دون جدوى فقد تابعت المدن سياستها فى تحصيل الضرائب واستغلال التجارة الواسعة ، ولم تستطع أن تستغنى عنها ، ولم تكن لديهم الرغبة فى ذلك لأن المدينة لا تستطيع أن تكون مدينة نشيطة أو مزدحمة بالسكان ما لم تكن التجارة أساسية لها • وفضلا عن ذلك ، فان التجارة تزود المدن وسكانها بنصيب كبير من طعامها المستورد وتزود الحرفيين بكل ما يحتاجونه من مواد خام • وبواسطة التجارة تحصل الفنادق على نبيذها ، ويحصل تجار السمك على الرنجة والسردين ، ويحصل تجار التوابل على سكرهم وفلفلهم والقرفة والزنجبيل ، ويحصل الصيادلة على عقاقيرهم الطبية ، ويحصل الاسكافيون على الجلود ، وصناع الأوانى على الرصاص والصفيح ، والنساجون على الصوف ، والمقصرون للنسيج على الصابون ، والصباغون على النيلة والشب وصبغ خشب البرازيل • وبواسطة التجارة تصدر صناعة المدينة الى الأسواق الخارجية • وكل ما على المدينة من عمل هو أن تنظم الأشكال التى يتخذها داخل أسوارها هذا النشاط الحيوى المتنوع • وكانت هذه المدن غير قادرة تماما على فرض أية سيطرة على توسعها وانتشارها ، على المصادر التى تغذيها ، أو الأموال التى تستخدم فيها ، وبالطبع فقد كان التنظيم الاقتصادى الذى كان يعتمد على التجارة بالجملة قد تملص من ذلك • وفوق هذا الحقل الواسع ظل رأس المال هو صاحب القوة ، متحكما فى كل من التجارة البحرية الواسعة والنقل البرى ، وفى كل من تجارة التصدير والاستيراد • ولقد انتشر رأس المال على كل أوربا واحتضن المدن كما احتضن المحيط الجزر المحيط بها •

ولقد كان النمو السريع للجمعيات التجارية واحدا من أهم الظواهر الملفتة للنظر فى القرنين الرابع والخامس عشر ، كل بمؤسساتها الفرعية ،

---

(١) انظر ما سبق • ولقد قصد المرسوم الذى صدر سنة ١٣٥١ فى فرنسا ، لقمع النقابات ، تقليل تحفظاتهم على حرية العمل مقابل تخفيض الأسعار •

ومراسليها ووكلائها التجاريين فى أجزاء مختلفة من القارة • ولقد حذا حذو الجمعيات الايطالية القوية فى القرن الثالث عشر جمعيات أخرى فى شمال الألب • ولقد قامت هذه الجمعيات بتعليم الناس كيفية ادارة رأس المال ، ومسك الدفاتر وكل أشكال الائتمان ، وبرغم أنهم واصلوا الهيمنة على الاتجار فى النقود والعملة ، الا أنهم وجدوا أنفسهم فى مواجهة عدد متزايد من المنافسين فى الاتجار فى السلع • ويكفى أن نوجه النظر الى وجود شركات تجارية فى ألمانيا مثل شركة Hildebrand Vcikinchusen فى ليوبيك Lubeck ، التى امتدت تعاملاتها من بروجز الى البندقية والى الأطراف البعيدة للبلطيق ، أو مثل شركة Grosse Ravensburger Gesellschaft التى انتشرت فى كل وسط أوربا ، وفى ايطاليا وأسبانيا • أما عن فرنسا وانجلترا ، فان الأولى خربتها حرب المائة عام والثانية استغرقتها الحرب ، مما أدى الى ضعف دورهم ونشاطهم فى توسع رأس المال •

ومع ذلك ، فان ايطاليا قد أحرزت المكانة الأولى بسبب حيويتها غير العادية • فلقد انبثقت شركات جديدة على أنقاض تلك التى كانت قد أفلست فى منتصف القرن الرابع عشر ، وكان أعظمها تلك التى أقامتها أسرة ميدتشى Medici ، فى القرن الخامس عشر لتصبح قوة مالية لم ير العالم مثلها من قبل •

ولقد أظهر قيام وقوة الرأسمالية نفسه فى آخر العصور الوسطى واضحا فى اتجاهات عدة • ومن مطلع القرن الخامس عشر ، تنازل سعر الفائدة الذى كان قد فرض نفسه فى سائر الأنحاء من ١٢ الى ١٤ ٪ الى ٥ الى ١٠ ٪ ولقد صار نظام الاقراض نظاما محكما بفضل بعض التدابير مثل تقنية قبول الحوالات والاعتراض على الكمبيالات • وفى جنوة من الممكن اعتبار Casa di S. Georgio ، الذى أسس سنة ١٤٠٧ كأول بنك حديث ، وتقارن المضاربة فى أسهمه فى أهميتها وفى نفوذها على الوضع المالى بتلك التى كانت لسندات دين الحكومة البريطانية الموحد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر (١) • وهناك بنوك أخرى مثل : بنك سورانزو فى البندقية Saranzo وبنك مديتشى فى فلورنسا ، اللذان تعاملا فى النقد وفى تجارة السلع ، لم يكونا أقل منه بكثير فى حجم رأس

---

(١) J. ûulischer, Op. cit., t. I, p. 347.

المال ودائرة عملياتهما (١) • ولقد قامت كل هذه الحركة على يد طبقة رجال جدد ، ظهروا فى اللحظة التى كان فيها الاقتصاد المدنى كان قد تحول تحت نفوذ الحرفيين • ولم يكن ذلك بالقطع بمحض الصدفة • فلقد أصبح نبلاء المدن وأشرافها القدامى ، الذين أبعدوا عن السلطة الى البطالة فى ظل الظروف الجديدة التى سادت الحياة الاقتصادية آنذاك ، أصبحوا عدا قلة مستثناة ، طبقة مؤجرين يعيشون على ايجار المنازل والأرض ، التى استثمروا من ريعها جانبا من ثرواتهم • وبدلا منهم كون محدثو النعمة جماعة جديدة من الرأسماليين ، لم تكن تحكمهم تقاليد وكانوا قادرين على تقبل دون صعوبة التغيرات التى حلت محل النظام القديم • وأهم ما قاموا به هو دور « وكلاء التجار » ، أو فى بعض الأحيان صناع أثرياء ، فتح لهم تقدم نظام الائتمان والمضاربة والصرف تقدما ونشاطا ملحوظا (٢)، لكن كثيرا ممن اغتنوا من خدمة الأمراء خاطروا بثرواتهم فى الأعمال التجارية •

وبالطبع ، فان التقدم الادارى وزيادة النفقة على الحفاظ على جيوش المرتزقة وتسليحهم بالمدافع ، قد اضطر الملوك وكبار اللوردات ملاك الأراضى كذلك الى أن يحيطوا أنفسهم بشخصيات من المستشارين والوكلاء من كل الأنواع ، وهم الذين تعهدوا بالقيام بالأعمال التى ترفع النبلاء عن

---

(١) تظهر سجلات التاجر فرانشيسكو داتينى Francesco Datini (ت ١٤١٠) المحفوظة فى تكية براتو ، بالقرب من فلورنسا ، والتى تحتوى على أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ خطاب ، تمثل مراسلاته مع « وكلائه من التجار » أو زبائنه فى ايطاليا وأسبانيا والمغرب وفرنسا وانجلترا ، تظهر وتشهد ، لكثرتها ، توسع تعامل البيوت التجارية الايطالية فى ذلك العهد • انظر :

G. Livi, Dall' Archivio di Francesco Datini (Florence, 1910). Enirco Bensa, Francesco di Marco da Prato (Milan, 1928).

(٢) انظر G. Yver, De Guadagnis, mercatoribus florentinis Lugduni commorantibus (Paris, 1902); M. Jansen, Studien zur fuggergeschichte. I. Die Anfange der Fugger (Leipzig, 1907); A. H. tion of the Royal Historical Society, new Series, XV, 63. E. Coor-Johnson, English Nouveaux-riches in the XIV Century, in Transacnaert, La Draperie-Sayetterie d'Hondschoote, pp. 362, 411, 445.

(يشير الى أن بزازى وتجار القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الذين كانوا فى المقام الاول من الصناع قد جاءوا من عائلات فقيرة وفقيرة جدا • ومن بداية القرن الرابع عشر بدأ النبلاء ينشغلون فى الأعمال التجارية فى الأراضى المنخفضة •

A de chestret, Renaud, de Schoenau, Memoire S de l'Académie royale de Belgique (Brussels, 1892).

وفى بداية القرن الخامس عشر طلب هنرى دى بورسيلين ، ، سير دى فيير Henri de Borsselen, sire de Veere أن تبنى له سفن وقام بالاتجار بها •

Z.W. Sneller, Walcheren in de XVe eeuw (Utrecht, 1916).

القيام بها أو عجزوا عن القيام بها . ولقد كان شاغلهم الرئيسى الادارة المالية ، وطالما حصلوا على المال الذى كان يحتاج اليه أسيادهم ، كانت لهم سلطة بألا يستفسر أحد عن الأرباح التى يحصلون عليها ، من جراء التعامل النقـدى أو الاتفاقات التى يبرمونها مع المتفقـــين معهم ، ومع الصـيارفة والمقرضين الذين يتعـاملون من خـلالهم . ولقد كان جاك كوير Jacques Coeur أشهر وكلاء هذه الطبقة الجديدة من الأثريـاء . ولقد كان هنالك الكثيرون من حوله ، مثل : غليومدى ديفينفوورد Guillaume de Duvenvoorde ، المستشار المخلص لدوق برابانت ، الذى أسست ثروته بيت ناسو Nassau ، أو نيقولا رولين Nicolas Rolin وبيير بلاديلين Pierre Bladelin ، الذين يدينون بثرواتهم لمكاتب أنجزت لخدمة فيليب الطيب دوق برجانديا ، أو للسمبلانسيين Semblancays والدورجيمينيش d'Orgements فى بلاط ملك فرنسا (١) . ولقد كان تزويدهم بالمؤنة للبلاط الملكى ، الذى ازدادت بفضلهم رفاهيته وأعمالهم فى التعاقدات للجيش كانتا مصدر ربحهم الواسع . وفى سنة ١٣٨٨ ، تعاقد التاجر الباريسى ، نيقولا بولارد Nicolas Boullard على تزويد القوات التى جندها شارل السادس لحملة جيلدرز Guelders ، بمقدار ١٠٠٫٠٠٠ دينار ذهب (٢) . ولقد صار دينو رابوندى اللوقى Dino Rapondi of Lucca المقرض الرئيسى للبلاط البرجاندى (٣) . وأينما كان فقد أحرز كبار رجال المال الأهمية فى بلاط الحكومات وكانوا موضع ترحيب من كبار الأرستقراطيين ، الذين منحـــوهم المكانة والمنـزلة فى مقابل خدماتهم .

وبالطبع ، فانه مهما اختلفت أصولهم ، فان رأسماليى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانوا جميعهم مضطرين للدخول فى علاقات مع الأمراء بسبب ما نشأ بينهما من مصالح متلاحمة . فمن جانب فان الأمراء كانوا لا يستطيعون مقابلة نفقتهم العامة أو الخاصة دون الرجوع الى رجال المال، ولكن على الجانب الآخر فان كبار التجار ، والصيارفة وملاك السفن نظروا الى الأمراء كحماة لهم ضد الاستثناءات البلدية الجائرة ، كذلك لاخماد ثورات المدنيين ، ولضمان دورة رأســـمالهم من مال وبضـائع وطالما أن

---

(١) J. Cuvelier, Les origines de la fortune de la maison d'Orange Nassau, in Mémoire de l'Acadtmie royale de Belgique (1921); L. Mirot, Une grande famille parlementaire an XIVe et au XVe siècle. Les d'Orgement, leur origine, leur fortune, etc. (Paris, 1913) ; A. La bougeoisie financière au début du XVIe siécle (Paris, 1895).

(٢) Chronique du Religieux de Sain-Denfs, ed. Bellaguet, t. I, p. 533.

وفى سنة ١٣٨٣ قام بتزويد الجيش بالدقيق Ibid., p. 265.

(٣) L. Mirot, Etudes lucquoises (Paris, 1930).

« أولئك الذين يمتلكون أشياء يخافون من فقدها » كانوا فى حالة قلق من الفورات الاجتماعية أو الحركات الشيوعية ، كلما ارتموا فى أحضان السلطة الملكية كملجأ وحيد لهم • حتى الصناع ، حين جاء دور التهديد لهم من جانب العمال الجوالين ، لجأوا الى حمايتها ، لأنها هى التى كانت تحمى النظام •

ولقد كانت الاقليمية المدنية ، مكروهة من قبل الأمراء لأسباب سياسية ، كذلك كانت مكروهة أيضا لأسباب اقتصادية لكل من تأثرت أعمالهم ومصالحهم بها • وفى اقليم الفلاندرز ناشدت المدن الصغيرة الكونت ضد طغيان المدن الكبرى • ومن الأشياء المميزة للكونت تدخله فى مصالح الصناعة الريفية التى ضايقتها المدن بتعسف شديد • ومنذ عهد حكم لويس العفيف Louis de Mâle (١٣٤٦ ـ ١٣٨٤) منح كثير من الفلاحين اللوردات حق تصنيع الملابس • وجنبا الى جنب مع صناعة الطبقة الغنية ، التى كانت قد انحدرت بسبب منافسة صناعة ملابس المدن الكبيرة ، ظهرت آنذاك طبقة « البرازون الجدد » التى اختلفت عن القدامى فى كل من التقنية والظروف التى عاشت فيها • وفى هذه الطبقة حل الصوف الأسبانى محل الصوف الانجليزى ، الذى أصبح قليلا ولا يفى بحاجة الطلب التى تزايدت فى المنازل ، ولقد حلت الملابس الخفيفة المنخفضة الثمن محل « الملابس القيمة القديمة » • لكن فوق كل ذلك ، فان امتيازا حل محل امتياز فى عالم صناعة الملابس ، فهذه الصناعة الريفية صارت صناعة رأسمالية خالصة ، وفيها حل محل التنظيم البلدى الصارم نظام أكثر مرونة ، تمتع خلاله المستخدم بحرية كاملة فى التعاقد وتحديد أجره مع مستخدمه • ولم يعد هناك أى شىء من نظام الاقتصاد المدنى • وان رأس المال الذى اعتقد فى أنه قد يكون قيدا وعائقا ، سرعان ما أظهر اشارات ، فى هذه الصناعة الريفية ، للقوة التى يستخدم نفوذها بنجاح فى القرن السادس عشر (١) • ومن الممكن ملاحظة نفس العمليات فى كل الصناعات الجديدة التى ظهرت فى القرن الرابع عشر ، مثل صناعة السجاد ونسج الكتان وصناعات الورق الأولى ، التى انبثقت فى أجزاء كثيرة من أوربا فى نفس الوقت (٢) •

---

(١) H. Pirenne, Une crise économique au XVIe siècle. La droperie urbaine et la nouvelle draperie en Flandre, in Bull. de la Class des Lettre de l'Acad. royale de Belquigue (1905). E. Coornaert, La Draperie-Sayetterie d'Hondschoote.

(انظر ص ١٤٨ حاشية ٧) •

قارن الهيمنة التى كانت لمنتجى الملابس الانجليز على صناعة الملابس منذ نهاية القرن الرابع عشر • E. Lipson, op. cit., p. 714 et seq.

(٢) A. Blum, les premitres fabriques de papier en Occident, in Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions. 1932.

هذا ولم يتحرك الملوك والأمراء لصالح تقدم الرأسمالية فقط من منطلق اعتبارات مالية • لكن فكر الدولة الذى بدأ يظهر بأن قوتهم قد زادت ، قادهم الى اعتبار أنفسهم حماة « للصالح العام » • ونفس هـذا القرن الرابع عشر الذى شهد التخصصية المدنية فى أوج قمتها ، شهد أيضا حلول تدخل السلطة الملكية فى مجال التاريخ الاقتصادى • وحتى ذلك الوقت كان هذا التدخل قد طرأ هنالك فقط بطريق غير مباشر ، أو بالأحرى فى متابعة امتيازاتها القضائية والمالية والعسكرية • وبحكم أنها حامية للأمن العام فلقد حمت التجار ، وخفضت المكوس على التجارة ، وفى حالة الحرب وضعت حظرا على سفن الأعداء وأعلنت توقف التجارة ، وتركت نشاط عناصرها الاقتصادية لهم • واقتصر عمل المدن على وضع القوانين والتنظيمات لهم • لكن تنافس المدن كان محدودا بالحدود البلدية، ولقد تسببت تخصصيتهم فى أن يكونوا باستمرار فى معارضة بعضهم البعض وجعلت من المستحيل عليهم اتخاذ مقاييس ومعايير لحماية الصالح العام ، الى الحد المعقول المناسب لمصالحهم الشخصية • ولقد كان الأمراء وحدهم قادرين على تحمل اقتصاد مقاطعاتهم ، التى تشكل وتهيمن على الاقتصاد المدنى • وعند نهاية العصور الوسطى ، كان الناس لا يزالون بعيدين عن اللحظة المحددة ، أو السياسة الواعية ، الموجهة حـول هذه النهاية • وبوجه عام فقد لوحظت الاتجاهات المتقطعة نحو ذلك ، لكنها كانت كما لو أنها قد أوضحت ، أنها أينما كانت لها السلطة والقوة فى كل مكان ، فان الدولة تكون متجهـة نحو المركنتلية التجـارية • ومن الواضح أن الكلمة كانت تستخدم آنذاك فى نطاق محدود ، ولكن ، الأمر الغريب هو تصور بقاء الاقتصاد القومى لحكومات أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر ، ويتضح ذلك من تصرف هذه الحكومات الرامى الى حماية الصناعة والتجارة من عناصرها ضد المنافسة الأجنبية ، كذلك لتقديم صيغ وأشكال جديدة للنشاط هنا وهنـاك داخل أقطـارهم • وفى ذلك فقد كانوا ملهمين بأمثلة المدن ، ولم تكن سياستهم فى حقيقتها بأكثر من كونها سياسة مدنية بأوسع معانيها • وهى ما زالت تبقى على الخصائص الرئيسية لهذه السياسة ، كشاهد ، على حماية انتاجها الوطنى • ولقد كان ذلك بداية العملية التى قدرت على المدى الطويل لتلقى جانبا عالمية العصور الوسطى ، وتصبغ علاقات الولايات مع بعضها البعض بالتخصصية الدقيقة التى صارت للمدن الأوربية لعدة قرون •

ولقد ظهرت أول بوادر التحـول نفسها فى انجلترا ، البلد الذى تمتع بأقوى حكومة متحدة عن غيرها • ففى النصف الأول من القرن الرابع عشر حاول الملك ادوارد الثانى أن يمنع استيراد الملابس الأجنبية ، ما عدا تلك المخصصة لاستعمال النبلاء • وفى سنة ١٣٣١ دعا الملك ادوارد الثالث

نساجي الأراضي المنخفضة للاقامة في انجلترا • وأشهر ما تم في هذا الخصوص ذلك المرسوم الذي صدر سنة ١٣٨١ الذي احتفظ بحق تجارة القطر للسفن الانجليزية ، السابق لمرسوم كرومويل البحري ، الذي كان بالطبع من الصعب تطبيقه • وظلت الحركة نشطة في القرن الخامس عشر • ففي سنة ١٤٥٥ منع استيراد السلع الحريرية من أجل حماية الانتاج الوطني، وفي سنة ١٤٦٣ منع الأجانب من تصدير الصوف ، وفي سنة ١٤٦٤ عكست سياسة المنع من استيراد الملابس المصنوعة في القارة سياسة الملك هنري الثالث (١٤٨٥ – ١٥٠٩) ، أول ملوك انجلترا المحدثين ، الذي في عهده صارت انجلترا دولة صناعية أكثر منها دولة زراعية (١) •

ولقد أثارت هذه الاجراءات بالطبع الحنق في الأراضي المنخفضة ، التي تأثرت وعانت صناعاتها المهمة من جرائها • ولقد أجاب على ذلك الملك فيليب الطيب ، دوق برجانديا (١٤١٩ – ٦٧) ، الذيوحد عدة مقاطعات تحت حكمه ، بمنع دخول الملابس الانجليزية الى بلاده • وقد كان يحكم بلادا واسعة سمحت له بأن يتخذ لنفسه سياسة اقليمية تخصصية خالصة • وشرع في رفع مكانة البحرية الهولندية والارتقاء بها وتشجيعها في المنافسة مع الهانز التيوتون ، التي صارت ناجحة تماما في القرن التالي (٢) • ولم يقتصر الملك على تشجيع الهولنديين على الاتجار وحمل المنتجات الصناعية (وقد كانت الصناعة قد تقدمت آنذاك باختراع براميل سمك الرنجة سنة ١٣٨٠) ، ولكنه ساعد في قيام ميناء أنتورب ، الذي احتل مكانة بروجز السابقة ، وأصبح ، بعد قرن من الزمان ، أكبر محطة تجارية في العالم •

أما فرنسا فقد خربتها حرب المائة عام ، ولم تعد لها يقظتها الاقتصادية قبل تولى لويس الحادي عشر عرش البلاد • ونشاط هذا الملك وكفاءته التي تابع سياسته بها في هذا المجال معروفة تماما • ولقد تكفل بتفوق سوق ليون على سوق جنوة ، وحاول أن يؤقلم تربية دودة القز في المملكة ويدخل صناعة استغلال المناجم في دوفيني Dauphiné ، كذلك فكر في تنظيم نوع من المعارض في سفارة فرنسا في لندن ، حتى

---

(١) E. Lipson, Op. cit., p. 502.

وعن سياسة حماية الملك ادوارد الرابع للصناعة انظر :

F. R. Salter, The Hanse Cologne and the Crisis of 1468, in the Economic Hi tory Review (1931), p. 93 et seq.

(٢) E. Vollbehr, Die Holländer und die deutsche Hanse (Lübeck, 1930).

« يثبت للانجليز أن صناعة فرنسا صارت متقدمة مثل صناعة غيرها من سائر الأمم » (١) ٠

ولقد حرمت الفوضى السياسية التى عاشتها ألمانيا فى غياب الحكومة المركزية ، من تقليد جاراتها الغربيات ٠ وان حركة الرأسمالية التى نمت فى تلك الفترة فى مدن جنوب ألمانيا ، وبخاصة فى نورمبرج واوكزبرج ، والتى يرجع اليها ازدهار مناجم بوهيميا والتيرول ، لا تدين بشىء لنفوذ الدولة ٠ أما ايطاليا فقد تقسمت ما بين الأمراء والجمهوريات وكل منهم صارع على السيادة فيها ، وواصلت ذلك الصراع لتسقط فى مساحات اقتصادية مستقلة ، كان اثنان منهما على الأقل ، وهما البندقية وجنوة ، كانتا بسبب اعتمادهما على الشرق ، قوتين اقتصاديتين كبيرتين٠وبالطبع، فان تفوق ايطاليا فى الأعمال المصرفية والبنكية وصناعات الترف والرفاهية كان لا يزال واضحا وله المكانة الناجحة على كل باقى أوربا ، برغم فرقتها السياسية ، وذلك حتى اكتشاف الطرق الجديدة الى الهند الذى حول الاتجاه الرئيسى للملاحة والتجارة من البحر المتوسط الى المحيط الأطلنطى ٠

---

(١) De Maulde, Un essai d'exposition internationale en 1470, in Comptes rendus des séances de l'Académei des Inscriptions (1889).

وعن سياسة الملك لويس الحادى عشر الاقتصادية انظر :

De la Roncière, Première guerre entre le protectionnisme et le libre-échange, in Revue des questions historiques, t. LVIII (1895), P. Boissonade, le socialisme d'Etate.

L'industrie et les classes industrielles en France pendant les deux premiers siècles de l'ére moderne (1453-1551) (Paris, 1927).

قائمة مصادر (ببليوجرافيا) عامة

قائمة مصادر (ببليوجرافيا) عامة

لا توجد هنالك مجموعة متخصصة من المصادر للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى • لكن هنالك وثائق عديدة تختص : بالمدن ، وبتنظيم الصناعة ، والسجلات المدنية العامة والسجلات الخاصة والمراسلات وغيرها ، وقد نشرت هذه الوثائق فى أماكن كثيرة ، ومايزال نشرها يتزايد بأعداد كبيرة • وليس من الفائدة ذكر هذه الوثائق فى هذا المقام • وسوف يجد القارىء اشارات لهذه الوثائق ولمصادر أخرى مختلفة لأقطار مختلفة ولحقب زمنية مختلفة خلال هذا البحث •

بالاضافة الى الوثائق التى تختص مباشرة بالنشاط الاجتماعى والاقتصادى ، فلابد للمؤرخ الذى يتعامل مع هذا الموضوع أن يكون عارفا بالمصادر العامة لتاريخ تلك الحقبة الزمنية التى يتعامل معها • وحقيقة أن جانبا كبيرا من مصادر تاريخ العصور الوسطى مشتق من الحوليات والمصادر القديمة ومن المذكرات العامة والخاصة ومن السجلات وغيرها • لذلك فان وجود قائمة مصادر كاملة للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى سوف تكون ضرورية وسوف تتألف هذه القائمة من قائمة كل مصادر تاريخ العصور الوسطى •

ولقد قام المؤلف بايراد الأعمال الحديثة المتصلة بالنمو الاقتصادى فى أوربا خلال العصور الوسطى عامة أو فى اقليم بعينه محاولة منه لتتبع آثار النهوض الاقتصادى فى أوربا العصور الوسطى • كذلك أورد قائمة بالمصادر المتخصصة فى بداية كل فصل من فصول الكتاب •

مراجع عامة (General Surveys)

— K. Bücher, Die Entstehung der Volkswirtschaft (1893), Tubingen, 7th ed., 1910.

— W. Cunningham, An Essay on Western Civilisation in its Economic Aspects, Cambridge, 1898-1900, 2 vols.

— M. Kowalewsky Dieo Konomische Entwickelung Europas bis zum Beginn der kapitalistischen wirtschafts form (German trans.), Berlin, 1901-14, 7 vols.

— A. Dopsch, Wirtsschaftliche und soziale grundtagen der Europaischen Kulturentwickelung aus der Zeit von Caesar bis auf Karlden Grossen, Vienna, 2nd ed. 1923)4, 2 vols.

— R. Kotzschke, Allgemeine Wirtschaftsgeschichte des Mittelaters, Jena, 1924.

— J. Kulischer, Allegemeine Wirtschaftsgeschichte des Mittelaters und der Neuzeit, Munieh-Berlin, 1928-29, 2 vols.

— J. W. Thompson, An Economic and Social History of the Middle Ages, New-York, London, 1928-31, 2 vols.

— M. Knight, Economic History of Europe to the End of the Middle Ages, Cambridge (Mass.), 1926.

اعمال متصلة باقطار خاصة

المانيا

— K. T. Von Inama-Sternegg, Deutsche Wirtschaftsgeschichte, Leipzig 1978-1901, 4 vols. New edition of t. I, 1909.

— K. Lamprecht, Deutsches Wirtschaftsleben im Mittelater, Untersuchungen über die Entwickelung der materiellen Kultur des platten Landes ... zunacht des Mosellands, Leipzig, 1886, 4 vols.

— Th. von der Goltz, Geschicht der deutschen Landwirtschaft, Stuttgart, 1902, 3, 2 vols

انجلترا

— W. Ashley, An Introduction to English Economic History and Theory, London, 1888-93, 2 vols.

— W. Cunningham, The Growth of English Industry and Commerce, vol I, Middle Ages, Cambridges 5th ed., 1910.

— E. Lipson, Economic History of England, London, Vol. I, 5th ed., 1929.

— J.E.T. Rogers, History of Agriculture and prices in England, vols. I-III, Oxford, 1866-92.

— L. F. Salzman, English Industries of the Middle Ages, Oxford, 2nd ed., 1923.

بلجيكا

— L. Dechesne, Histoire économique et sociale de la Belgique, Paris-Liége, 1932.

فرنسا

— H. Pigeonneau, Histoire du Commerce de la France, Paris, 1885-9, 2 volds.

— E. Lavasseur, Histoire du Commerce de la France, t. I, Paris, 1911.

— Id., Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789, Paris, 2nd ed., 1901.

— H. Sée, Esquisse d'une histoire économique et Sociale de la France, des origins jusqu'd la guerre mondiale, Paris, 1929.

— Id., Les classes rurale et le régime domanial en France au Moyen Age, Paris, 1901.

— Id., Franzosische Wirtschaftsgeschichte, Jena, 1930-36, 2 vols.

— G. d'Avenel, Histoire économique et propriété du salaire et des prix (in France), Paris, 1894-8, 4 vols. française, Paris, 1931.

— M. Bloch, Les caractères originaux de l'Histoire rurale française Paris, 1931.

ايطاليا

— G. Arias, Il sistema della constituzione economica e sociale italiana nell-età dei comuni, Tunin-Rome, 1905.

— G. Yver, Le commerce et les marchands dans l'Italie méridionale au XIII eatau xIVe siécle, Paris, 1903.

— A. Doren, Italienische Wirtschaftsgeschichte, I, Jena, 1934.

— W. Heyd, Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, ed. Furcy — Raynaud, Leipzig, 1885-6, 2 vols. (new impression, 1923).

— A schaube, Handelsgeschichte der romanischen Volker der Mittelmeergebiets bis zum ende der Kreuzzuge, Muniche-Berlin, 1906.

— L. Goldschmidt, Universalgeschichte des Handelsrecht, t. I, Stuttgart, 1891.

— P. Huvelin, Essaie historique sur le droit des marchés et des foires, Paris, 1897.

— P. Boissonnade, Le Travail dans l'Europe chrétienne au Moyen Age, Paris, 1921.

— A. Schulte, Geschichte des mittelaterichen Handels und Verkehrs Zwischen Westdeutschland und Italien, Leipzig, 1900, 2 vols.

— W. Sombart, Der Moderne Kapitalismus, Leipzig, 2nd ed., 1916-27, 4 vols.

دوريات

— Viertaljahrschrift für Social-unl Wirtschaftsgeschichte, herzg. von L. Aubin, Leipzig, (1893-1900, Zeitschrift für Social-und Wirtschaftsgeschichte) : تحت العنوان :

— Revue d'histoire économique et sociale Paris, first published in 1903, by J. M. Keynes and D. H. Macgregor, London, first published in 1926.

— The Economic History Review, ed. by E. Lipson and R.H. Tawney, 1927-34, and by : M. M. Postan from 1934, London, first published in 1927.

— Journal of Economic and Business History, ed by : E. F. Gay and N.S.B. Gras, Harvard University, 1928-32.

— Annales d'histoire économique et sociale, ed. by : M. Bloch and L. Febvre, Paris, first published in 1929.
prix (in France), Paris, 1894-8, 4 Vols.

ومن المهم اضافته هنا هو أن التاريخ الاقتصادى يشغل مكانة مهمة متزايدة فى كل الحقب التاريخية ٠

اقــرأ فى هــذه الســلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رســل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطــة مقابل نقطــة	الدس هكسبــلى
الجغرافيا فى مائة عــام	ت · و · فريمــان
الثقـــافة والمجتمـــع	رايموند وليــامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغــــامضة	ليستردبل راى
الرواية الانجليـــزية	والتـــر ألـن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـــاس
آلهـــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشــاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشــم النحــاس
مجمــوعات النقـــود	ديفيـد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشـــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د · محسن جاسم الموسوى
ديــلان تومــاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفـريد	جــون لويس
الرواية الحــــديثة	جــول ويست
المسرح المصرى المعــاصر	د· عبد المعطى شــعراوى
على محمــود طـه	أنــور المعـــداوى
القــوة النفســية للأهرام	بيــل شــول أدبنيت
فــن الترجمــــة	د · صــفاء خــلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلـــو
ســــتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف . ع . أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
النحل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د. لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د. جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د . غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج. دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د. جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د. مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل. باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكي ف. س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س. م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د. انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شانرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر · بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د · صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ · كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د · السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس و آلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا · هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميـرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربيـة	اعداد/ مونى براح وآخرون
دليـل تنظيم المتـاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليـات فن الاخراج	زيجمونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بـول كولنـر
صـناع الخلود	موريس بير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج٠ بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر ٢ ج	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
السـينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السـلطة والفرد	برتراند راصـل
الأزهر فى الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سـفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصـال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الأداب الأسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتار	د· ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ · ج · ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون ٣ ج	ريتشارد ف · بيرتون
الحضارة الاسلامية	أدمز متز
الطفل ٢ ج	ارنولد جزل
أفريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقي	فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج· كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان ساليه
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف · م · بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكي	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ · تبوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب · ناشى
انواع الفيلم الاميركى	ستالين جين سولومون
الفيلم التسجيلي	اعداد محمود سامي عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	يانكولا فرين

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/١١٧٧٩

ISBN — 977 — 01 — 4652 — 8